كيتلين دوتي

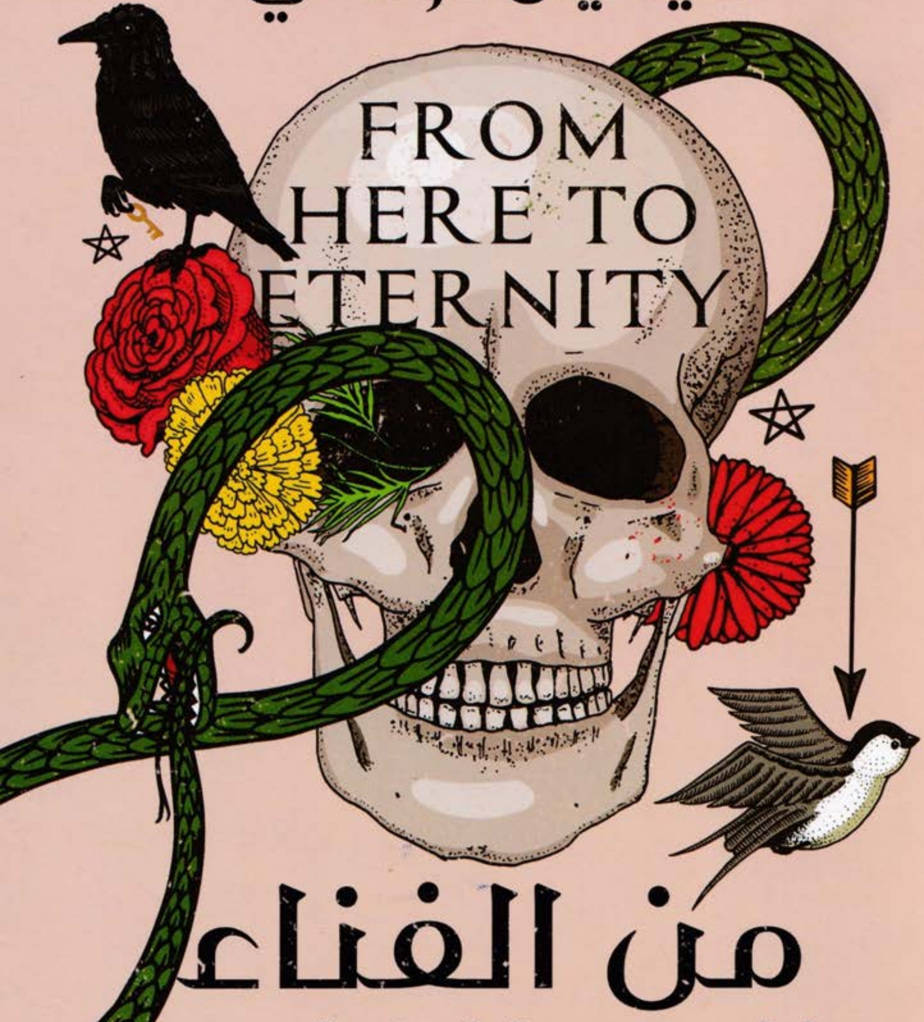

من الفناء إلى الخلود

رحلة لاستكشاف اهتمام الثقافات المختلفة بالموتى والطقوس الجنائزية حول العالم

ترجمة: عمر العوضي

عصير الكتب

مكتبة

مكتبة
t.me/soramnqraa

من الفناء إلى الخلود

منذ خطَت قدمُ الإنسانِ الأرضَ وواجه ما لم يواجهه كائنٌ آخر -إدراكه أنه يومًا ما سيصير جثةً هامدةً- وهو يحاول جاهدًا الوصول إلى أفضل طريقة للتصرُّف في الجثث التي سيكون يومًا أحدها.

في هذا الكتاب، تطوف -الحانوتية وعاملة حرق الجثث- كيتلين دوتي البلاد وتحكي لنا آخر ما توصَّل إليه البشر وأوله في مجال التعامل مع الجثث، وتصف دوافع البشر في التعامل مع الجثث التي تعددت من مجرد التكريم إلى التواصل مع الموتى والاندماج مع النظام البيئي الذي ننتمي إليه. هذا الكتاب مزيجٌ فريد مِن فن الرحلات بحثًا عن العجائب، والسير الذاتية المُحبطة، والطرائف المُقبضة، والمعلومات الفريدة، والعلاج بالصدمة المعرفية لكلِّ مَن اعتاد طريقةً واحدةً للتعامل مع الجثث، والالتزام بتجنُّب الموت والموتى والكلام عنهما. في هذا الكتاب ستعرف كيف ابتدعت بعض العالمات طريقةً "صديقة للبيئة" للدفن، وصعوبات الحرق التقليدي للجثث، وكيف يدفن أهل التبت موتاهم في السماء، ولماذا عزفت النسور عن أكل جثث أتباع زرادشت في برج الصمت.

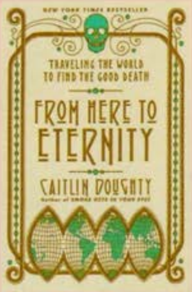

آه، هل تعلم أنَّ الزومبي موجودون حقًّا؟

تصميم الغلاف كريم آدم

9 789779 921839

عصير الكتب

aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb

تتوفر نسخة مع الصور في قناة

مكتبة علي تلجرام

telegram

@soramnqraa

من الفناء إلى الخلود

مكتبة سُر مَن قرأ

كيتلين دوتي

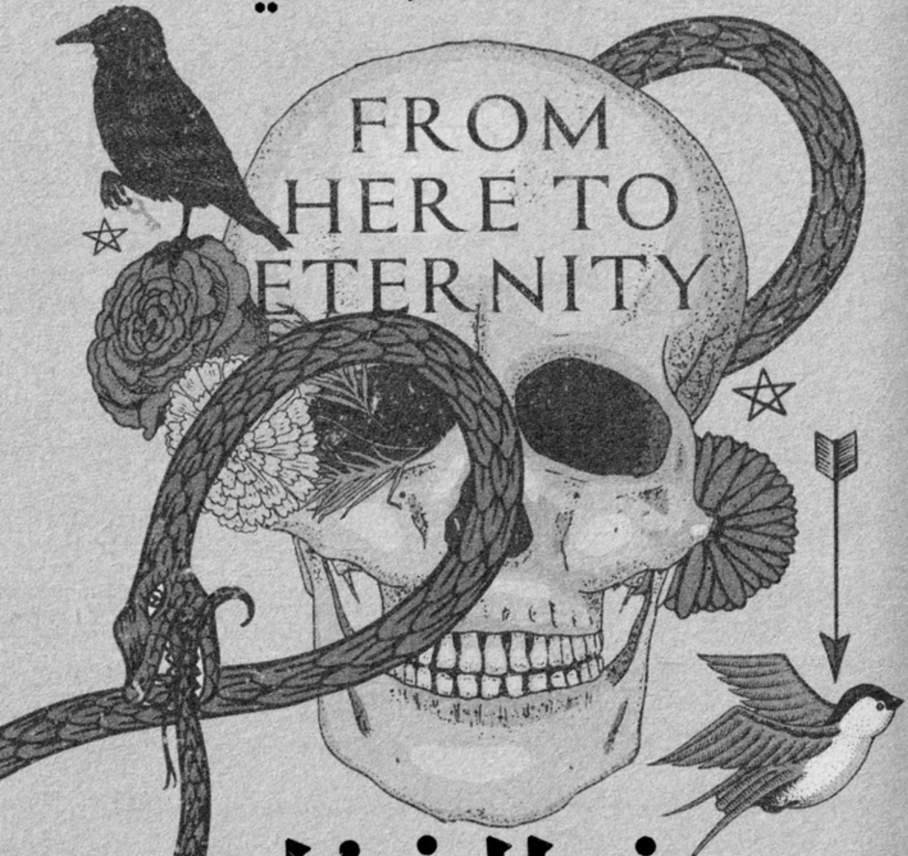

من الفناء إلى الخلود

رحلة لاستكشاف اهتمام الثقافات المختلفة بالموتى والطقوس الجنائزية حول العالم

ترجمة: عمر العوضي

عصير الكتب

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: From Here To Eternity
- العنوان العربي: من الفناء إلى الخلود
- طُبِع بواسطة: W. W. Norton & Company

- حُقوق النشر:
Copyright © 2017 by Caitlin Doughty
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

- ترجمة: عمر العوضي
- تدقيق لغوي: نهال جمال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: يناير/ 2023م
- رقم الإيداع: 2022/27445م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-183-9

المحتويات

المقدمة 17

كولورادو 31

إندونيسيا 55

المكسيك 85

كارولينا الشمالية 109

إسبانيا 139

اليابان 153

بوليفيا 185

كاليفورنيا 207

الخاتمة 221

شكر وتقدير 229

المصادر 231

مؤلفات أخرى لكيتلين دوتي:

الدخان يقتحم عينيك

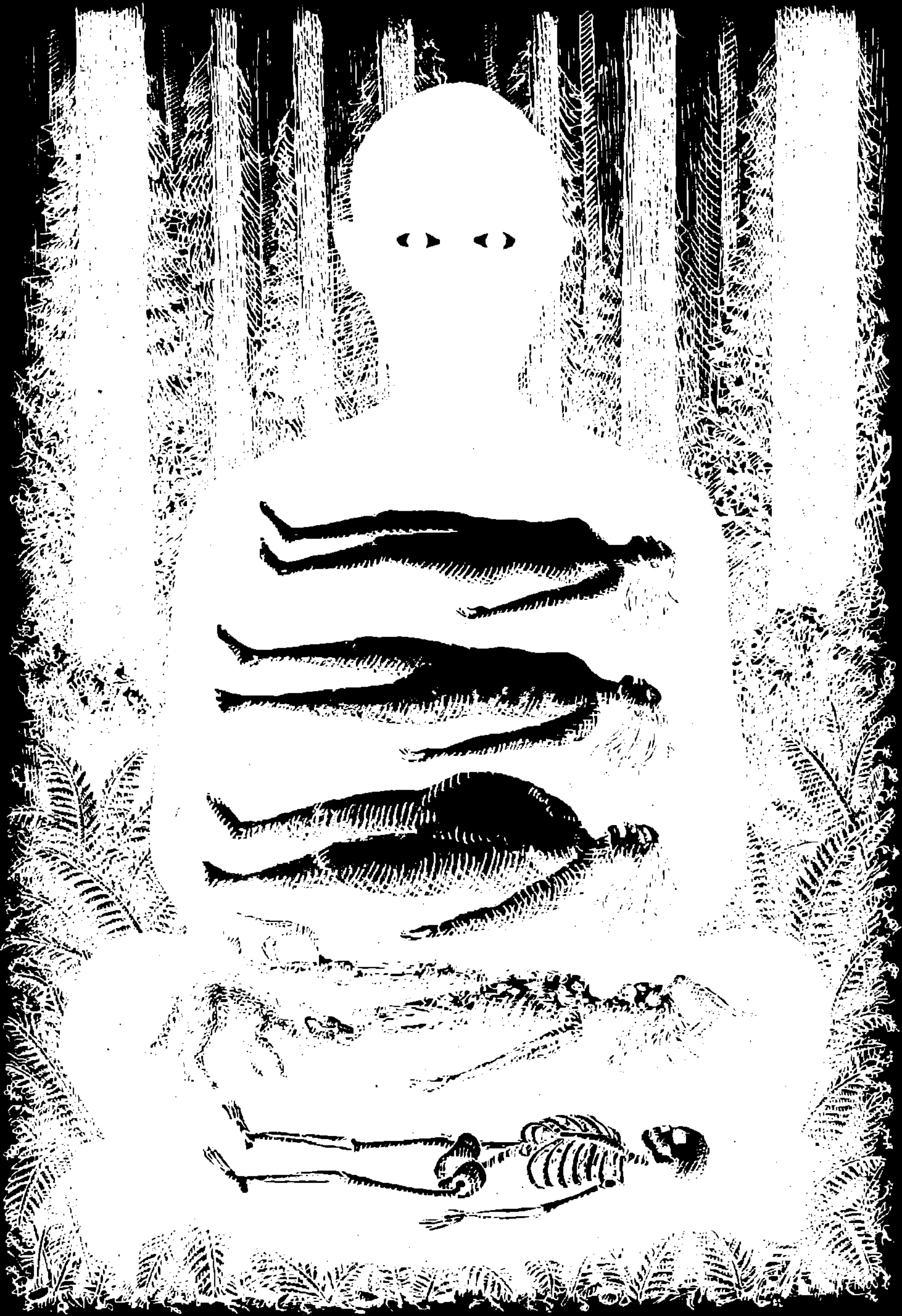

إلى أمي وأبي، وكل أب وأم لا يضيقون بغرابة أبنائهم الغرباء.

إن الراشدين المصابين بالقلق من الموت ليسوا غَنمًا شاردة أصابها داء غريب، بل رجال ونساء لهم أُسَر وعائلات وثقافة عجزت عن منحهم ملابس ملائمة تقيهم برد الفناء.

- الطبيب النفسي إرفين يالوم.

يُعد كتاب «من الفناء إلى الخلود» عملًا غير خيالي،
إلا أنني غيَّرت القليل من الأسماء والأوصاف.

المقدمة

رنَّ الهاتف فتسارعت دقات قلبي! فخلال الأشهُر الأولى من تأسيسي لدار الجنائز، كانت كل رنة هاتف حدثًا مثيرًا، إذ لم أستقبل حينئذٍ الكثير من المكالمات.

شهقت: «ماذا لو... ماذا لو توفي شخص ما؟» .

(طبيعي يا عزيزتي! نحن في دار جنائز).

من الطرف الآخر، سمعتُ صوت ممرضة من دار لرعاية المرضى في أيامهم الأخيرة. كانت قد أعلنت وفاة «جوزفين» منذ 10 دقائق، والجثة ما زالت دافئة. جلست الممرضة على حافة السرير وخاضت نقاشًا مُحتدمًا مع ابنة جوزفين، فقد اختارت الابنة الاتصال بداري لأنها لم ترِد التخلُّص من أمها بمجرد أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، بل فضَّلت أن تحتفظ بجثة أمها في منزلها.

- هل يمكنها فعل ذلك؟

أجبت: «بالطبع يمكنها، بل إننا نشجع ذلك».

سألت الممرضة بتشكك: «وهذا ليس مخالفًا للقانون؟».

- ليس مخالفًا للقانون.

- عادة نتصل بدار الجنائز فتأتي لاستلام الجثة في نفس الساعة.

- تملك الابنة حق التصرف في الجسد الآن. الابنة، لا دار الرعاية، ولا دار المسنين، وبالطبع ولا دار الجنائز.

- حسنًا، إذا كنتِ متأكدة.

قلت: «أنا متأكدة. (ثم أضفتُ) من فضلك، أخبري ابنة جوزفين أن بإمكانها الاتصال بنا هذا المساء أو في صباح الغد إن أرادت، وقتما تصبح مستعدة».

استلمنا جوزفين في الثامنة مساءً، بعد ست ساعات من موتها. وفي اليوم التالي، أرسلت إلينا ابنتها مَقطعًا سجَّلته بهاتفها. في المقطع الممتد لثلاثين ثانية، تظهر المرأة مستلقية في سريرها وهي ترتدي سترتها ووشاحها المفضَّلين، وعلى الخزانة المجاورة لسريرها تتراقص شعلات الشموع، وعلى جثتها استقرت ثلاث زهور.

وحتى مع سوء جودة الصورة، أرى بوضوح كم تبدو جوزفين متألقة في آخر ليلة لها على الأرض. وقد شعرتْ ابنتها بفخرٍ حقيقي بإنجازها، فقد رعتها أمُّها دائمًا والآن جاء دورها في الرعاية بأمها.

لم يدعم جميع أهل صنعتي الطريقة التي أُدير بها داري، فقد رأى بعضهم أن جثث الموتى يجب أن تخضع للتحنيط لكي تكون آمنة (غير صحيح)، وأن التعامل مع الجثث ينبغي ألا يباشره إلا المحترفون (غير صحيح أيضًا). ويتخيل هؤلاء المعارضون أن الحانوتية التقدُّميين[1] «بدؤوا في جعل هذه المهنة أضحوكة»، ويستنكرون: «هل أصبح أدق تشبيه لصناعة الجنائز هو السيرك؟»، بل أقسم أحدهم إنه: «في اليوم الذي تتحوَّل فيه الجنائز إلى زيارة إلى منزل ميت غير مُحنَّط على مدار ثلاثة أيام، سأترك المجال!».

(1) التقدميون أي الساعون إلى الارتقاء بقطاع الجنائز – المترجم.

في الولايات المتحدة، حيث أعيش، ارتبط الموت بالشركات الكبيرة منذ بداية القرن العشرين. وتبيَّن أن 100 عام كافية تمامًا لينسى الناس أن الجنائز كانت ذات يوم شأنًا تتولاه العائلة والمجتمع وحدهم. في القرن التاسع عشر، لم تكن ابنة جوزفين لتجد من يجادلها في العناية بأمها، بل لو لم تفعل لأثار هذا الاستغراب. ولم يكن أحد ليجادل زوجةً تريد تغسيل وتلبيس جثة زوجها، أو أبًا يحمل جثة ابنه إلى القبر في تابوت منزلي الصنع. لكن في لمح البصر، بَهَرَتنا صناعة الجنائز الأمريكية بتحوُّلها إلى أكثر صناعة جنائز تعقيدًا وبيروقراطية على مستوى العالم، بل وأغلاها كذلك. وما تفوقنا فيه على الجميع، هو أننا أبعدنا الأُسر المفطورة عن أمواتها.

قبل خمس سنوات، عندما كانت داري (وهذا الكتاب) مجرد حلم، استأجرت كوخًا على بحيرة نائية في دولة بليز[1]، ففي ذلك الوقت عشت الحياة الفارهة لمُشغلي المحارق وسائقي نقل الجثث، ولا مفر من اختيار كوخ غير مكلِّف. ولم تتوفر في هذا الكوخ شبكة للهاتف المحمول أو الإنترنت اللاسلكي، والمسافة بين البحيرة وأقرب قرية تسعة أميال، ولا تُدخَل إلا بسيارة دفع رباعي. وكان سائق هذه السيارة، وهو رجل ثلاثيني من البرازيل يُدعى «لوسيانو»، هو القائم على الكوخ.

لأعطيك لمحة عن لوسيانو، فهو رجل تتبعه طوال الوقت مجموعة من الكلاب النحيفة بعض الشيء. وحين يخلو الكوخ من السكَّان، يمكث في الأدغال لعدة أيام متواصلة، مسلَّح بشبشب بسيط ومنجل وكِلابه المُخلصة. كان يصطاد الغزال والتابير والمدرع، وعندما يمسك بأحدها، يقتله ويسلخه ويستخرج قلبه من صدره لأكله.

(1) دولة صغيرة في أمريكا الوسطى إلى جنوبها المكسيك – المترجم.

سألني لوسيانو عن عملي، وحين أخبرته أنني أعمل مع الموتى في المحرقة، نهض من نومته على الهاموك[1].

وسأل: «أتحرقينهم؟ أتشوين البشر؟».

تأملت وصفه وقلت: «الفرن أسخن بكثير من هذا، فقد تتخطى درجة حرارته 1.800 درجة. ولا تستغرق مرحلة الشواء أكثر من ثوانٍ قليلة. لكن لنقل إنني أشويهم نعم».

حين يموت شخص في مجتمع لوسيانو، تجلب أسرته الجثة إلى المنزل لإقامة حفل اليقظة[2] (وقد تحدثنا عنه بالتفصيل في كتاب «الدخان يقتحم عينيك» لنفس الكاتبة) ليوم كامل.

تملك بليز شعبًا متنوعًا يقع في شطيرة بين البحر الكاريبي وأمريكا اللاتينية، والإنجليزية هي اللغة الوطنية. عرَّف لوسيانو نفسه بأنه من الميستيزو، وهم نسل خليط من شعب المايا والمستعمرين الإسبان.

كان جد لوسيانو هو المشرف على الموت في مجتمعه، أي: الرجل الذي تلجأ إليه العائلات المحلية لتجهيز الجثث. وحين يصل، تكون الجثة أحيانًا قد دخلت مرحلة التخشُّب، حيث تصبح العضلات متيبِّسة جدًّا ويصعب عليه إلباسها أو تغسيلها. وفقًا للوسيانو، إذا حدث هذا، يتحدث جده مع الجثة: «اسمع، لا بُد أنك تريد أن يكون مظهرك جيدًا في الجنة! لا يمكنني أن أضعك في ملابس إذا قررت أن تكون صعب المراس».

سألتُه: «إذن يقنِع جدك الجثة بالتخلي عن التيبُّس وحسب؟».

(1) سرير قماشي مُعلّق بين عمودين أو شجرتين – المترجم.

(2) حفل يُقام مع حضور الجثة لوداعها – المترجم.

أجاب: «على المرء أيضًا أن يدهنها بمشروب الرام لترتخي. لكن نعم، يتحدث مع الجثة وحسب».

بعد إقناع الجثة بالارتخاء، يقلِبها جده للضغط على البطن لتُخرِج أي سوائل أو غازات ناتجة عن التحلل. يشبه هذا مساعدة الطفل على التجشؤ: أخرج الهواء قبل أن يخرج عليك ومعه بعض الرفاق.

تساءل وهو يتأمل البحيرة: «هل هذا هو عملك في أمريكا أيضًا؟».

فبكل تأكيد، تملك بليز مدنًا كبيرة تتبنى نموذج العمل الأمريكي: إغراء الأسر بالتوابيت المصنوعة من خشب الماهوجني وشواهد القبور المصنوعة من الرخام. والاندفاع نفسه نحو الحداثة يُحرك المستشفيات في بليز، حيث تشترط أحيانًا تشريح الجثة سواءً أرادت الأسرة أم رفضت. وقد رفضت جدة لوسيانو، قبل موتها، أن تُفتح جثتها، ولذلك «سرقنا جثتها من المستشفى»، كما أخبرني.

- آسفة، ماذا فعلتم؟!

لم تُخطئ أذناي! لقد سرقوا جثتها من المستشفى. لقد لفوها بملاءة بيضاء وأخذوها بكل بساطة.

لقد استنكر قائلًا: «ماذا ستفعل لنا المستشفى؟».

كذلك روى لي قصة مشابهة عن صديقه الذي غرق في هذه البحيرة تحديدًا. لم يُتعِب لوسيانو نفسه بالاتصال بالسلطات للإبلاغ عن حادثة الغرق.

واستنكر مجددًا: «لقد مات، ما شأنهم بهذا؟».

حين يموت لوسيانو، يرغب في دفنه في حفرة بسيطة مُبطَّنة بأوراق الأشجار بعد تكفينه بجلد حيوان. كما يُخطِّط لتصميم كفنه بنفسه.

وأوضح لي أنه يتحدث عن الموت «طوال الوقت» مع أصدقائه. وأنهم يسألون بعضهم عما يريد كل واحد منهم عند موته!

وسألني: «ألا يتحدث الناس عن هذا في بلادك؟».

احترت كيف أشرح له أنهم لا يتحدثون عنه تقريبًا، فمن بين الأسئلة الرئيسية في عملي: لماذا تبالغ ثقافتي في الحساسية من الموت؟! لماذا نرفض خوض هذه المحادثات وسؤال أهلنا وأصدقائنا عما يريدونه لأجسادهم حين يموتون؟ إننا نقهر أنفسنا بتجنُّب الموت. وحين نراوغ في الحديث عن اليقين، نضع جيوبنا وقدرتنا على الحداد في خطر.

كان اعتقادي في الماضي أنني إن شهدت بنفسي الطرق التي تتعامل بها الثقافات الأخرى مع الموت، فسأتمكن من إثبات أنه لا توجد وصفة واحدة لممارسة أو فهم الموت. في السنوات العديدة الماضية، سافرت لأشهد طقوس الموت في دول مختلفة حول العالم كما يُمارسها أهلها في: أستراليا وإنجلترا وألمانيا وإسبانيا وإيطاليا وإندونيسيا والمكسيك وبوليفيا واليابان وفي جميع أنحاء الولايات المتحدة. وأقول إن هناك الكثير من الدروس التي تقدِّمها منصات حرق الجثث في الهند والتوابيت الغريبة في غانا، لكن الأماكن التي اخترت زيارتها تحمل حكايات مُذهلة كالتي في الهند وغانا لكن لا نسمعها إلا نادرًا.

وأملي أن يساعد ما اكتشفتُه في إعادة المعنى والتقاليد إلى مجتمعاتنا نحن. هذا الإصلاح مهم بالنسبة إليَّ بصفتي صاحبة دار جنائز، ولكنه أهم لكوني ابنة وصديقة.

لقد كتب المؤرخ اليوناني هيرودوت قبل ألفي سنة أول وصف لاهتمام ثقافة بطقوس الموت في ثقافة أخرى. في القصة، جمع ملك الإمبراطورية الفارسية مجموعة من اليونانيين أمامه. وبما أنهم يحرقون جثث موتاهم، تساءل الملك: «ما الذي سيُغري أحدهم بأكل جثة أبيه الميت؟».

رفض اليونانيون هذا السؤال، وقالوا إن كنوز الأرض كلها لا تكفي لجعلهم من آكلي لحوم البشر. لاحقًا، استدعى الملك مجموعة من الكالاتينيين، المعروفين بأكل جثث موتاهم.

سألهم: «أي ثمن تريدون لحرق جثث آبائكم بالنار؟».

رجاه الكالاتينيون ألا يذكر حتى «هذا الأمر المرعب».

وظل هذا الموقف، أعني الاشمئزاز من طريقة تعامل الجماعات الأخرى في التعامل مع موتاهم، صامدًا على مدى آلاف السنين. ولو أنك مررت فقط من جوار دار جنائز حديثة، فلا بد أنك تعلم مدى حب الحانوتية للاقتباس التالي من كلام وليام جلادستون، رئيس الوزراء البريطاني في القرن التاسع عشر:

> *«أرِني طريقة الأمم في الاعتناء بموتاهم، أقِس لك بدقة شديدة الرحمة في قلوب شعبها واحترامهم لقوانين البلاد وولاءهم للمثل العليا».*

مكتبة سُر مَن قرأ

تحفر الدور هذا الاقتباس على اللوحات الجدارية ويعرضونها بشكل بارز على مواقعهم الإلكترونية إلى جانب صورة متحركة للعلم الأمريكي وفي الخلفية تُعزَف موسيقى تُشعرك «بالسمو الرائع». لسوء الحظ، لم يترك جلادستون معادلة حساب ذلك لنتمكن من القياس بنفس «الدقة الشديدة» التي وعد بها، أن طريقة معينة للتعامل مع الموتى هي 79.9% بربرية بينما الأخرى 62.4% محترمة.

(في الحقيقة، من المحتمل أن جلادستون لم يقل هذا الكلام من الأساس، فلم يظهر أول ذكر لها إلا في إصدار مارس 1938 لمجلة «ذا أمريكان سيميتيري»، ضمن مقال بعنوان «الإعلان الناجح عن المقابر». لا يمكنني أن أثبت أنه لم يقل هذا، لكن أحد الدارسين البارزين أخبرني أن هذه المقولة لم تمر عليه قط، وأقصى ما قاله إنها: «تبدو مثل كلامه»).

حتى لو أدركنا فوائد الطقوس الموجودة لدى ثقافة أخرى، فإننا غالبًا ما نسمح للتحيز بتقويض مشاعر القبول التي قد نشعر بها.

في 1636، اجتمع ألفا فرد من شعب الوياندات (أحد شعوب السكان الأصليين لأمريكا الشمالية وينتشرون حتى الآن في كندا والولايات المتحدة) حول مقبرة جماعية على شواطئ ما يُعرف الآن ببحيرة هورون بكندا. بلغ عمق القبر 6 أقدام (1.8 متر) وعرضه 24 قدمًا (سبعة أمتار تقريبًا)، وكان الغرض منه حفظ عظام 700 شخص. بالنسبة إلى العظام، لم تكن هذه الحفرة أولى خطواتها بعد الموت، فحين كانت العظام جثثًا حديثة، لفها أهلها بأكفان من جلد القندس ووضعوها على سقَّالات خشبية على ارتفاع عشرة أقدام من الأرض. وعلى رأس كل عقد أو ما يقاربه، يجمع شعب الوياندات، المتفرق على عدة قرى ومجتمعات، بقايا ذويهم للدفن الجماعي المعروف باسم «عيد الموتى». خلال التحضير، تُنزَل الجثث عن السقالات، ويؤمَر أفراد أسرهم، من النساء على وجه الخصوص، بتنظيف العظام من أي لحم متبقٍ.

واختلفت صعوبة تخلية العظام بحسب قِدم الجثة، فبعض الجثث تكون قد تحللت تمامًا ولم يتبقَ على الهيكل العظمي سوى طبقة رقيقة من الجلد المجفف العالق. وبعضها الآخر تكون محفوظة وشبه مُحنَّطة، فتتطلب نزع اللحم المجفف في شرائح وحرقه. أما أصعب الجثث فهي للمتوفين حديثًا التي لا تزال تعج بالديدان.

شهد المبشِّر الكاثوليكي «جان دي بريبوف» طقوس التنظيف هذه وسجَّلها. وبدلًا من الفزع منها، عبَّرت كلماته عن عظيم الاحترام والإعجاب بالطريقة الحميمية التي عاملت بها الأُسر الجثث. ففي إحدى هذه الحالات، رأى «بريبوف» أسرةً تكشف الكفن عن جثة تقطر بسوائل التحلل. لم تَجبُن الأسرة، وشرعت في تنظيف العظام وإعادة لفها بجلد القندس. وتساءل: «أليس هذا مثالًا نبيلًا ينبغي أن يُلهم المسيحيين؟». لقد عبَّر عن إعجاب مماثل حين رأى المراسم المُقامة حول حفرة الدفن. عندما غُطيت الجثث بالرمال ولحاء الشجر، وجد أنه من دواعي سروره أن يرى مثل هذا «العمل الرحيم» وهو يحدث.

في تلك اللحظة، وهو واقف على حافة القبر، أنا متأكدة من أن مشاعر بريبوف تحركت بسبب طقوس شعب الوياندات، لكنها لم تغيِّر أمله الثابت المتَّقد في أن تُطمس طقوسهم وتحل محلها الطقوس المسيحية، لتصبح «مقدسة» لا «حمقاء وعديمة الجدوى».

لكن يجب أن أوضِّح لكم أن السكان الأصليين لكندا لم يكونوا منفتحين جدًّا على الطقوس البديلة التي قدَّمها المُبشر دي بريبوف، فقد دوَّن المؤرخ «إريك سيمان» أن الشعوب الأصلية والأوروبيين كثيرًا ما كانوا يكتشفون «انحرافات تقشعر لها الأبدان» لدى بعضهم بعضًا. فكيف لشعب الوياندات أن يصدِّق نُبل أهداف الكاثوليك الفرنسيين وهم يعترفون بصراحة بأنهم آكلو لحوم بشر، ويتفاخرون بالأكل من لحم إلههم والشرب من دمه في طقس يدعونه القربان المقدس! وبما أن الدين هو مصدر الكثير من الطقوس المتعلقة بالموت، فغالبًا ما نستخدم الإيمان لتشويه سمعة طقوس الآخرين. فحتى 1965، كتب «جيمس و. فريزر» عن حرق الجثث: هل هي مسيحية؟ (الإجابة المفاجئة: لا).

إن حرْق الجثث عمل بربري ومساعد على إخفاء الجرائم. بالنسبة إلى أي مسيحي محترم، «من المثير للاشمئزاز التفكير في التعامل مع جسد صديق وكأنه لحم البقر المشوي في الفرن، بكل دهونه المتقاطرة وأنسجته المتفحمة».

لقد توصلت إلى الاعتقاد بأن مزايا طقس الموت لا تُحسب بالمعادلات، ولكن بالعواطف: الإيمان بالنبل الفريد لثقافة الذات. بعبارة أخرى: نحن نعتبر طقوس الموت بربريَّة حين تختلف عن طقوسنا.

في آخر يوم لنا في بليز، أخذني لوسيانو إلى المقبرة التي تضم جثث أجداده (بما فيهم الجدة المسروقة). وكانت المقبرة ممتلئة بالمقابر الأسمنتية المبنية فوق الأرض، بعضها بحالة جيدة وبعضها متهالك. ورأيت صليبًا ساقطًا على الحشائش وملفوفًا بسروال نسائي.

وعلى قبرين مختلفين كتب أحدهم بالرذاذ الأسود: «غزة الأرض» و«توبوا جميعًا أيها البشر».

وفي الخلف عند الزاوية البعيدة، تحت شجرة، وُضِعت توابيت أجداده فوق بعضها داخل قبر واحد مغلق بالخرسانة. «لم ترد جدتي وضع كل هذه الخرسانة. أرادت حفرة في الأرض وحسب. من التراب إلى التراب. لكن تعلمين...».

كنس لوسيانو بِحُب الأوراق الميتة عن القبر.

وما صدمني كم كان لوسيانو حاضرًا في كل خطوة من خطوات وفاة جدته. من سرقة جسدها من المستشفى، إلى إقامة حفل اليقظة، حيث شربت الأسرة الرام وعزفت موسيقى الرانشيرا (المفضلة لدى الجدة)، إلى العناية بقبرها بعد سنوات.

قارن هذا بصناعة الجنائز الغربية حيث يعيش ذوو الميت حالات تعتيم متعمَّدة في كل مرة يفقدون أحدًا.

لا يستطيع أغلب البشر أن يخبروك بأسماء المواد الكيميائية التي تُضَخ في أجساد أمهاتهم خلال عملية التحنيط (الإجابة: مزيج من الفورمالديهايد والميثانول والإيثانول والفينول)، أو لماذا يُفرض عليهم شراء قبو معدني بثلاثة آلاف دولار في المقبرة (الإجابة: ليسهل على العناية بالمقبرة جز العشب).

في عام 2017، كشف تحقيق أجرته الإذاعة الوطنية العامة (NPR) عن دور الجنائز عن «نظام محير وغير مفيد يبدو أنه مصمَّم بحيث لا يمكن للمستهلكين العاديين اختراقه، وهم الذين يتعين عليهم اتخاذ قرارات مكلِّفة في أحزن أوقاتهم وأشدها من الناحية المالية».

نحن بحاجة إلى إصلاح قطاع الجنائز، وإدخال ممارسات جديدة لا تهدف إلى تحقيق الربح، وتبذل المزيد من الجهد لإشراك أهل الميت. لكن لا يمكننا أن نبدأ في إصلاح، أو حتى التشكيك في، أنظمة الموت التي نملكها ونحن نتصرف مثل «جان دي بريبوف»، إذ يملؤنا اقتناع زائف بأننا على صواب وكل «الأشخاص الآخرين» يتصرفون بعدم احترام وهمجية.

قد تكتشف هذا الموقف الرافض في مواضع لا تتوقعها على الإطلاق. أدرجت شركة لونلي بلانيت، أكبر ناشر للكتيبات الإرشادية في العالم، مقبرة ترونيان في كتابها لزيارة بالي. في ترونيان، يبني القروِيُّون أقفاصًا من نبات البامبو ليُترك الموتى فيها للتحرر، ثم يراكمون الجماجم والعظام على بعضها بين المناظر الخضراء المورِقة. وبدلًا من أن تشرح الشركة المعنى الكامن وراء هذه العادات القديمة، نصحت المسافرين الحكماء «بتفادي المشهد الشنيع».

قد لا يناسبك التغذي على لحم والدك العزيز كالكالاتيين أبدًا. وهو لا يناسبني أيضًا، فأنا نباتية (أمزح يا أبي). لكن من الخطأ أن ندَّعي أن الغرب يملك طقوسًا أرقى من طقوس بقية شعوب العالم.

بل بالنظر إلى الطابع التجاري الذي أخذته رعاية الموتى، فقد تخلفنا عن بقية العالم من حيث القرب والأُلفة والطقوس المتعلقة بالموت.

الخبر السار: لسنا مدينين بأي فضل للمسافة التي تفصلنا عن الموت والخجل منه. الخطوة الأولى لإصلاح المشكلة هي المجيء والحضور والمشاركة. في المدن الكبيرة والحديثة، مثل: طوكيو وبرشلونة، رأيت العائلات تأتي لقضاء اليوم مع الجثة وتبقى لتشهد حرقها. وفي المكسيك، رأيت عائلات تزور المقبرة لتترك القرابين بعد مرور سنوات على الوفاة، للتأكد من أن الميت لا يغيب في النسيان.

ستجد أن العديد من الطقوس التي سأذكرها في هذا الكتاب مختلفة تمامًا عن الطقوس التي اعتدتها، لكنني أتمنى أن ترى الجمال في الاختلاف. ولعلك تعاني حقًّا خوفًا وقلقًا من الموت، لكنك هنا. لقد أتيت تمامًا كالأشخاص الذين توشك على مقابلتهم.

كولورادو

كريستون

في يوم من أيام شهر أغسطس، تلقيت بريدًا إلكترونيًّا كنت أنتظره.

«كيتلين!

عثرنا على «لورا»، إحدى العضوات العزيزات بمجتمعنا، متوفية في وقت مبكر من صباح اليوم. لقد عانت تاريخًا مع مشكلات القلب وشرعت لتوها في عامها الخامس والسبعين. لا أعرف أين أنتِ، لكننا نرحب بانضمامك إلينا.

ستيفاني».

لم تكن وفاة لورا متوقَّعة، ففي ليلة الأحد، رقصت بجموح في أحد مهرجانات الموسيقى المحلية. وفي صباح الاثنين، وُجدت ميتة على أرض مطبخها. وفي صباح الخميس، ستجتمع أسرتها لحرق جثتها، وسأنضم إليهم.

كان من المقرر أن يبدأ حرق الجثة في الساعة 7 صباحًا تمامًا مع اختراق أشعة الشمس لضوء الفجر الأزرق. بدأ المعزُّون في التدفق في السادسة والنصف، ثم وصلت شاحنة يقودها ابن لورا، تحمل جثمانها المُكفَّن في قماش بلون مرجان البحر. وقد سمعنا أن حصانها «بيبي» سيحضر، لكن في آخر دقيقة قررت العائلة أن الحشد والنار أكثر من قدرة الحصان على التحمُّل. وأعلنت العائلة أن الحصان «لم يستطع الحضور مع الأسف».

سحبت عائلة لورا جسدها من الشاحنة وحملته على نقَّالة قماشية ومرت بين حشد من النساء ذوات الأعين المصطبغة بالأسود بسبب البكاء، وصعدوا المنحدر الصغير نحو منصة الحرق فيما دوت قرعة آلة الصنجة[1]. وأمسكت في يدي غصن عرعر طازجًا سلَّمني إياه متطوع مبتسم وأنا أقطع الطريق الرملي من موقف السيارات إلى المنصة.

وُضعت لورا على شبكة معدنية مثبَّتة على لوحين متوازيين من الخرسانة البيضاء تحت سماء كولورادو الفسيحة. لقد زرت هذه المنصة وهي فارغة مرتين قبل ذلك، لكن الغرض منها أصبح أكثر واقعية ووضوحًا في وجود الجسد. تقدَّم المُعزون واحدًا تلو الآخر لوضع غصن العرعر على جسد لورا. وبصفتي الوحيدة التي لم أعرفها في حياتها، ترددتُ في محاكاتهم (أطلِق على هذا: الإحراج الجنائزي). لكنني لم أستطع إبقاء غصني في يدي (واضح جدًّا) أو وضعه في حقيبتي (حركة حقيرة) لذلك تقدمت ووضعته بلطف على الكفن.

تحلَّقَت[2] عائلة لورا، بما فيهم صبي صغير في الثامنة أو التاسعة من عمره، حول منصة الحرق وأخذوا يكدِّسون جذوع أشجار الصنوبر والتنوب،

(1) الصنجة: آلة موسيقية من آسيا تشبه الطبق المعدني المعلق من أحد أطرافه، وتُعزف بطرق الجسم المعدني بمطرقة من المطاط – المترجم.

(2) أي وقفوا في شكل حلقة – المترجم.

التي وقع الاختيار عليها بسبب شدة احتراقها. انتظر شريك لورا وابنها البالغ في الزاوية ممسكَين بمشاعل موقَدة.

رأيا الإشارة، فتقدما معًا لإشعال لورا، وكانت الشمس قد ارتفعت عن الأفق لتوها.

وبينما أمسكت النار بجسدها، صنع الدخان الأبيض دوامات صغيرة تدور إلى الأعلى حتى تتلاشى في ضوء النهار.

ذكَّرتني الرائحة بفقرة لــ «إدوارد آبي»:

> *«النار. رأيي الصادق أن رائحة حرق العرعر هي أحلى رائحة على وجه الأرض. أشك أن كل مباخر الجنة التي وصفها (دانتي) تضاهيها. شمَّة واحدة من دخان العرعر، مثل عبير المريمية بعد المطر، تطلق سحرها، وكأنها موسيقى ما، الذي يُعيدكَ إلى اتساع الغرب الأمريكي وخفته ونقائه وغرابته الثاقبة، مهما طال احتراقه».*

اختفت الدوَّامات بعد دقائق، وتراقصت ألسنة اللهب الحمراء مكانها. ازداد اللهيب قوة وارتفع حتى ستة أقدام. اجتمع 130 مُعزيًا حول منصة الحرق في صمت. ولم يخرق هذا الصمت سوى طقطقات الخشب المشتعل، وهُيئ لي أنه صوت ذكريات لورا وهي تصعد وتذوب في الأثير.

إن طريقةَ بلدة كريستون الصغيرة بولاية كولورادو في حرق الجثث ممارَسةٌ قديمةٌ تعود إلى عشرات آلاف السنين. وأشهر من استخدم خيمياء النار البسيط للتخلُّص من اللحم وتخليص الروح هم اليونان والرومان والهندوس، لكن حرق الجثث نفسه، بدأ في زمن أبعد.

ففي أواخر الستينيات، في صحراء أوتباك الأسترالية، اكتشف جيولوجي شاب عظامًا محترقة لامرأة بالغة. وقد قدَّر أن عمر العظام يصل إلى 20 ألف سنة. لكن دراسة أكبر كشفت أن عمرها 42 ألف سنة، أي قبل التاريخ المفترَض لوصول السكان الأصليين بنحو 22 ألف سنة. كانت المرأة تعيش في أرض خضراء تمتلئ بالمخلوقات العملاقة (الكنغر، والومبت، والقوارض الأخرى ذات الأحجام غير المعتادة). كان طعامها السمك والبذور وبيض طائر الإيمو الكبير. وعندما ماتت هذه المرأة، المعروفة حاليًّا بسيدة مونجو[1]، حرَق المجتمع جثتها. بعد حرْق الجثة، سُحقت عظامها ثم حُرقت مرة أخرى. بعد ذلك، طُليت العظام ضمن طقس ما بالمُغرة الحمراء، ثم دُفنت في الأرض وبقيت هناك لـ 42 ألف سنة.

على ذكر أستراليا (أعدك أن هذه النقلة تستحق)، بعد 10 دقائق من حرق لورا، أمسكت المحيطين بالنار آلة الديدجيريدو[2] وأشارت إلى رجل يمسك نايًا خشبيًّا بالانضمام إليها.

كتمت أنفاسي؛ استخدام الديدجيريدو في جنازة أمريكية غريب للغاية. أما الجمع بين لحنها الرتيب ونواح الناي فمخيف، وستبعث الهدوء في الحشد وهو يتأمل ألسنة اللهب.

وهكذا دواليك: بلدة أمريكية صغيرة أخرى، ومجتمع حزين آخر يجتمع حول منصة الحرق. لكن من الواضح أن الحال بخلاف هذا، فمنصة كريستون

(1) مونجو هي حديقة وطنية كبيرة بأستراليا – المترجم.

(2) آلة نفخ موسيقية صنعها السكان الأصليون بشمال أستراليا منذ 1500 عام – المترجم.

هي المنصة المجتمعية الوحيدة المبنية في الهواء الطلق في أمريكا، بل وفي العالم الغربي بأسره.[1]

ولم تستخدم عمليات حرق الجثث في كريستون دائمًا مثل هذه الطقوس المثيرة، فقبل مواكب الفجر والديدجيريدو وتوزيع العرعر المنظَّم جيدًا، لم يكن سوى «ستيفاني» و«بول» والمحرقة المتنقِّلة.

تقول ستيفاني جاينز: «لقد كنا قوم المحرقة المتنقِّلة».

فهي تصف نفسها بالبوذية المتزمتة، وتقول: «أنا برج الحمل. الحمل في الثلاثة منازل: الشمس والقمر والصاعد». ورغم أنها في الثانية والسبعين، فهي من تدير عملية الحرق بكريستون عبر الخدمات اللوجستية والروعة والشعر الأبيض.

بقيت المحرقة متحركة بفضل ستيفاني وبول كلوبنبرج، وهي شخصية ساحرة مثل ستيفاني، لها لكنة هولندية ثقيلة، حيث انتقلوا بها من مكان إلى مكان، وأجروا عمليات الحرق داخل أراضٍ خاصة متبعين استراتيجية الدخول والخروج بسرعة قبل أن تتمكن المقاطعة من إيقافهم. وقد تمكنوا من تنفيذ هذه العملية المتنقلة في سبع عمليات حرق.

يقول بول: «كنا نحضر ونقيم المنصة في نهاية حارتك ببساطة».

تُعد المحرقة المتنقِّلة نظامًا بتقنية ضعيفة، يُبنى بالطوب الخرساني وتوضع فوقه شبكة. قد تتسبب الحرارة الشديدة في انحناء الشبكة بعد كل عملية حرق.

تقول ستيفاني: «علينا السير بالشاحنة فوقها لكي تعود مسطحة مرة أخرى».

---

(1) هناك منصة حرق واحدة أخرى، وهي منصة خاصة بمركز جبل شامبالا، وهو مخيم بوذي بشمال كولورادو.

وتضيف بنبرة مستمتعة غير نادمة: «يبدو الأمر جنونيًّا حين أتأمله الآن».

في 2006، بدأ الثنائي في البحث عن موقع دائم للمنصة. وبدت كريستون مكانًا مثاليًّا لبُعدها الشديد، فهي على مسيرة 4 ساعات بالسيارة من دنفر، وسكانها يبلغ عددهم 137 شخصًا (و1.400 شخص في المناطق المحيطة بها). وهذه المقوِّمات تمنح كريستون ميزة التحرر وابتعاد الحكومة عن شؤونها، فمن القانوني فيها تدخين الحشيش، وكذلك بيوت الدعارة. (ولا أعني أن بها بيوت دعارة بالفعل، لكن يمكن إقامة واحدٍ).

وتجذب القرية مزيجًا من الباحثين المختلفين عن الروحانية، فيأتي الناس إليها من جميع أنحاء العالم لممارسة التأمل، ومن بينهم «الديلاي لاما» نفسه. تُروِّج المطويات الترويجية الموجودة في متجر الأطعمة الطبيعية لمعلمي فن طاقة الحياة، ومعلمي حكمة الظل (shadow wisdom)، ومخيمات للأطفال «لإيقاظ عبقريتهم الطبيعية»، ومخيمات لدروس الرقص الشمال إفريقي وشيء يسمى «الساحة المقدسة بالغابة المسحورة». يشمل سكانَ كريستون معتنقو مذهب الهيبي والأثرياء ممن اعتنقوا أنماط حياة غير غربية، لكن الكثير ممن يعيشون هنا جادون ويمارسون ما يعتنقونه مدى الحياة: البوذيون والمتنسِّكون وراهبات جبل الكرمل. وكانت لورا نفسها من المخلصين للفيلسوف الهندي «سري أوروبيندو» لعقود وعقود.

لقد سُحقت أول محاولة لبول وستيفاني لتأسيس مكان ثابت للمنصة حين اقتحم الموقعَ أصحابُ الأرض الذين وصفهم بول بـ «مدخني الكوكايين»، معلنين بصرامة أنهم لن يسمحوا بهذا في فنائهم الخلفي.

قالت ستيفاني إنهم كانوا «عجائز عَكِري المزاج» غير مهتمين بالأدلة التي تُثبت أنهم لن يتسببوا في نشوب حرائق الغابات، أو إطلاق الروائح الكريهة،

أو الجزئيات الضارة، أو التسميم بالزئبق. بعد ذلك كتب هؤلاء المدخنون خطابات إلى مجلس المقاطعة وهيئة الحماية البيئية.

ولمكافحتهم، أخذ فريق المحرقة المتنقِّلة شكلًا قانونيًّا، فأنشؤوا منظمة غير ربحية أسموها «مشروع نهاية الحياة بكريستون». وقدَّموا مُذكرة تلو مُذكرة، وجمعوا 400 توقيع (ما يقرب من ثلث تعداد المنطقة المحيطة)، وجمعوا مجلدات ضخمة مليئة بالوثائق القانونية والأوراق العلمية، بل إنهم زاروا سكان كريستون واحدًا واحدًا واستمعوا إلى مخاوفهم.

في البداية، واجهتهم مقاومة قوية، وأطلق عليهم أحد المعارضين «الجيران محرقو الجيران». وحين اقترح بول وستيفاني (على سبيل المزاح) رعاية عربة عرض في الموكب المحلي، فإن عائلة احتجَّت لأن ظهور عربة مزينة بألسنة اللهب المصنوعة من الورق يُعد «إهانة فظيعة».

قالت ستيفاني: «لقد قلق أهل البلدة من أن المحرقة قد تخلق حركة مرورية ضخمة». فاستكمل بول: «وضعي في اعتبارك أن ست سيارات تُعد حركة كبيرة بالنسبة إلى كريستون. هناك الكثير من الخوف: ماذا عن تلوث الهواء؟ أليس هذا أمرًا بشعًا؟ كل ما يتعلق بالموت يُشعرني بالاشمئزاز، وعلى المرء أن يتحلى بالحلم ويُنصت إلى أسئلتهم».

لم يترك بول وستيفاني المثابرة، رغم العوائق القانونية الضخمة، لأن فكرة منصة حرق الجثث ألهمت المجتمع. (تذكر أن السكان كانوا متحمسين لفرصة حرق الجثث على منصة لدرجة أنهم كانوا يستدعون بول وستيفاني لإعداد شواية من قوالب الطوب عند مداخل بيوتهم).

تساءلت ستيفاني: «كم شخصًا يقدم خدمة تلقى صدى لدى الآخرين؟ وإذا لم تلقَ صدى، فانسَ أمرها. لقد كان هذا ما يغذي روحي».

في النهاية وجدا أخيرًا لمنصتهما بيتًا مستقرًا، على أطراف القرية، على بُعد بضع مئات من الأمتار من الطريق الرئيسي. وحصلا على أرض تبرع بها معبد جبل التنين، وهي مجموعة بوذية، وهم لا يخفون منصة الحرق، فستجد وأنت تدخل البلدة لافتة معدنية تقول: «منصة حرق جثث» وعلامة شعلة لهب واحدة. وقد صنع مزارع بطاطس محلي هذه اللافتة يدويًا (وهو محقق الوفيات المثيرة للشكوك)، وأصبحت علامة واضحة. تقع منصة الحرق نفسها فوق طبقة مرتفعة من الرمال، يحيط بها جدار من الخيزران يميل وينحني مثل فن الرسم بالخط. وقد أُحرِقت أكثر من 50 جثة عليها، بما فيهم (انقلاب مفاجئ في الأحداث) الشخص الذي أطلق عليهم «الجيران محرقو الجيران»، إذ تغيرت قناعاته قبل موته.

قبل حرق لورا بثلاثة أيام، جاء متطوعون من «مشروع نهاية الحياة بكريستون» إلى منزلها، وجهَّزوا جسدها، وساعدوا أصدقاءها في تغسيلها، وأناموها على بطانية التبريد لإبطاء التحلل ثم ألبسوها أقمشة طبيعية، لأن الأقمشة الصناعية كالبوليستر لا تؤدي أداءً جيدًا على المنصة.

تُقدِّم المنظمة خدماتها اللوجستية إلى ذوي الميتين بغض النظر عن الجانب المالي، ولا يتوجَّب عليهم بعد ذلك اختيار الحرق المفتوح. والمتطوعون في «مشروع نهاية الحياة بكريستون» مستعدون للمساعدة سواء اختارت الأسرة دفنًا تقليديًّا (بعد التحنيط)، أو دفنًا طبيعيًّا (دون قبو أو تحنيط)، أو حرق الجثة في دار الجنائز الموجودة على بُعد عدة قُرى. أشار بول إلى هذا الخيار الأخير بـ «الحرق التجاري».

قاطعته ستيفاني قائلة: «بول! يُفترض أن تسميه الحرق التقليدي».

أجابها: «لا، يبدو (الحرق التجاري) أدق بالفعل».

منحتني كريستون إلهامًا باعتباري ممارِسة في هذا المجال، ولهذا السبب عدت إليها عدة مرات، ولكنها تملك أيضًا لمسة من الكآبة (وقفت على حافة الغيرة). لقد امتلك كريستون هذه المحرقة الرائعة تحت السماء الزرقاء، بينما كان عليَّ أن آخذ عائلتي إلى محرقة صاخبة ممتلئة بالغبار في مستودع على مشارف المدينة. ولو سمحوا لداري الجنائزية بالوصول إلى مرافق حرق الجثث المذهلة هذه فأنا على استعداد لدعوة حتى عازف الديدجيريدو.

لقد ظهر اقتراح حرق الجثث بالنمط الصناعي لأول مرة في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر. ففي عام 1869، اجتمعت مجموعة من خبراء الطب في فلورنسا بإيطاليا لإدانة الدفن لأنه غير صحي والدعوة إلى الانتقال إلى حرق الجثث.

في الوقت نفسه تقريبًا، عبرت الحركة المؤيدة لحرق الجثث المحيط نحو الولايات المتحدة، بقيادة إصلاحيين مثل: القس، ذي الاسم العجيب، «أوكتافيوس ب. فروثينغهام» الذي رأى أن تحوُّل الجثة إلى «رماد أبيض» أفضل من تحوُّلها إلى «كتلة من العفن» (سأطلق على ألبومي القادم «إصلاحات حرق الجثث من أوكتافيوس ب. فروثينغهام»).

كانت أول جثة خضعت لعملية حرق «علمية حديثة» في أمريكا هي جثة البارون «جوزيف هنري لويس تشارلز دي بالم» (صحِّح ما سبق، سأسمي الألبوم حرق البارون دي بالم). توفي البارون الطيب، وهو النبيل النمساوي المُفلس الذي وصفته صحيفة نيويورك تريبيون بأنه «مشهور في الأساس بكونه جثة» (إهانة حارقة حرفيًّا ومجازيًّا)، في مايو 1876.

وتقرر حرق جثته في ديسمبر، بعد ستة أشهر من وفاته. وخلال هذه الفترة، حُقنت جثته بالزرنيخ، وعندما اعتبر الزرنيخ أضعف من أن يمنع التعفن، أُخرجت أعضاؤه من جسده وتولَّى حانوتي محلي تغطية جلده

بالطين وحمض الكربوليك. في رحلة القطار من نيويورك إلى ولاية بنسلفانيا (حيث ستُحرق جثته)، اختفت جثته المحنَّطة لفترة وجيزة في سيارة الأمتعة، مما أطلق ما سماه المؤرخ «ستيفن بروثيرو»: «لعبة الغُميضة الجنائزية».

وقد بُنيت محرقة هذا الحدث الافتتاحي على أرض مملوكة لطبيب في ولاية بنسلفانيا. واحتوت على فرن يُشعَل بالفحم من المفترض أن يحرق الجثة دون أن تمسها نار مباشرة، إذ ستتكفل الحرارة بتحليل الجثة. ورغم أن الطبيب قال إن حرق الجثة سيكون «تجربة علمية وصحية بحتة»، فقد رُشت التوابل على جسد دي بالم ووُضعت على فراش من الورود وجريد النخل وزهرة الربيع والنباتات دائمة الخضرة. وحين دخلت إلى الفرن، لاحظ المراقبون ذيوع الرائحة المميزة لاحتراق اللحم، لكن روائح الزهور والتوابل طغت عليها بسرعة. وبعد ساعة في الفرن، بدأ جسد دي بالم في التوهُّج باللون الوردي، ثم تحوَّل الوهج إلى الذهبي، وانتهى إلى اللون الأحمر الشفاف. ثم بعد ساعتين ونصف، تحللت الجثة إلى عظام ورماد. وأعلن الصحفيون وكُتَّاب المقالات الذين شهدوا الواقعة أن التجربة قد أسفرت عن «أول خبز متقن دون روائح لإنسان في الفرن». ومن هذه اللحظة، ازدادت أفران حرق الجثث حجمًا وسرعة وكفاءة.

وبعدها بنحو 150 عامًا، وصلت شعبية حرق الجثث إلى مستويات قياسية (وأول مرة، في عام 2017، تجاوز عدد الجثث المحروقة من الأمريكيين عدد المدفونة). لكن الجماليات والطقوس المحيطة بالعملية لم تتغير، فلا تزال آلات حرق الجثث لدينا اليوم تشبه النماذج المُقدَّمة في سبعينيات القرن التاسع عشر: 24 ألف رطل من الفولاذ والطوب والخرسانة. وهي تستهلك الغاز الطبيعي بقيمة آلاف الدولارات كل شهر، وتُطلق أول أكسيد الكربون والسُّخام وثاني أكسيد الكربون والزئبق شديد السُميَّة (من حشو الأسنان) في الغلاف الجوي.

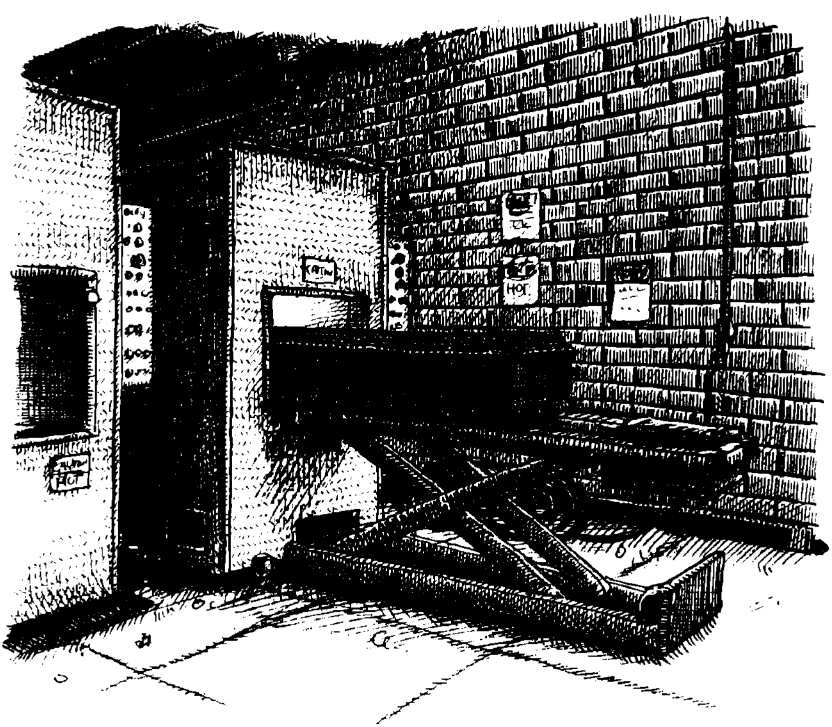

تُبعَد معظم محارق الجثث، وبخاصة في المدن الكبيرة، إلى المناطق الصناعية داخل مستودعات غير مميزة. فمن بين المحارق الثلاث التي عملتُ فيها على مدى تسع سنوات من العمل في القطاع، كانت إحداها تقع إلى جانب مستودع توزيع صحيفة لوس أنجلوس تايمز، حيث تحوم الشاحنات على مدار الساعة، والثانية خلف مستودع لشركة «الهياكل والنمل الأبيض» (مَن يدري ماذا يفعل هؤلاء)، والثالثة كانت جارة لساحة خُردة تعمل طوال اليوم على تمزيق السيارات لاستخلاص الخردة المعدنية.

وربما وجد المرء محرقة تقـع داخل مقبـرة، لكن هذه المرافق غالبًا ما تكون مخفية بين مباني الصيانـة، ما يعني أن على مَن يرغب في حضور

حرق جثة أن يمر بين جزازة العشب وأكوام الزهور المتعفنة المُزالة عن القبور.

كما صُممت بعض المحارق لتكون «مُنشأة للاحتفال بالحياة» أو «مراكز لعرض حرق الجثث»، حيث تبقى العائلات خلف نوافذ زجاجية في غرف مكيفة، ويشاهدون الجسد يُغلق عليه باب معدني صغير في جدار. والآلة المخفية خلف الحائط هي نفس الفرن الصناعي الموجود في المستودعات، لكن تُمنع العائلة من رؤية الساحر المختبئ خلف الستار. والهدف من هذا التمويه هو إبعاد الأسرة أكثر عن حقيقة الموت وعن الآلات الثقيلة الضارة بالبيئة. المدهش أنه للحصول على امتياز مرافقة الأم إلى «مركز عرض حرق الجثث»، قد يرتفع سعر الحرق لأكثر من 5 آلاف دولار.

ولا أزعم أن التحوُّل إلى حرق الجثث في الهواء الطلق سيحل كل هذه المشكلات، ففي البلدان التي اعتادت الحرق على منصة مفتوحة، كالهند ونيبال، تُحرق ملايين الجثث وتُستهلك 50 مليون شجرة سنويًّا ويُطلق غبار الكربون في الغلاف الجوي. وهذا الغبار هو ثاني أكبر مسبب للتغيُّر المُناخي (بعد ثاني أكسيد الكربون) صنعه الإنسان.

لكن نموذج كريستون يقترب من ذلك. فقد تلقَّت المنظمة غير الربحية مكالمات من العديد من مُصلحي الهند الراغبين في تبني مميزات منصتها من الهيكل والطرق، فارتفاعها عن الأرض يوفِّر في الأخشاب ويُطلق ملوِّثات أقل. وإن أمكن إصلاح هذه الطريقة القديمة المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالدين والدولة، فإصلاح آلات حرق الجثث الصناعية الحديثة ممكن كذلك.

عاشت لورا في كريستون لسنوات طويلة، وبدا لي أن البلدة بأكملها اجتمعت في المحرقة في ذلك الصباح.

ألقى ابنها جيسون أول كلمة وهو يُحدق إلى النار: «أمي! شكرًا على حُبك (وأكمل بصوت متقطِّع) لا تقلقي علينا الآن، حلِّقي واستمتعي بالحرية».

استمرت النار في الاشتعال، وتقدَّمت امرأة لتصف وصولها إلى كريستون قبل 11 عامًا. حين انتقلت إلى البلدة، كانت تعاني منذ سنوات مرضًا مُزمنًا.

قالت: «أتيتُ إلى كريستون للعثور على الفرح. ظننت أنني شُفيت بسبب السُحب والسماوات المفتوحة، لكن أعتقد الآن أن السبب الحقيقي هو لورا».

أضاف صديق: «إنما نحن بشر، ولكلٍّ منا عيوب. إلا لورا، فلم أجد لها عيبًا».

كانت النيران قد انتهت بسرعة من كفن لورا المُرجاني، وفي أثناء كلمات المُعزِّين، انقضَّت ألسنة اللهب على لحمها المكشوف وطبقات الأنسجة اللينة. جفَّفت النيران الأنسجة، التي تتكون في الغالب من الماء، فذبُلت وانكمشت، مما كشف أعضاءها الداخلية، التالية في طريق لهيب.

سيكون هذا مشهدًا مروعًا للمبتدئين، لكن المتطوعين غير المُتربِّحين تحلَّوا بالحذر وأخفوا الجوانب عن الحشد. لقد تحركوا برشاقة وخبرة، لضمان عدم وجود رائحة كريهة، وعدم ظهور تهديد في شكل رأس مشتعل أو ذراع متفحمة.

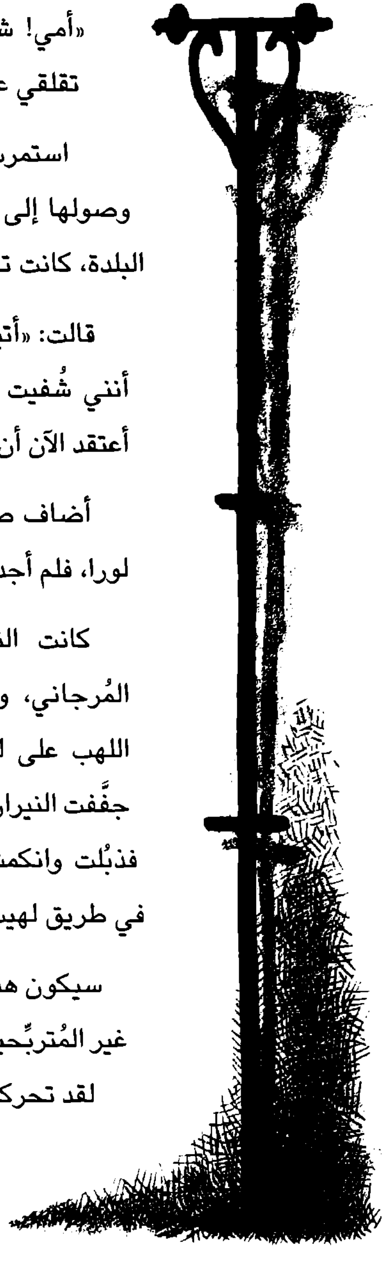

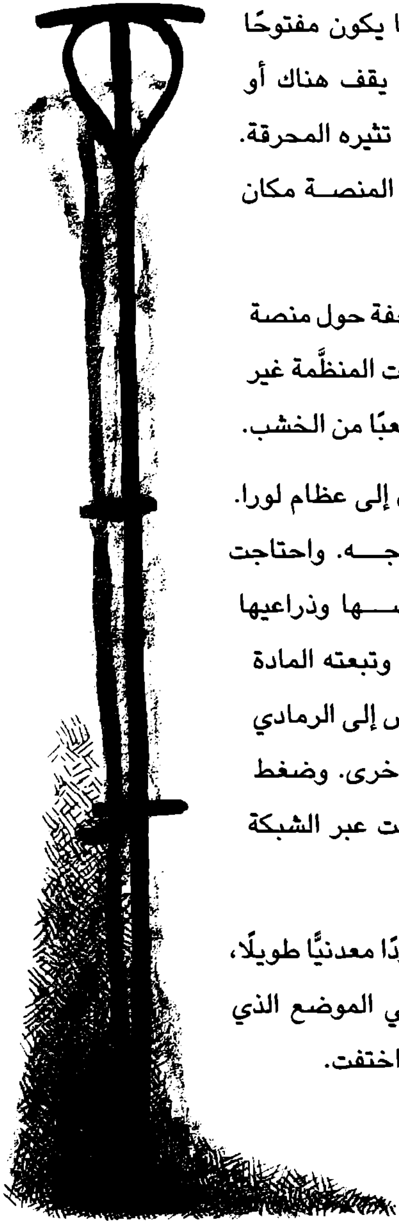

أوضحت ستيفاني قائلة: «نحن لا نحاول إخفاء الجثة عن الناس، لكن حضـور الحـرق غالبًا ما يكون مفتوحًا أمام المجتمع بأكمله، ولا تعرف أبدًا من يقف هناك أو ما سيصدر منه بسبب الشعور الحاد الذي تثيره المحرقة. فالناس يتخيلون أنفســهم راقديــن على المنصــة مكان الميت».

وفي أثناء الطقس، تسلل المتطوعون بخفة حول منصة الحرق لوضع المزيد من الحطب. واستهلكت المنظَّمة غير الربحية على مدار حرق الجثة 43 قدمًا مكعبًا من الخشب.

استمر اللهــب في العمل حتـــى وصل إلى عظام لورا. ظهرت أولًا الرُكبتان والكعبان وعظام الوجـــه. واحتاجت النار إلى وقت أكبر للوصـــول إلى حوضـــها وذراعيها ورجليها. تبخر الماء من هيكلها العظمي، وتبعته المادة العضوية. ثم تحوَّل لون عظامها من الأبيض إلى الرمادي إلى الأسود، ثم عـــاد إلى الأبيض مـــرة أخرى. وضغط وزن جذوع الشجر على عظام لورا فتسللت عبر الشبكة المعدنية إلى الأرض تحتها.

فأمسك أحد رجال الإطفاء الواقفين عمودًا معدنيًّا طويلًا، وأدخله في النار، ودفع بالقضيب المعدني الموضع الذي كان رأس لورا فيه، لكن الجمجمة كانت قد اختفت.

لقد قيل لي إن كل عملية حرق في كريستون تختلف عن غيرها، فبعضها بســيط وســريع، والبعـــض الآخر

يستغرق ساعات طويلة، لأن المُعزين يؤدون طقوسًا دينية وروحية مُعقَّدة. وكذلك بعض عمليات الحرق غير الرسمي، مثل: حرق شاب صغير أوصى بوضع نصف غالون من التكيلا ولفافة ماريجوانا على منصة حرقه.

أخبرني أحد المتطوعين: «أجزم لكِ إن جميع حضور هذه الجنازة استمتعوا بها».

ما يظل ثابتًا هو أن تجربة المحرقة بالنسبة إلى الحاضرين، تجربة محورية، فأصغر شخص أحرقوه يُدعى «ترافيس»، وكان عمره 22 عامًا فقط وتوفي في حادث سيارة. ووفقًا لتقرير الشرطة، فقد كان مع أصدقائه وهم سُكارى في سيارة تتحرك بسرعة شديدة على طريق مظلم ناءٍ. انقلبت السيارة، وطار ترافيس من نافذتها، وأُعلِنت وفاته في مكان الحادث.

وقد جاء شباب كريستون كافة وشباب البلدات المحيطة بها أيضًا ليحضروا عملية الحرق. وفيما افترشت جثته المنصة، كشفت أمه الكفن لتُقبِّل جبهته.

أما أبوه، فقد أمسك بوجه قائد السيارة أمام المجتمع بأسره وقال: «انظر إليَّ! قد عفوت عنك وسامحتك».

بعد ذلك، أُشعِلت النار في المنصة.

بعد ساعة تقريبًا من حرق لورا، كان الحزن قد رفع يده الثقيلة عن الدائرة المحيطة بها.

تقدم المتحدث الأخير لمخاطبة الحشد بطريقة لم تكن لتناسب المقام قبل تسعين دقيقة فقط: «كل ما قلتموه عن روعة لورا حقيقي. لكن في رأيي، كانت عجوزًا جامحة. كانت فتاة حفلات! أود أن أمنحها صيحة».

ثم صاحت بصوت خافت: «أووووو!». وانضم إليها الحشد المحيط. حتى أنا، التي خجلتُ بشدة حتى وقت قريب من أن أضع غصن العرعر على المنصة، أطلقتُ عواءً قصيرًا.

بحلول الساعة 9:30 صباحًا، بقيتُ أنا وستيفاني فقط (وما تبقى من لورا) عند المحرقة، جالستين إلى منضدة خشبية منحوتة.

وتبقت ثلاثة جذوع فقط بين الجمر، تحترق بطلف في آخر عُمرها. وقد قاس جهاز الأشعة تحت الحمراء المُستعار من وحدة الإطفاء أن حرارة هذه الجمرات أكثر من 1.250 درجة.

غالبًا ما تكون ستيفاني أول الحاضرين وآخر المغادرين.

قالت لي: «أحب الصمت».

بقيت ستيفاني ساكنة لدقائق قليلة، ثم وقفت فجأة. التقطت قطعة من شبكة معدنية وفحصتها.

قالت: «هذه شبكة حماية من تصميم بول. يُفترض أنها تحمي الرماد في الليالي العاصفة. قطع الخشب لا يمكن أن تطير، ولكن ماذا عن شرر الجمر؟».

وفي غضون دقيقتين، كانت ستيفاني تهاتِف وحدة الإطفاء لترتيب اختبارات الوقاية من الشرر والتفتيش. لم تسمح لها طاقتها اللامحدودة بالبقاء خامدة لفترة طويلة. تساءلتُ كيف تمكنَت من استدعاء سنوات الصبر اللازمة لجعل هذه المنصة واقعًا.

قالت: «لقد أرهقني انتظار قبول المجتمع لنا. وأوقفت نفسي بالكاد عن إجبار الناس على ذلك».

وكلما طال بقائي في كريستون، بدت لي بلدة من المهاويس. يجتمع المضيفون مع السكان المحليين للتأكد من أن أوراق وفاتهم صحيحة. ويوقِف الناس ستيفاني في مكتب البريد ليقولوا لها: «أنا سعيد لأنك هنا، وسأحضر الاجتماع التالي لكتابة وصيتي وتوجيهاتي».

يعرف أهل كريستون ما عليهم فعله حين يموت شخص ما، فقد أخبرني المتطوعون الذين ذهبوا إلى المنازل لتجهيز الجثث إن العائلات بدأت تقول لهم: «شكرًا لقدومكم، لكن لا بأس يمكننا تولي الأمر».

حتى الجثث تملك طابع البلدة الصغيرة، فقد قررت إحدى النساء أن تُدفن في مقبرة كريستون الطبيعية (الأولى في الولاية). وعندما ماتت، نقلت بناتها جسدها من دنفر في مؤخرة شاحنة داخل حاوية مطاطية ملأنها بالثلج.

قالت ستيفاني: «لم يكن لدينا أي مكان لحفظ المرأة حتى موعد دفنها، لذلك قررنا أن نتركها تبيت هذه الليلة في متحف المدينة».

أحبت البنات الفكرة. قُلن: «كانت ماما مهووسة بالتاريخ، لو كانت موجودة لوافقت».

ترحِّب المدافن الطبيعية بأي شخص، لكن المحرقة مقصورة على أهل هذا المجتمع. تتلقى المنظمة غير الربحية مكالمات من جميع أنحاء البلاد، من هندوس وبوذيين وأمريكيين أصليين والمؤمنين بالمحارق بشكل عام الذين يطلبون إرسال جثثهم إلى كريستون بعد وفاتهم. وبما أنهم يُعَدُّون نشاطًا تطوعيًّا صغيرًا، فليس لديهم القدرة أو القوة البشرية للتعامل مع الجثث القادمة من خارج المدينة (وحتى لو قبلوا، فلن يسمح لهم مفتِّش الشرطة المحلي إلا بخدمة المقاطعة المحيطة). والرفض صعب على الطرفين.

والمرة الوحيدة التي قبلوا فيها استثناءً كانت حين عُثِر على متنزِّه من جورجيا، فُقد لمدة تسعة أشهر وأُجري من أجله بحث مكثف. لقد عثروا على

جزء منه فحسب: عموده الفقري ووركه وساقه. وقد وافقوا على حرقه لأنه رسَّخ أقدامه في مسكنه الجديد لفترة ما بعد الموت.

لقد كانت جنازة الحرق المفتوح جذَّابة للغاية لدرجة أن بعض الناس اشتروا أرضًا في كريستون لمجرد التأهل لها، فقد اشترت امرأة أربعينية تموت بسبب سرطان عنق الرحم قطعةَ أرض صغيرة، وعندما توفيت ساعدت ابنتها البالغة من العمر 12 عامًا في تحضير جسدها للحرق.

هذا الشوق الوجودي لتقبُّل المحرقة النارية شائع في جميع أنحاء العالم، ففي الهند، ينقل أفراد الأُسرة الجثث الميتة إلى محرقة ضمن صف طويل من المحارق على طول ضفاف نهر الغانج. وحين يموت أبٌ، يُشعل أكبر أبنائه الذكور المنصة. وفيما تزداد سخونة اللهيب، يغلي اللحم ويتبخَّر. وفي الوقت المناسب تمامًا، تُستخدم عصا خشبية في كسر جمجمة الرجل الميت، إذ يعتقد الهنود أن روح الرجل تتحرر في هذه اللحظة.

لقد كتب ابنٌ واصفًا حرق جثتي والديه: «قبل [كسر الجمجمة]، ترتجف، لأن هذا الشخص كان على قيد الحياة قبل ساعات قليلة فقط، ولكن بمجرد أن تضرب الجمجمة، تعرف أن ما يحترق أمامك مجرد جثة. وهنا يزول كل ارتباط بها».

تتحرر الروح وكأنها أغنية روحية هندية تخرج من مكبر صوت: «أيها الموت! تظن أنك هزمتَنا، لكننا نغني أغنية الحطب المشتعل».

يشرح «بيتو لاوجاني»، وهو هندوسي يعيش في الغرب، ألمَ مشاهدة حرق الجثث وهي تتحول إلى عملية تجارية وصناعية. فبدلًا من وضع الجثة على خشب منصة الحرق، يشاهد المشيِّعون تابوتًا «يتحرك على سير كهربائي ويسقط في حفرة مبهمة»، وحين تنفتح الجمجمة في الغرفة المبطنة بالفولاذ والطوب، ستُسجن روح الرجل في الآلة وتُجبر على الاختلاط بالآلاف من الأرواح الأخرى المحبوسة داخلها. هذه مِيتَة سيئة. بالنسبة إلى العائلة، قد تكون العملية برمتها «تجربة مزعجة ومروِّعة».

لذلك حارب «دافندر جاي»، الناشط الهندوسي، مجلسَ مدينة نيوكاسل بإنجلترا لسنوات لإضفاء الشرعية على المحارق المفتوحة المماثلة لمحرقة كريستون. وقد ربح جاي المعركة القضائية، وقد تصبح المحارق المفتوحة قريبًا حقيقة واقعة في المملكة المتحدة. وأوضح أن: «وضعي في صندوق خشبي وإحراقي في فرن ليس ما أعتبره تكريمًا، ناهيك بكونه سرًّا مقدسًا قديمًا».

سيكون من السهل إتاحة المحارق المفتوحة في أي مجتمع يريدها. لكن المقابر الحكومية ومجالس دور الجنائز تُبدي مقاومة شديدة للفكرة. وبنفس طريقة الجيران العدوانيين في كريستون، يجادلون بأن المحارق المفتوحة سيصعب التحكم فيها، وأنها ستؤثر على جودة الهواء والبيئة بطُرق لا نعرفها. لقد أثبتت كريستون أن فحص المحارق المفتوحة للتأكد من امتثالها لمعايير السلامة كفحص أي محرقة جثث صناعية. ويمكن للوكالات البيئية إجراء

اختبارات لتحديد أثرها البيئي، وإصدار اللوائح وفقًا لذلك. فلماذا تستمر هذه الحكومات المحلية في المقاومة؟

الجواب قاسٍ كما هو واضح: المال. يبلغ متوسط تكلفة الجنازة الأمريكية من ثمانية آلاف دولار إلى 10 آلاف دولار، دون تكاليف الدفن والمقبرة. أما تكلفة الجنازة بطريقة كريستون فهي 500 دولار فقط، وهي في الحقيقة عبارة عن تبرع «لتغطية تكلفة الأخشاب ووجود وحدة الإطفاء، والنقَّالة، وإيجار الأرض». لتتصور هذه التكلفة بشكل صحيح، فهي 5% تقريبًا من سعر الجنازة الأمريكية التقليدية. وإذا لم تملك المبلغ لكنك عضو في المجتمع، فسوف تتخلى المنظمة غير الربحية عن تحصيل رسومها. يَعد جاي بنموذج مشابه لحرق الجثث في المملكة المتحدة. ويخطط لتحصيل 900 جنيه إسترليني، لكنه يقول: «سنفعل هذا في صورة عمل خيري مجانًا. وعلى مَن لا يملك المال أن يوفِّر أرضًا فقط».

لكن في القرن الحادي والعشرين، لم يسمع الناس تقريبًا بفكرة عدم دفع مالٍ أو تحقيق ربحٍ من الموت، ويرجع ذلك في الغالب إلى صعوبة تحقيق ذلك. فبعد إعصار كاترينا، بدأت مجموعة من الرهبان البينديكتين في جنوب لويزيانا في بيع الصناديق المصنوعة يدويًّا من خشب السرو. وقد أصدر مجلس المُحنِّطين ومديري الجنازات بالولاية أمرًا بالإيقاف والامتناع، بدعوى أن دور الجنائز المُرخَّصة من قِبل مجلس إدارتها هي فقط التي يمكنها بيع «سلع جنائزية». في نهاية المطاف، وقف قاضٍ فيدرالي إلى جانب الرهبان، قائلًا إنه من الواضح أنه لا توجد مخاطر على الصحة العامة من بيع الصناديق وأن دافع المجلس هو الحمائية الاقتصادية فقط.

من الناحية القانونية واللوجستية، يكاد يكون من المستحيل التحايل على قطاع الجنائز وأنظمتها لإنشاء خدمة للميتين غير ربحية في مجتمع ما. وفي هذا المشهد، حيث تحارب المجالس التجارية الرهبان (الرهبان!) لا يسع الكلمات التعبير عن مدى روعة الإنجازات التي حققتها كريستون.

في الصباح الباكر بعد جنازة في كريستون، دخلتُ دائرة حرق الجثة واستقبلني كلبان رائعان يلعبان حول المحرقة. وصل «ماكجريجور»، شقيق ستيفاني والمتطوع لجمع الرماد، في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم لفحص رفات لورا: 4.5 غالون من العظام والرماد. ومن كومة الرماد سحب أكبر شظايا العظام، أجزاء من عظم الفخذ والأضلاع والجمجمة، إذ تحب بعض العائلات أخذها والاحتفاظ بها كآثار في منازلها.

وكان حجم كومة الرماد أكبر بكثير مقارنةً بما ينتج من الحرق التجاري التقليدي، الذي لا يُبقي من البقايا إلا بقدر ما يملأ علبة قهوة فولجرز. بل إننا مُطالَبون في كاليفورنيا بطحن العظام في آلة فضية تسمى «مطحنة العظام» حتى تصبح «رماد عظام لا يمكن التعرف عليها»، إذ تستهجن الدولة تسليم العظام الأكبر التي يمكن تمييزها إلى الأسرة، وقد رغب العديد من أصدقاء لورا في الاحتفاظ بقدر من الرماد، وأي فائض سيُنثر في التلال القريبة من المحرقة أو بين الجبال.

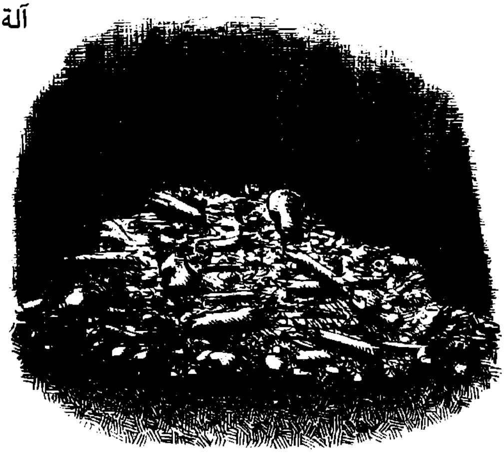

قال جيسون: «كانت لتحب هذا. إنها في كل مكان الآن».

سألتُ جيسون هل تغيَّر أي شيء بالنسبة إليه منذ حرق الجثة بالأمس.

قال: «لقد أحضرتني أمي لرؤية المحرقة في آخر مرة زرتها فيها. كنت في حيرة من أمري، ظننت أنني سأضطر إلى الجلوس على هذا المقعد هناك وأحرق أمي وحدي وأفعل شيئًا بمفردي. بدا الأمر سيئًا للغاية. وقبل ثلاثة أيام، أرعبني ما أنا مُقدم على فعله في كريستون.

لكن أمي أخبرتني: «هذا ما اخترته لجسدي، وأنت مُخيَّر في الحضور أو عدم الحضور».

حين وصل جيسون إلى حفل اليقظة بمنزل أمه، بدأت نظرته في التغيُّر. وبحلول وقت حرق الجثة، كان قد أدرك أن مجتمعًا كاملًا يسانده.

لقد وجد كلمات تُلقى وأغاني تُغنَّى، وقبِل لنفسه دعم كل الموجودين الذين أحبوا أمه. قال لي: «لقد تأثرتُ بهذا. وتغيرت بسببه الظروف».

وهو منحنٍ نحو الرماد، شرح ماكجريجور لابن لورا «جيسون» ما ينظرون إليه، وأثبت له شدة هشاشة العظام بعد تعرضها للحرارة بتفتيت جزء صغير بيده.

سأل جيسون، وهو يسحب قطعة صغيرة من المعدن من بين الكومة: «ما هذا؟».

كان الوجه الملوَّن للساعة التي كانت لورا ترتديها حين وُضعت على المحرقة. وكانت قد تحوَّلت إلى ألوان قوس قزح بسبب حرارة النار، وتوقفت إلى الأبد عند 7:16 صباحًا: اللحظة التي اتقدت فيها ألسنة اللهب.

إندونيسيا

جنوب سولاوسي

في منطقة نائية بإندونيسيا يعرض الناس موتاهم إلى حد لا يمكننا فيه إقناع أشد المؤيدين للتفاعل مع الجثث به. ظللت لسنوات أعدُّ زيارة هذا المكان حلمًا بعيد المنال. لكنني نسيت شيئًا واحدًا حاسمًا: أنا أعرف د. «بول كودوناريس».

في يوم من أيام الربيع، جلست في منزل د. بول، عالِم الجنائز وكنز الطوائف الدينية بلوس أنجلوس. وأعني أنني جلست على أرض خشبية صلبة دون وسادة، فبَيت بول في لوس أنجلوس، الذي أسماه «قلعة القراصنة المغاربة»، لا يحوي أي أثاث. لكن فيه مجموعة من الحيوانات المحنَّطة، ولوحات من عصر النهضة، ومشكاوات شرق أوسطيَّة مُعلَّقة من السقف.

قال لي بول بلا مبالاة يعجز أن يأتي بها غيره: «أنا ذاهب إلى تانا توراجا لحضور طقس تنظيف الجثث في أغسطس».

فعلى مدى 12 عامًا، جال بول العالم لتصوير كل شيء، من كهوف الدفن في رواندا، إلى الكنائس التشيكية المُزينة بالعظام البشرية، إلى الرهبان المُحنَّطين المكسوِّين من الرأس إلى أخمص القدمين بورق الذهب في تايلاند.

هذا هو الرجل الذي من أجل الوصول إلى مكانٍ ناءٍ في بوليفيا، استقل طائرة إسقاط مظلي من الحرب العالمية الثانية مخصصة لنقل اللحوم المجمدة. وكان جيرانه عليها: مزارِع وخنزيره وخروفه وكلبه فقط. وكانت الحيوانات تجري مذعورة عند اصطدام الطائرة بمطبات هوائية. وحين يُطاردها بول والمزارع للإمساك بها، يلتفت مساعد الطيار ويصرخ فيهم: «توقفا عن هز الطائرة وإلا سنسقط!».

بول من الصنف النادر من البشر الذي يمكنه تحمُّل رحلة إلى توراجا.

وبعد أن انتهى من جملته، دعاني لمرافقته: «ولكن عليَّ أن أُحذِّركِ: الرحلة نفسها مزعجة جدًّا».

❋

بعد مرور عدة أشهر، وصلنا إلى جاكرتا، أكبر مدن إندونيسيا. تتكون إندونيسيا من أكثر من 17 ألف جزيرة وتضم رابع أكبر عدد سكان في العالم (بعد الصين والهند والولايات المتحدة).

لنلحق بطائرتنا، مررنا على سلطة الجوازات. قالت الشابة المليحة الجالسة إلى المكتب: «إلى أين تذهبين في إندونيسيا؟».

قلت: «تانا توراجا».

رُسمت على وجهها ابتسامة شيطانية وقالت: «هل أنت ذاهبة لمشاهدة جثث الموتى؟».

- نعم.

- أحقًّا؟!

وبدا أن الإجابة قد صدمتها وكأن سؤالها السابق إنما كان مجرد دردشة ترحيبية. قالت: «الجثث! أتعرفين أنهم يسيرون وحدهم؟».

أجاب بول: «لا، تحملها العائلات. إنهم ليسوا زومبي!».

قالت: «أخاف منهم!».

التفتت لتتبادل ضحكة عصبية مع زميلتها في العمل في الكشك المجاور وهي تختم على جوازَينا.

عندما وصلنا أخيرًا إلى ماكاسار، عاصمة جزيرة جنوب سولاويزي، كنتُ قد وصلت إلى 39 ساعة دون نوم. وعندما خرجنا من المطار إلى الهواء الرطب، أحاط الناس ببول وكأنه من المشاهير. لقد نسيت أن أذكُر أن بول شخص غريب جدًّا كمنزله، وهذه عبارة صغتها بأقصى درجات الاحترام والمُجاملة. فشعره مُضفَّر في ضفائر كثيفة، ولحيته مُزينة بخرزات ساحر، إلى جانب عدة وشوم. وقد ارتدى لسفرِه معطفًا أرجوانيًّا من المخمل وعلى رأسه قبعة يتدلى من طرفها جمجمة صغيرة لابن عرس. لا أحد يعرف عمره. ذات مرة، وصفه صديق مشترك بأنه «يشبه لصوص المسافرين في القرن الثامن عشر كما يتخيلهم (تيم بورتون)[1]»، فيما يصف بول نفسه بأنه «مزيج بين (برنس)[2] و(فلاد المخوزِق)[3]».

(1) مخرج وفنان أمريكي – المترجم.

(2) مُغنٍّ وكاتب أمريكي – المترجم.

(3) فلاد الثالث ملك إمارة أفلاق برومانيا واشتهر بمقاومة العثمانيين وكثرة الإعدام بالخازوق – المترجم.

التفت الناس عن بحثهم المحموم عن سيارة أجرة من أجل إلقاء نظرة فاحصة على وشم بول وجمجمته. لقد فتحت غرابة مظهر بول الأبواب المغلقة وأدخلته الأديرة السرية وكهوف العظام التي يُمنع غيره من الوصول إليها؛ يرتبك الناس من مظهره لدرجة أنهم يعجزون عن طرده.

لم أجد وقتًا لأغفو في فندق ما، وقد عثرنا على سائقنا واندفعنا بسرعة في رحلة تستغرق ثماني ساعات تجاه الشمال. امتدت حقول الأرز الخضراء على جانبي الطريق وقطعت الجواميس بهدوء حمَّامات الطين.

وخلال رحلتنا نحو الشمال، سمعنا أذان الصلاة وصادفنا خطباء المساجد القريبة من الطريق. يدين أغلب سكان إندونيسيا بالإسلام، لكن أهل جبال تانا توراجا النائية كانوا يدينون بدين روحاني يُدعى ألوك تو دولو (الطريق إلى الأسلاف) إلى أن أدخلهم الهولنديون في المسيحية في بداية القرن العشرين.

بعد قليل، وصلنا إلى الجبال. راوغ سائقنا في الطريق المتعرِّج المتألف من حارتين وتفادى الدراجات النارية الخفيفة والشاحنات الكبيرة وكأننا في لعبة لا تنتهي. ولعدم معرفتي بلغته، اضطررت أخيرًا إلى الإشارة إليه بالإشارة العالمية لـ «يا أخي سأتقيأ».

وعند وصولنا إلى توراجا، بدأت الهلاوس تعبث برأسي لشدة حاجتي إلى النوم. أما بول، الذي استمتع بعدة غفوات على الطائرة، فأراد التقاط صور لسلسلة كهوف قريبة مخصصة للدفن قبل حلول الظلام.

لم نجد أحدًا عندما توقفتْ سيارتنا عند كهوف لوندا للدفن. لكن أمام الجرف، وجدنا سقّالات متهالكة وعليها أكوام من التوابيت المصنوعة من خشب الأورو على شكل قوارب وجواميس وخنازير. يُظهِر التأريخ بالكربون المشع أن استخدام مثل هذه التوابيت في توراجا بدأ قبل سنة 800 قبل الميلاد. كانت الجماجم تختلس النظر وتراقب وصولنا من الشقوق في الخشب وكأنها

رؤوس جيران فضوليين. وحين يتحلل جسم التوابيت، ستسقط العظام التي بداخلها وتتدحرج إلى قاع الجرف.

الأكثر سريالية هو استقرار التوابيت إلى جوار صفوف طويلة من تاو تاو، وهي تماثيل خشبية واقعية للموتى على طريقة أهل توراجان، وكانت جالسة وكأنهم في اجتماع مهم لمجلس القرية. تمثِّل هذه التماثيل أرواح العظام المجهولة المنتشرة في الكهف. ويمكن معرفة التماثيل القديمة من أعينها البيضاء الضخمة وشعرها المستعار الشعث.

أما التماثيل الأحدث فواقعيتها مزعجة بوجوهها الدقيقة والثآليل المُقنِعة والعروق المرسومة بالاحترافية. إنها ترتدي النظارات والملابس والجواهر، وتبدو مستعدة للنهوض متكئةً على عصيِّها والترحيب بنا.

بداخل الكهف المظلم، تصطف الجماجم في الشقوق والحواف الطبيعية بين الصخور. بعضها كان منظَّمًا بطريقة فنية في شكل هرمي، والبعض الآخر ملقى رأسًا على عقب. بعضها كان مطليًّا بالأبيض، والبعض الآخر بالأخضر الزاهي بسبب الطحالب. بعضها يُميل السجائر على طرف فمه بشكل طريف، حتى إنني رأيت فكًّا سُفليًّا (دون بقية جمجمته) يُدخن سيجارتين معًا.

من حفرة صغيرة أشار إليَّ بول أن أتبعه إلى ما ظننته تجويفًا آخر في الكهف.

مِلتُ إلى الأمام وسددت النظر، فرأيت أن هذه الحركة ستتطلب الزحف على بطني في نفق.

قلت: «نعم! لا بأس سأبقى هنا».

أما بول، الذي يقتحم أحيانًا مناجم النحاس والخُفاف[1] المهجورة في منطقة لوس أنجلوس (وهذا ما يناسب شخصيته طبعًا)، فزحف بعيدًا. اختفت ذيول معطفه المخملي في الحفرة.

كانت بطارية هاتفي الخلوي، ومصدر الضوء الوحيد لي، عند 2%، لذلك أطفأته وجلست في الظلام بين الجماجم. مرت دقائق، ربما خمس وربما عشرون، ثم اخترق مصباحٌ الظلام. كانت أسرة من أم وعدة مراهقين، وهم سيَّاح إندونيسيون من جاكرتا. من وجهة نظرهم، لا بد أنني بدوت كحيوان بوسوم تجمَّد أمام جدار المرأب حين سقط عليه نور مصابيح السيارة الأمامية.

بإنجليزية أنيقة وسامية، هبط شاب إلى مستوى مرفقي وقال: «عفوًا يا آنسة! لو تنتبهين إلى الكاميرا، سنصنع مادة للإنستجرام».

بدأ الفلاش في الانطلاق ليُرسل صورتي إلى #كهوف_لوندا. ورغم غرابة الموقف، أمكنني أن أتفهم سبب مناسبة اكتشافهم لفتاة بيضاء بطول ستة أقدام[2] ترتدي فستانًا مُرقَّطًا في زاوية كهفٍ مليء بالجماجم للنشر على الإنستجرام. التقطوا عدة صور معي بوضعيات مختلفة قبل استكمال طريقهم.

❋

استيقظتُ بعد استعادة نشاطي من غيبوبة استمرت لأربع عشرة ساعة في فندقنا في مدينة رانتيباو. انطلقنا للقاء «أهجوس»، مُرشدنا، في الردهة. وقد كان نحيلًا وسيمًا معتدل الهيئة. يعمل أهجوس في إرشاد السُيَّاح

(1) صخر بركاني مسامي يُستخدم في مستحضرات الطلاء – المترجم.

(2) 182 سم تقريبًا – المترجم.

الهولنديين والألمان في غابة عميقة ورحلات التجديف منذ خمسة وعشرين عامًا، ولكنَّه بنى في السنوات الأخيرة علاقة خاصة مع بول تركِّز على الموت. أخبرنا أهجوس أن تنظيف الجثث (الطقوس التي جئنا لمشاهدتها) لن تبدأ إلا غدًا (بتوقيت توراجا)، ومغامرة اليوم كالمُقبِّلات لها: جنازة بطريقة توراجا.

قطعنا طرقًا ترابية طويلة في سيارة أهجوس، عابرين تلالًا خضراء زمردية. وعلى مدى أميالٍ طويلة، حبستنا دراجة بخارية خفيفة يربط سائقها خلفه خنزيرًا أسود مُشعِرًا بحبل أخضر مُشع.

ملت إلى الأمام في كُرسيِّي ودققت النظر. هل الخنزير ميت؟ فرفس الخنزير بحوافره وكأنه سمع أفكاري.

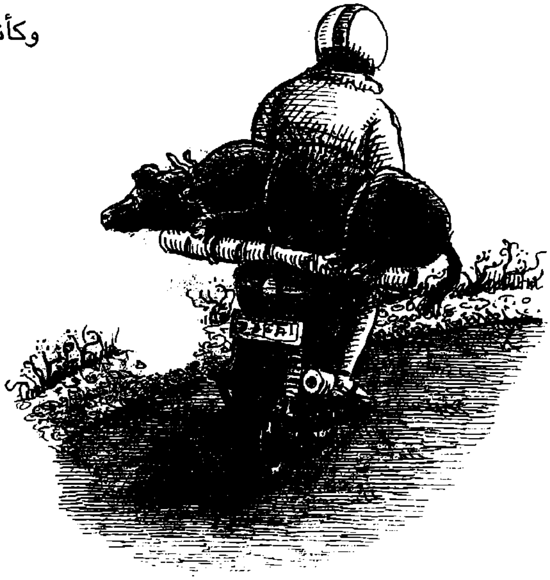

لاحظ أهجوس نظرتي فقال: «يصعب حمل الخنازير على الدراجات أكثر من البشر؛ إنها تتلوَّى».

كان الخنزير متَّجهًا إلى نفس الجنازة التي نتَّجه إليها، لكن واحدًا منَّا لن يعود.

بلغت الجنازة أسماعنا قبل أن تبلغ أبصارنا بسبب الطبل والصنج. دخلنا وسط حشد من الماشين خلف جثة كانت تُنقل داخل نموذج مصغَّر للبيوت في توراجا. ولا تُشبه هذه المنازل، المعروفة باسم تونجكونان، أي مسكن رأيته من قبل، فهي مبنية على ركائز متينة عالية ولها سقف له طرفان يشيران إلى السماء. وحُملت هذه الجثة، داخل بيتها الصغير، على أكتاف 35 شابًا.

تدفقت الحشود إلى فناء رئيسي فيما دارت الجثة حوله. كان العمل بطيئًا، إذ كان المنزل أثقل من المتوقَّع فتحتَّم على الرجال التوقف كل ثلاثين ثانية أو نحوها لإنزاله.

وتوسَّط الفناء جاموس قوي وتشعر من سلوكه بالجدية. وأشار وجود الجاموس إلى تهديد غامض سيأتي، فقد كان مربوطًا بالأرض بحبل قصير، فبدا وكأنه الحمَل المتروك ليلتهمه ديناصور التيركس الجائع في حديقة الديناصورات.

وكما قال تشيخوف في فن المسرح: «إن أظهرت مسدسًا على الخشبة خلال العرض، فلا بُد أن ينطلق في المشهد الأخير».

اجتمع السُّياح (أو على الأقل الذين استطعت أن أجزم بأنهم سيَّاح بسبب بشرتهم البيضاء ولهجتهم الأوروبية الغربية) في زاوية بعيدة في الفناء. وهذا هو أكثر ما يُحيِّر أهل سياحة الموت في توراجا: كيف نُقرِّب السائح، لكن دون إفراط. وقد بدا نفيُنا إلى المؤخِّرة مُنصفًا بالنسبة إليَّ، وتحركتُ بين الناس لأشاهد ما يجري فيما أمسك بول بكاميرته لالتقاط الصور. ارتدى بول اليوم ملابس أكثر ملاءمة للطقس الرطب: بذلة كاملة من الجينز، وشارة مأمور الشرطة، وجوارب مرقَّطة، وقبعة رعاة البقر.

رأيت بعض السيَّاح الذين لم يفهموا الإشارة، فوضع اثنان منهم كرسيين قابلين للطي إلى جانب أسرة الميت في قسم الشخصيات المهمة. ولشدة أدب

السكّان المحليين طلبوا منهم بهدوء المغادرة. وسارت امرأة ألمانية مسنة لها شعر أشقر مصبوغ لا يلائم المناسبة إلى وسط الفناء مباشرة، خلال الاحتفالات التي لم تنتهِ حلقاتها، والتقطت صورًا بجهاز الآيباد الخاص بها مقتربة من وجوه الأطفال المحليين والمُدخنين الشرهين. أردت أن أجذبها بقوة بعكّازٍ معقوف.

تُعد السياحة أمرًا طارئًا على تانا توراجا، ولم يكن يسمع بها أحد قبل السبعينيات، فقد ركّزت الحكومة الإندونيسية على تطوير السياحة (بنجاح كبير) في جزر أخرى، مثل: بالي وجاوا، لكن تانا توراجا امتلكت شيئًا لم يملكه غيرها: طقوس الموت المثيرة للإعجاب. وأصبح أهلها راغبين في التخلص من نظرة بقية إندونيسيا إليهم على أنهم مكان «للبحث عن الهاربين والسحر الأسود»، بل كممارسين لتقاليد ثقافية عميقة.

تحركت الجثة في الفناء، رفعها وخفضها الحمّالون إلى الأعلى والأسفل وهم يهتفون وينخرون. واستمروا في حملها إلى أن خارت قواهم واضطروا إلى إنزال المنزل على الأرض، ثم أخذوا نفسًا عميقًا وأعادوا الكرَّة. كان من الممتع مشاهدة الجهد المتصاعد، لا سيما عند مقارنته بالمسيرة الثابتة لحاملي النعوش المعتادين في الغرب.

كانت الجثة لرجل يُدعى «روفينوس لينتون». وكان شخصية مهمة في القرية، لعمله في الحكومة ولكونه مزارعًا. وقد أطلَّ علينا روفينوس بوجهه من ملصق ملوَّن بارتفاع خمسة أقدام عُلِّق خلفنا، تبين أنه رجل في أواخر الستينيات يرتدي بذلة زرقاء جميلة وله شارب دقيق كشارب «جون ووترز».

ركض أطفال يرتدون أزياء مطرَّزة في الفناء، مراوغين الرجال الذين يحملون خنازير لها خنخنة مربوطة بأوتاد من الخيزران. وكان الرجال يحملون الخنازير إلى مساحة خلفية مخفية. أُغلق باب المنزل الرئيسي ببساط عليه طاقم أميرات ديزني كاملًا: بيلا وأرييل وأورورا اللاتي كن يشاهدن الخنازير تعبر نحو المذبح. تساءلتُ: هل الخنزير الذي رأيناه مربوطًا على الدراجة البخارية الصغيرة بين هؤلاء؟

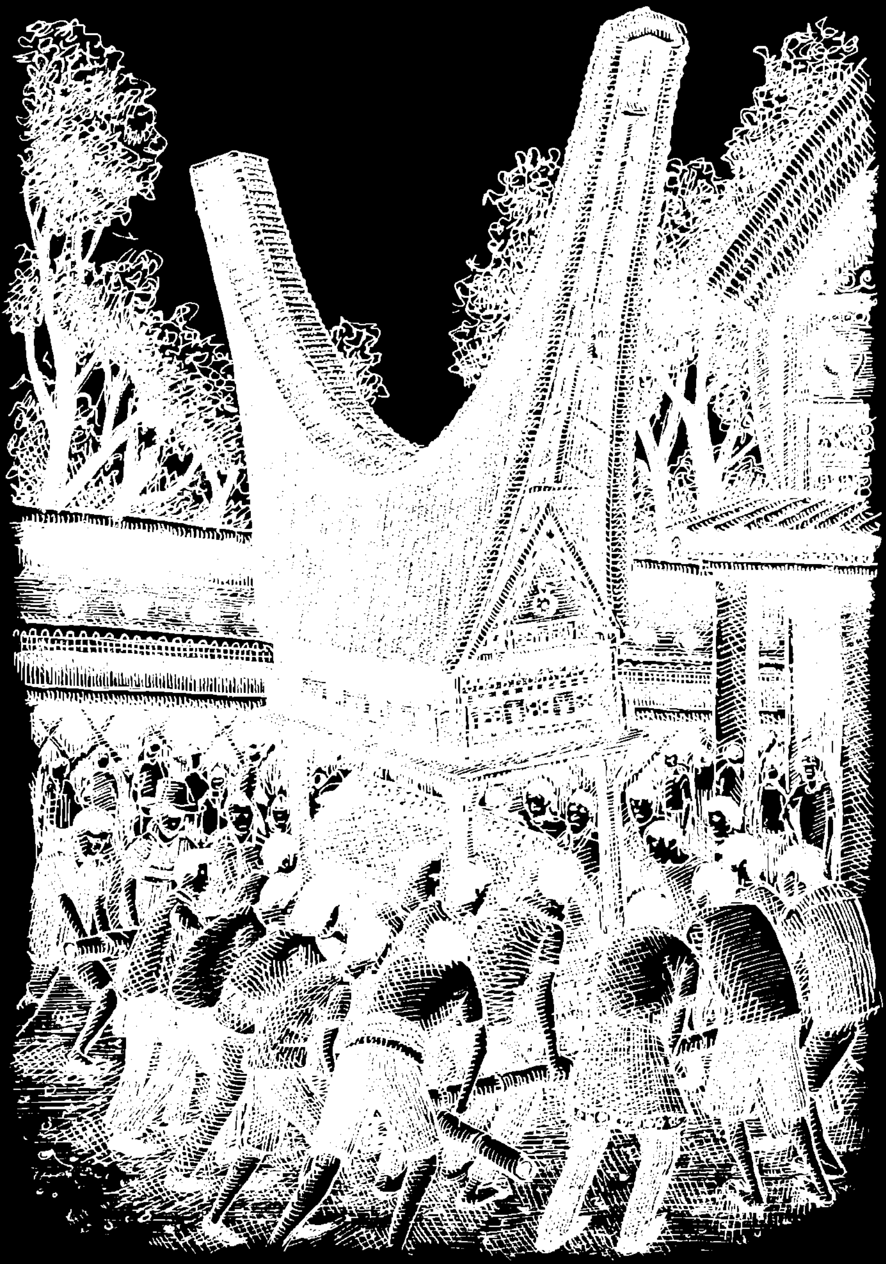

لم تكن جنائز تروجا فعاليات ودية يجلب إليها الحاضر طعامه. فكل خنزير وحيوان آخر للتضحية جاء من عائلة مختلفة، وهذا مُسجَّل بدقة، فثمة نظام للديون يضمن قدوم الناس إلى حضور الجنائز.

قال أهجوس: «إن جلبتِ خنزيرًا إلى جنازة أمي اليوم، سأجلب لكِ مثله يومًا ما». تشترك ثقافة الموت في توراجا مع مثيلتها في أمريكا في هذه السمة الخاصة: الإنفاق المفرط. لا أحد يريد أن يُنظَر إليه على أنه لا يحترم الموتى.

قد تبدو كل هذه الطقوس معقَّدة، لكن أهجوس ادَّعى أنها أصبحت الآن أقل تعقيدًا بكثير، فقد وُلِد والداه على دين ألوك المتمحور حول الأرواح، لكنه تحول إلى الكاثوليكية في سن السادسة عشرة. يملك أهجوس نظرية: يحتوي دين الألوك على 7.777 طقسًا، ويتحول الناس عنه لأنه أصبح شديد التعقيد.

ورغم أنني لا أرى الكاثوليكية الملجأ المناسب من الطقوس المعقَّدة، فإن هذا هو الواقع.

خيَّم الصمت على الحشد حين اقترب الكاهن من مكبر الصوت وبدأ خطبته. لم أفهم كلماته، لكن تخللت خطبته تحيات مدوِّية للمتوفى: «رووفينوس لينتوووووون». تحدث لعشرين دقيقة، وعندما بدأ يفقد حماسة الجمهور تجاه الهتاف المتكرر، صرخ في مكبر الصوت مثل مطربي الميتل الروك: «كوووووييييي!».

صدقني، إن كنت تجلس إلى جانب السمَّاعة ولا تتوقَّع هذه الـ «كوووووييييي» فستكون مدمَّرة. ترجم أهجوس لنا التعبير إلى «أنصتوا!» في السنوات الأخيرة، أخذت خطب الجنازات في تورجا (إلى جانب الرقصات والأزياء) من البرامج التلفزيونية المتنوعة.

توفي روفينوس، بتعريف الطب الغربي، في نهاية مايو، أي: قبل ثلاثة أشهر. لكنه بحسب تقليد توراجا، ظل على قيد الحياة. لعل أنفاسه توقفت، لكن حالته الجسدية كانت أشبه بحمى شديدة: مجرد مرض. ويستمر هذا المرض حتى ذبح أول ضحية، سواءً كانت جاموسًا أو خنزيرًا. وبعد التضحية، يمكن أن يموت روفينوس أخيرًا مع الحيوان المذبوح. خلال عامين من العمل الميداني في توراجا، أقام عالم الأنثروبولوجيا «ديميتري تسينتجيلونيس» صداقة وثيقة مع امرأة محلية تدعى «ني ليوك»، التي اعتبرت ديميتري أحد أبنائها. لقد عاد إلى توراجا بعد تسع سنوات، متحمسًا لمفاجأة ني ليوك بعودته السعيدة، ليكتشف أنها ماتت قبل أسبوعين فقط من وصوله. ذهب ديميتري لزيارة جثتها واقتاده أحد أفراد أسرتها إلى الغرفة الخلفية، وقبل إدخاله أعلن لها أن ديميتري عاد.

يقول: «نظرت إلى وجهها، ثنيت ركبتيَّ لأقترب من أذنها وأهمس بتحياتي. ورغم أن أحد جانبي وجهها بدا وكأنه يغور[1]، بدت هادئة وقوية. لقد كانت «نائمة» فحسب و«عرفتْ» أنني إلى جانبها. بل كانت تراني وتسمعني، ففي الحقيقة لم تكن «ميتة»، وإنما مريضة و«يمكنها الشعور بكل شيء»».

في توراجا، خلال الفترة بين الموت والجنازة، تبقى الجثة في المنزل. ولعلك لا تشعر بأي صدمة حتى أقول إن هذه الفترة ربما تمتد إلى عدة شهور أو سنين. وخلالها، تعتني الأسرة بالجثمان وتُحنِّطه، وتجلب للجثة الطعام وتغيِّر ملابسها وتتحدث إليها.

(1) غار: اختفى. غارت الأرض يعني انخسفت – المترجم.

في أول مرة زار بول فيها تورجا، سأل أهجوس عما إذا كان من غير الطبيعي أن تُبقي الأسر جثة ذويها في المنزل. ضحك أهجوس من السؤال.

وقال: «حين كنت صغيرًا، ظل جدي معنا في المنزل لسبع سنين. كنت أنامِ أنا وأخي معه في نفس السرير. وفي الصباح، نغيِّر ملابسه ونُوقفه مستندًا على الحائط. وفي الليل يعود إلى السرير».

يصف بول الموت في تورجا كما شَهده ليس بأنه «فاصل صلب» أو جدار يستحيل اختراقه يفصل الأحياء عن الأموات، بل بأنه حدود يمكن عبورها. ووفقًا لنظام معتقداتهم الروحانية، لا توجد أيضًا فواصل بين البشر وغيرهم من أعضاء العالم الطبيعي: الحيوانات، والجبال، وحتى الموتى. ويُعد التحدث مع جثة جدك طريقة لتقوية علاقتك بروحه.

سكت الكاهن، وتلاشت آخر صيحاته «كوووووييييي!» والحمد لله من مكبر الصوت. جلس بول بجانبي وهمس: «بعد أن يضَحوا بالجاموس، عليهم أن يضَحوا بأحد السائحين».

وكأنهما ينتظران هذه الإشارة، اقترب رجلان من الجاموس. مرر أحدهما حبلًا أزرق من حلقة معدنية في أنفه، بلطف شديد، فكان يفرك ذقن الجاموس. وبدا أن الجاموس لم يلاحظ أنه أصبح محط جميع الأنظار. أما الرجل الثاني فقرفص ليربط حافري الجاموس الأماميين بوتد خشبي مثبت في الأرض.

توقعتُ، ولم أجزم، أن أسمع ترنيمة أخرى أو اجتماع أفراد الأسرة، لكن ما هي إلا ثوانٍ قليلة حتى رفع الرجل ذقن الجاموس عبر شد الحبل، وسحب منجلًا من حزامه، وقطع عنقه مباشرة. رفع الجاموس رأسه في الهواء، وأظهر عضلاته وقرونه القوية. حاول الهرب، لكن أبقاه الحبل في مكانه. كان هناك جرح أحمر كبير في حلقه، لكن لم يخرج منه دم؛ لم يكن الجرح الأول عميقًا بما يكفي.

اندفع عدة رجال آخرين إلى الأمام، وأمسكوا بالحبل المعلَّق بحلقة أنف الجاموس، لكن الجاموس لن يقبل بالسكون. انتفض وضرب الأرض، وكشف قصبته الهوائية المقطوعة أمام الحشد. لم تكن مشاهدة ما جرى سهلة. سحب الرجل منجلًا من حزامه، وقطع عنقه مرة أخرى. وفي هذه المرة، انطلق الدم الأحمر بقوة من حلقه.

قفز الجاموس إلى الخلف بقوة كافية ليتحرر من الوتد الخشبي. تعثر وهو يلتف إلى اليمين وانطلق بسرعة نحو الحشد. عمَّت الفوضى وعلا الصراخ. في هذه اللحظة يتحول المقطع الصغير الذي كنت أصوِّره إلى مقطع من فيلم رعب: صوت أنفاس مرتفع ولقطات مضطربة للأرض. أحاطني الحشد من كل مكان وجُرحت يدي حين اصطدمتْ بحافة عمود خرساني.

ولم أشُك في أن أحدًا (وهو أنا على الأرجح) سيقع ضحية لغضب الجاموس، لكن المحتفلين أمسكوا به وسحبوه إلى المنتصف مرة أخرى، حيث سقط هامدًا أخيرًا، وتدفق الدم صانعًا بِركة من الرغوة الحمراء حول

حلقه. صاح الحشد في حماسة وضج بالضحك المتوتر. لقد منح الخطر بعض الحيوية للجنازة.

تحدث أهجوس على الهاتف بعصبية. فسأله بول: «ما الخطب؟».

- يجب أن نشتري خنزيرًا.

- وأين سنجد خنزيرًا؟

- سيجد أهجوس واحدًا. من قلة الذوق أن نذهب دون أن نقدِّم خنزيرًا.

لم يكن بالسيارة مكان، فبها أنا وبول وأهجوس والسائق و«أتُّو» وهو مراهق في الخامسة عشرة، ونحن جميعًا في طريقنا إلى قرية نائية. المهم، لا يوجد مكان لخنزير.

أغلق أهجوس المكالمة وأعلن: «سيجلب صديقي الخنزير غدًا على دراجته النارية الخفيفة».

ظل أتُّو يرسل الرسائل النصية بشراسة طوال الرحلة، وهو المتوقَّع من مراهق محاصَر في سيارة مع بالغين. فخلال تنظيف الجثث، سيُفتح قبرا عمه وجده، وكلا الرجلين ماتا قبل أن يولَد أتُّو، ولهذا لم يقابلهما قط إلا وهما جثتان.

ولم تملك هذه القرية ساحة مركزية، بل كانت عبارة عن سلسلة من الكفور[1] الصغيرة. وقد عمل غالبية سكانها في زراعة الأرز، بمن فيهم مضيفونا. كانوا يعيشون في سبعة تونغكونانات (منازل توراجا الضخمة القائمة على ركائز متينة) يتوسَّطها فناء مشترك. سمعت صياح ديك ممتلئ،

(1) جمع كَفْر، أي قرية صغيرة نائية – المترجم.

ورأيت كلبًا نحيفًا يطارده وأطفالًا يضحكون وهم يطارِدون الكلب. رأيت امرأة تضرب أرزًا حصدوه لتوِّهم بعمود طويل من الخيزران بحركة ساحرة متكررة.

لقد تدفق الناس إلى القرية للبدء في تنظيف عشرة قبور مبنية على شكل منازل ومجمَّعة في كتلة مستقلة. كانت الأقفال الثقيلة على أبواب القبور شيئًا طارئًا. ولم يستعن بها الأهالي لضعف الثقة بين الجيران، بل لأن مومياء سُرقت من القرية قبل بضع سنوات وأُخذت إلى رانتيباو لبيعها لأحد هواة الجمع. لكن عرف القرويون مَن أخذها، وذهبوا إلى رانتيباو لسرقتها مرة أخرى.

اجتمعت مجموعة من الرجال لمناقشة متطلبات تهوية القبور. فقبل عامين فقط، دخل قروي يُدعى «جون هانز تابي» أحد هذه القبور. وأمكن للناظر أن يرى من خلال الباب المفتوح نعشَه الخشبي الداكن مثبَّتًا في الزاوية. خشي ابن تابي أن يكون الهواء بالداخل رطبًا أكثر من اللازم.

قال: «أتمنى أن يكون أبي لا يزال بخير، ولا يزال مُحنَّطًا ولم يتعفَّن».

ولهذا فإن هذه المرة من تنظيف الجثث مهمة جدًّا لجون هانز تابي. شعر ابنه بذلك عندما توفي جون قبل عامين، إذ لم تقدر عائلته على تقديم ما يكفي له لأسباب مالية. فلم يمكنها تحمُّل التضحية بجاموس على شرفه، وهذا عار يطارد الابن منذ ذلك الحين، فهو يعتقد أن بسبب عدم ذبح الجاموس «لم يُحمل أبي إلى الحياة الأخرى». وهذا سيتغير في هذا الأسبوع. لقد اختاروا الجاموس بالفعل وينتظرهم في حقل قريب.

فتحت امرأة باب قبر مجاور ورشَّت عبوة ضخمة من معطر الجو برائحة الليمون بداخله.

وعند أول الطريق ذبحت عائلة خنزيرًا وجلست تنتظر وصول كاهن بروتستانتي ليبارك قبرهم الجديد، الذي يتسع لستة أفراد، ودعونا للانضمام إليهم لتناول العشاء.

قُطِّعت أجزاء من لحم الخنزير إلى مكعبات ووُضعت في أنابيب من الخيزران لطهوها على النار. لقد ذُبح الخنزير بجوار النار التي يُشوى عليها الآن. تجمدت بركة من دماء الخنازير ونحن نتناول الطعام، وحاوطنا العديد من الذباب الكسول بأزيزه. كانت الحوافر المقطوعة تتدلى من سقالة خيزران قريبة. اخترق كلب صغير المجلس ونهب قطعة من سقْط الخنزير، وأمسكها وهي تقطر بالدم والسوائل. صاح الطاهي في الوحش: «إي!»، لكن تركه يستمتع بجائزته.

قدَّمت لي امرأة ورقة نبات الخيزران وعليها كومة من الأرز الوردي الدافئ. رفعت أنابيب الخيزران عن النار، وكان اللحم لا يزال ساخنًا جدًّا. وبين قِطع الخنزير، ثمة الكثير من قطع الدهن الصافي. في منتصف الوجبة، حملتُ ورقة الخيزران ونظرتُ من كثب إلى الجلد الدهني المحمص ورأيت بُصيلات الشعر لا تزال واضحة. أدركتُ أن هذا هو لحم حيوان ميت، وصُدمتُ للحظة! فطوال الوقت الذي قضيته في مواجهة الوفيات البشرية، لم أتعامل مع حيوان ميت ليس ملفوفًا في البلاستيك أو الفوم. لقد تضمن كلام «نويلي فيالس»، عالمة الأنثروبولوجيا الفرنسية، عن النظام الغذائي في فرنسا، وهو ما ينطبق على أي بلد غربي تقريبًا: «تحتم أن يكون الذبح صناعيًّا، أي واسع النطاق ومجهول الهوية. يجب أن يكون غير عنيف (وحبذا غير مؤلم)، ويجب أن يكون غير مرئي (وحبذا غير موجود). يجب أن يكون كأن لم يكن».

يجب أن يكون كأن لم يكن!

رأيت امرأة عجوزًا، لدرجة أن عينيها أصبحتا غائمتين بسبب مرض إعتام عدسة العين، تلتقط كومة صغيرة من الأرز وتحدق إلى الوادي. لم تتفاعل مع من حولها، وربما لم تعد تستطيع.

وكزني أهجوس بإصبعه الملطخة بالخنزير وهمس: «هذا القبر سيكون قبرها».

كان يسخر منها، لكن باستخدام حقيقة مجردة. فهذه المرأة ستمضي قريبًا في الطريق الذي مضى عليه أسلافها، وستنتقل إلى هذا المنزل الأصفر الجديد: «منزل دون نار ودخان».

في نفس الليلة وصل خنزيرنا على الدراجة البخارية. وقد نزل مباشرة ضيفًا تحت أحد المنازل وبدأ بنَهم في قضم بقايا الطعام، غافلًا عن أننا أحضرناه إلى هنا لموته.[1]

في تلك الليلة نمنا في بطن أحد منازل تونغكونان. بدا المنزل ضخمًا من الخارج، لذا فقد تفاجأنا عند صعود السلم الخشبي واكتشفنا أنه عبارة عن غرفة واحدة بلا نوافذ. وضعتُ الفُرُش على الأرض، واستغرقنا في نوم ممتنٍّ. لكن في وقت لاحق من الليل أدركنا أننا أخطأنا بشأن الغرفة الواحدة، فقد فتحتْ المزالج الخشبية الموجودة في الحائط ثلاث غرف أخرى. واكتشفنا أن الناس كانوا يزحفون طوال الليل بهدوء دخولًا وخروجًا من الجدران المحيطة بنا.

بدأ الصباح التالي بصوت حزين لقرع آلة الجونج[2] على طول طريق القرية. هذا هو الإعلان الرسمي لبدء طقس تنظيف الجثث.

(1) حين حسبنا حساباتنا، وجدتني مدينة لبول بمبلغ 666 دولارًا مقابل الخنزير والفندق وخدمات الدليل أهجوس. لقد شطبت من إقراري الضريبي لعام 2015 666 دولارًا لخنزير الأضحية.

(2) آلة موسيقية مكونة من درع معدني كبير – المترجم.

وأول مومياء رأيتها كانت ترتدي نظارة شمسية الطيار من موضة الثمانينيات لها إطارات صفراء.

قلت في نفسي: «عجبًا، يشبه هذا الرجل مدرس الجبر بمدرستي الإعدادية».

نصب أحد الشباب المومياء، فيما أمسك آخر بمقص وشق السترة الزرقاء حتى وصل إلى بنطالها، فكشف عن جذعها وساقيها. بالنظر إلى أن هذا المحترم ميت منذ ثماني سنوات، فحالته جيدة للغاية، إذ لا توجد أي جروح أو كسور واضحة في جسده. لكن بعد نعشين، ظهر زميل لهما لم يحالفه الحظ مثلهما. فقد أصبح جسده منكمشًا تمامًا، ولم يبق من جلده شيء سوى شرائح رقيقة من الجلد الجاف فوق العظام، مثبتة معًا بقطعة قماش مطرزة بالذهب.

وُضِعَتِ المومياء، التي لا ترتدي سوى سروال قصير داخلي ونظارة شمسية، على الأرض وتحت رأسها وسادة. وإلى جانبها وُضعتْ صورة شخصية مؤطَّرة مقاس 8×10، التُقطت خلال حياتها. لم يُشبه هذا الرجل وهو حي مدرس الرياضيات في مدرستي كما يشبهه الآن بعد الموت وثماني سنوات من التحنيط.

سقطت مجموعة من النساء على ركبهن إلى جانبه، صرخن باسمه وضربن وجوههن. وحين انخفض النُّواح، دخل ابن الميت ومعه مجموعة من فُرَش طلاء، كالتي تشتريها من متجر الأدوات المحلي. بدأ الابن في مسح الجثة بضربات قصيرة وحنونة على جلد أبيه اليابس. خرج صرصور من السروال الداخلي القصير، لكن لم تبدُ على الابن أي علامة من علامات الاهتمام وتابع التنظيف. لقد كان هذا حدادًا لم أر مثله من قبل.

قبلها بعشر دقائق، تلقَّى أهجوس مكالمة تبلغه بوجود مومياوات دون غطاء في قبر يصعب الوصول إليه بجوار النهر.

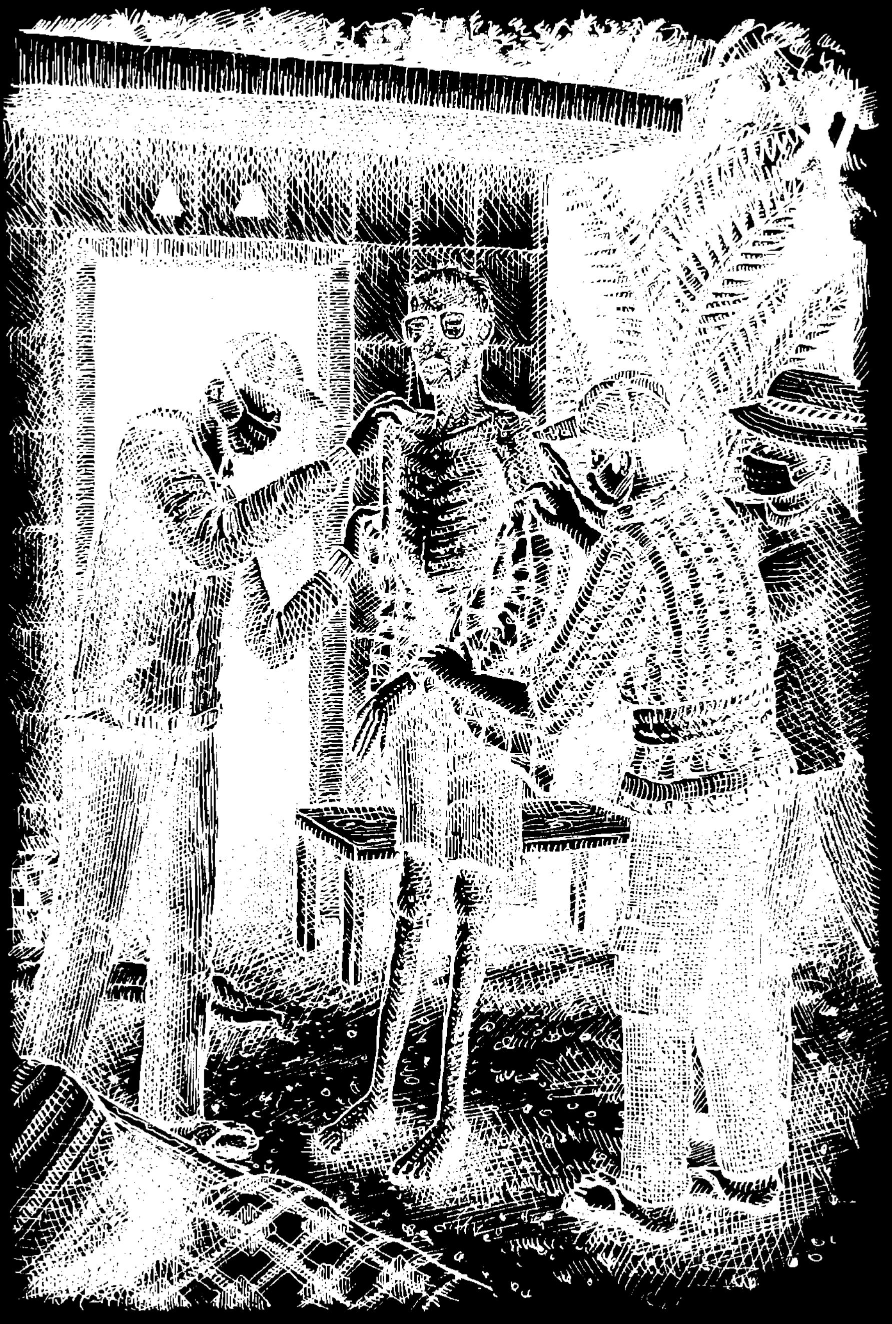

أسرعنا باتجاهه، راكضين في طريق ترابي ضيق بين حقول الأرز. انتهى الطريق عند حفرة تمتلئ بالماء البني. ودون مسار آمن أو جسر، عضضنا على أيدينا حذرًا وحرثنا الطين السميك بأرجلنا. انزلقت قدماي وسقطتُ على مؤخرتي.

حين وصلنا إلى الموقع، وجدنا نحو 40 جثة خارج قبورها مصفوفة على الأرض. كان بعضها ملفوفًا في أكفان ملونة بألوان زاهية، وبعضها كان في توابيت خشبية هزيلة، وبعضها كان ملفوفًا في ورق مقوًّى وبطانيات عليها هالو كيتي، وسبونج بوب، وشخصيات مختلفة من ديزني. انتقلت العائلة من جثة إلى أخرى، وقررت أيها ستُكشف أو أيها ستبقى كما هي. بعض الجثث كان مجهول الهوية، فلم يعد أحد يذكر لمَن هي. وبعض الجثث حصلت على الأولوية القصوى، كزوج محبوب أو ابنة أوحشتهم واشتاقوا إلى رؤيتها مجددًا.

رأيت امرأة تكشف جثة ابنها، الذي فقدته وهو ابن 16 عامًا فقط. في البداية لم يمكنني أن أرى سوى قدمين ملتويتين. ظهرت يدان، وبدتا محفوظتين جيدًا. ورأيت رجالًا على جانبي يتلمسون الجثة بلطف، مختبرين قدرتها على تحمل رفعها دون أن تتفتت. تمكَّنوا من إيقافها على قدميها، ورغم حالة جذعه الجيدة، كان وجهه عبارة عن هيكل عظمي، باستثناء أسنانه وشعره البني الكثيف. لكن لم يبدُ الاهتمام بهذا، بل سُرَّت كثيرًا برؤية ولدها، للحظات قصيرة وبهذه الحالة، وأمسكت بيده ولمست وجهه.

بالقرب منا، رأيت ابنًا يمسح بفرشاة جلد أبيه، الذي تلطَّخ وجهه باللون الزهري بسبب غطائه.

قال لي: «لقد كان رجلًا صالحًا. كان له ثمانية أبناء، ولم يضرب أيًّا منا قط. أنا حزين لكن سعيد لأن بإمكاني العناية به كما اعتنى بي».

تحدَّث أهل توراجان إلى الجثث مباشرة، وأخبروها بالخطوة التالية: «الآن سأخرجك من القبر، وأحضرت لك سجائر، أنا آسف ليس لدي مال يكفي لشراء المزيد»، «ابنتك وعائلتك وصلوا من ماكاسار»، «الآن سأزيل سترتك».

عند القبر المجاور للنهر، شكرنا كبير العائلة على قدومنا وإحضار عدة علب من السجائر. رحَّب بالتقاط بول للصور وبطرحي الأسئلة.

في المقابل، طلب منا: «إذا رأيتما أي غرباء آخرين عن القرية، فلا تخبراهم عن هذا المكان، فهو سري».

فتذكرتُ المرأة الألمانية البائسة في الجنازة، بسيجارتها التي تتدلى من فمها والآيباد الذي تدفعه في وجوه الناس، وخشيت من أني قد أصبحت مثل تلك المرأة. لقد دفعتنا رغبتنا في رؤية شيء انتظرناه لأشهر إلى حيث ينبغي ألا نكون.

❋

عُدنا عبر حقول الأرز وصولًا إلى الطريق الرئيسي لنجد أن الأسرة المستضيفة لنا بدأت أخيرًا في إخراج وكشف موتاها. تعرَّفت إلى رجل في مثل سني يعمل مصمم جرافيك في مدينة رانتيباو. كان قد وصل على دراجة نارية خفيفة في وقت متأخر من الليلة السابقة، وتسلق من الجدار وأنا نائمة. أخرج هيكلًا عظميًا ملفوفًا بقطعة قماش ذهبية وقال: «هذا أخي الذي مات في حادث دراجة نارية في السابعة عشرة من عمره»، ثم أشار إلى الجثة الملفوفة بجواره وقال: «هذا جدي».

أسفل التل الذي نقف عليه، رأيت عائلة أخرى نظَّمت نزهة كاملة بكل مشتملاتها والغطاء القماشي القطني الذي يُجلس عليه، من أجل جدهم الذي توفي قبل سبع سنوات. كان هذا هو ظهوره الثاني في حفل تنظيف الجثث،

وكانت حالته ما تزال جيدة. نظَّفت عائلته وجهه بمكنسة من الأعشاب وقلبوه، وقشروا اللحم الجاف على مؤخرة رأسه. ثم نصبوه إلى جوارهم لالتقاط صورة عائلية، وتجمعت الأسرة حوله، بعضهم بوجه جامد، وبعضهم بوجه مبتسم. كنت أراقب من جنب حين دعتني امرأة للانضمام إلى الصورة. لوحت بيدي وكأنني أقول «لا؛ فكرة رهيبة»، لكنهم أصرُّوا. في مكان ما في أعماق إندونيسيا، توجد لي صورة مع عائلة من توراجا ومومياء نُظِّفَت حديثًا.

لقد سمعت عن حدوث تحنيط في مناخات شديدة الجفاف أو شديدة البرودة، وحدوثه في بيئة إندونيسيا الرطبة الخصيبة فلا يقترب مما تصورته.

إذن كيف يصبح موتى هذه القرية مومياوات؟ الإجابة تختلف بحسب مَن تسأل. يدَّعي البعض أنهم لا يُحنِّطون الجثث إلا بالطريقة القديمة: صب الزيت

في فم الشخص وحلقه، ونشر أوراق الشاي الخاصة ولحاء الأشجار على الجلد. ترتبط الدبغة الموجودة في الشاي واللحاء بالبروتينات الموجودة في الجلد وتعمل على تقليصها، مما يجعلها أكثر صلابة وأقوى أمام هجمات البكتيريا.

وتشبه هذه العملية الطريقة التي يحافظ بها الدبَّاغون على جلد حيوان (ومن هنا جاءت كلمة «دِباغة» الجلود).

أما الاتجاه الجديد في تحنيط الجثث في توراجا فهو مجرد حقن الفورمالين الذي يستخدمه المحنِّطون منذ زمن (محلول الفورمالديهايد وكحول الميثيل والماء) في الجسم. لكن إحدى النساء اللاتي تحدثتُ إليهن رفضت أن يتلقى أفراد أسرتها المزيد من الحقن، لكنها همست بريبة: «أعرف أن أشخاصًا آخرين يفعلون ذلك».

جميع القرويين في هذه المنطقة من توراجا يُعتبرون من هواة تحنيط جسم الإنسان. وفي ظل استخدام أهل توراجا حاليًّا لنفس المُركبات الكيميائية التي يستخدمها الأمريكيون الشماليون لتحنيط موتاهم، تساءلتُ عن سبب فزع الغربيين الشديد من هذه الطقوس. ولعل سبب فزعهم ليس التحنيط الشديد، بل أن الجثث هنا لا تُعزل في تابوت مغلق ولا تُخفى في حصن أسمنتي تحت الأرض، وبدلًا من ذلك تجرؤ على التسكع بين الأحياء.[1]

عندما يواجه الغربيون فكرة إبقاء الأم في المنزل لسبع سنوات بعد وفاتها، يسترجع العديد منهم قصة فيلم Psycho ومدير الفندق المختل فيه. لكن سكان قرية توراجا يحفظون جثث أمهاتهم، فقد احتفظ «نورمان بيتس» بجثة والدته. ويعيش القرويون مع جثثهم لسنوات طويلة، لذا عاش نورمان مع جثة أمه لسنوات كثيرة. ويتحدث القرويون مع جثثهم وكأنها

(1) وهو ما يثير سؤالًا: لماذا تحفظين الجثة بشدة وأنت لا تخططين إلى الاقتراب منها يا أمريكا؟ - المترجم.

حية. وكذا تحدث نورمان مع جسد والدته كما لو كانت على قيد الحياة. ولكن بينما يقضي هؤلاء القرويون نصف نهارهم في تنظيف القبور، معيدين إليها الحياة العادية، سيفوز نورمان بيتس بلقب ثاني أفضل شخصية شريرة على الإطلاق في أفلام الرعب في المعهد الأمريكي للأفلام، حيث يسبقه «هانيبال ليكتر» ويتلوه «دارث فيدر». ولم يفز بتلك الإشادة المشؤومة لقتله نزلاء الفندق الأبرياء وهم يرتدون ملابس والدته. لقد فاز بها لأن الغربيين يجدون التفاعل مع الموتى لفترة طويلة شيئًا مخيفًا للغاية. (آسفة، حرقت أحداث الفيلم تمامًا).

بالأمس التقيت بابن جون هانز تابي. واليوم سألتقي بهانز تابي نفسه. وجدته مستلقيًا في الشمس مرتديًا سروالًا قصيرًا منقوشًا وساعة ذهبية.

كان صدره وتجويفه البطني محقونًا بالفورمالين منذ تُوفي، وهو ما يفسر سبب بقاء جذعه بعد عامين دون أي ضرر، رغم اسوداد وجهه وامتلائه بالثقوب التي تكشف عظام وجهه. وحين اضطرت العائلة إلى تنظيف ما

تحت السروال القصير وتنظيف قضيبه المحنَّط، بدوا غير مرتاحين كما توقعت. لكنهم سخروا من أنفسهم وأنجزوا المهمة.

كان الأطفال الصغار يركضون من مومياء إلى أخرى، ويفحصونها ويجِسونها بأطراف أصابعهم ثم يهرولون بعيدًا. وتسلقت فتاة، تبلغ خمس سنوات تقريبًا، القبر المصمم على شكل منزل لتنضم إليَّ على حافة السطح وتطل معي على الصخب. جلسنا نحن الاثنتان في صمت، يجمعنا الإحراج فكأننا أقارب، مفضلتين المشاهدة من فوق.

لاحظ أهجوس مكاني وهتف: «انظري! هذا يدفعني إلى التفكير في أنني سأصبح هكذا. سأكون هنا مكانهم، أليس كذلك؟».

عدنا إلى المنزل الذي كنا نقيم فيه، وجلسنا نأكل أطباق الأرز أمام صبي يبلغ أربع سنوات ظل يراقبنا. رفع رأسه من خلف السور وصرخ بسرور حين عبثت معه بملامح وجهي. أمرتْه والدته بأن يتركنا وشأننا، فالتقط فرشاة الرسم. تحرك في الفناء وجلس القرفصاء بجوار ورقة الخيزران الجافة على الأرض. ثم بدأ في تنظيفها، وهو مستغرق بالكامل، وكنس جميع الشقوق. فلو حافظ المجتمع على طقس تنظيف الجثث، فالغالب أنه سيفعل ذلك بجثة، ولعلها ستكون جثة شخص قابلناه اليوم في القرية.

في الصباح التالي، أُلبِس جون هانز تابي ملابس جديدة، وسترة سوداء بأزرار ذهبية وسروال كحلي. اليوم سينتقل إلى قبر جديد قريب، مطلي بالأزرق الفاتح ويعلوه صليب أبيض. كانت زخرفة القبر مزيجًا ثقافيًّا: رموز الجاموس التقليدية، وكذلك القلب المقدس للسيدة العذراء، وصور يسوع وهو يصلي، وصورة كاملة للعشاء الأخير.

نصبت العائلة جون هانز ووقفوا إلى جواره لالتقاط صورة أخيرة بزيه الجديد قبل إعادته إلى نعشه. ثم وضعوا حذاءه الأسود اللامع بجانب قدميه، وسحبوا البطانيات عليه وأحكموا لفَّها. بعد إغلاق الغطاء، انتقلوا إلى تلميع الجوانب وحملوا التابوت على أكتافهم على الطريق وهم يقرعون الطبول ويهتفون في أثناء تشييعه. وبهذا خُتمت الإثارة التي عاشها جون هانس إلى أن يُخرج ثانيةً بعد ثلاث سنوات.

وبينما كنت أضع أمتعتي في السيارة، أشار أهجوس إلى منزل على بُعد 10 أقدام من المنزل الذي بتنا فيه وقال: «هل تعلمين أن ثمة جثة في ذلك المنزل؟».

انتظر أهل الميت ليروا ردود فعلنا قبل أن يخبرونا عن «ساندا» التي توفيت قبل أسبوعين وهي تبلغ سبعين عامًا.

سألني: «هل تريدين رؤيتها؟».

أومأت برأسي ببطء، وبشكل ما بدا من المنطقي أننا كنا نغفو بالقرب من جثة طوال فترة إقامتنا.

همست وأنا أنظر أعلى السلم المؤدي إلى غرفة نومنا: «يا بول! أعتقد أنك ستحب النزول إلى هنا».

وبناءً على تعليمات أهجوس، أحضرنا ما تبقى من طعامنا لنقدمه إلى ساندا، التي ستعلم أننا أحضرناه. ثم تسلقنا إلى الغرفة الخلفية، حيث كانت ساندا تنام على فراش من الخيزران المجفف. كانت

تحت بطانية خضراء منقوشة، وترتدي قميصًا برتقاليًّا ووشاحًا ورديًّا. كانت محفظتها بجانبها وبجانب الطعام.

كان وجهها ملفوفًا بقطعة قماش واكتسب الملمس المطاطي الذي رأيته كثيرًا على الأجساد المُحنطة.

حُفظت ساندا باستخدام فورمالين حقنه بها متخصص محلي. ولم تتمكن الأسرة من حقنه بنفسها لأن المُركب الكيميائي كان «شديد الحرارة» على أعينهم.

ولأنهم مزارعو أرز ناجحون، لم يملكوا الوقت الكافي للعناية بجسدها كل يوم كما تُملي الطرق القديمة.

لكنها ستعيش مع عائلتها إلى أن تذهب إلى قبرها. وسيجلبون لها الطعام والشاي والقرابين. وهي تزورهم في أحلامهم. لقد مر أسبوعان فقط منذ أن عبرت الحدود الناعمة للموت. وبعد أن تتلاشى الرائحة، تنوي العائلة أن تنام معها في الغرفة.

هزَّ أهجوس كتفيه، وهو الذي نام إلى جانب جده المتوفى لسبع سنوات في طفولته، وقال: «بالنسبة إلينا، لقد اعتدنا هذا. هذا هو الموت والحياة».

قبل وصولي إلى إندونيسيا، عانيت للعثور على أوصاف للطقوس التي سأراها في هذه المنطقة من تانا توراجا. ووجدت الروايات الحديثة، على الأقل المكتوبة باللغة الإنجليزية، نادرة. (حين تبحث على جوجل عن «تنظيف الجثث» سيُوجهك إلى «نيني ليبكس»، ربة المنزل الحقيقية في أتلانتا).

وكانت الصور نادرة أيضًا، وأفضل الصور التي وجدتها كانت منشورة في صحيفة ديلي ميل البريطانية. لا أعرف من أين حصلوا على الصور، فبالتأكيد لم يبعثوا مراسلًا إلى هناك. أما قسم التعليقات على الإنترنت فقد بهرني.

قال أحد المعلقين: «يا إلهي، أين ذهبت (ارقد بسلام)؟»، وأضاف آخر: «جديًّا، هذا أمر مهين للغاية».

وبالفعل، لو نبش المُعلق جثة عمته من المقبرة المحلية في مينيسوتا وأخذها بالسيارة عبر إحدى الضواحي في عربة جولف، فنعم هذا مهين. فلم يترَبَ المعلق على أن العلاقات الأسرية تستمر بعد موت الجسد. وعلى العكس، فبالنسبة إلى أهل توراجا، لا يُعد إخراج شخص ما من قبره بعد سنوات من وفاته احترامًا له فحسب (وأكثر شيء محترم يمكنهم تقديمه إليه، في الحقيقة) بل يعدونها أيضًا طريقة ذات مغزى للحفاظ على تواصلهم مع موتاهم.

بحكم كوني حانوتية، أجد دائمًا مَن يطرح أسئلة عن جثة والدته. ولن تتخيلوا كم أسمع: «ماتت والدتي قبل 11 عامًا في شمال ولاية نيويورك، وحنطناها ودفناها في مقبرة العائلة، هل يمكنك وصف مظهرها الآن؟» تعتمد الإجابة على العديد من العوامل: الطقس والتربة والنعش والمواد الكيميائية المستخدمة، ولا يمكنني أبدًا الإجابة بوصف جيد. ولكن فيما شاهدت عائلات توراجا تتفاعل مع أمهاتهم المحنَّطات، أدركت أنهم لا يحتاجون إلى سؤال الحانوتي عن حالة جسد أمهاتهم. إنهم يعرفون جيدًا كيف حالها، حتى بعد 11 عامًا من وفاتها. ولعل رؤية الأم مرة أخرى، حتى في هذه الحالة الجديدة، أقل رُعبًا مما يصوره الخيال البشري.

المكسيك

انقضَّ هيكل عظمي، يعتمر قبعة سوداء ويدخن سيجارًا، على «أفينيدا خواريز»، فيما تلوِّح ذراعاه العظميتان الطويلتان بغضب. يبلغ ارتفاع الهيكل 15 قدمًا، وأطلَّ من عَلٍ على الحشود الكثيفة. وتبعه رجال ونساء يتمايلون ويتراقصون في زيٍّ «كالافيرا كاترينا»، الهيكل العظمي الأيقوني الأنيق. أطلق مدفع سحابة من الجليتر اللامع في أثناء دوران كتيبة من محاربي الأزتك حوله بأحذية التزلج. انطلق الحشد البالغ عشرات الآلاف في الهتاف والإنشاد.

إذا كنت قد شاهدت فيلم «جيمس بوند» الصادر في عام 2016، فتذكر مشهد الزهور والهياكل العظمية والشياطين والعوامات خلال موكب أيام الموتى[1] السنوي الذي يُقام في مكسيكو سيتي. في المشهد الافتتاحي للفيلم، يتحرك بوند بانسيابية بين الزحام مرتديًا قناعًا على شكل جمجمة وبذلة ويدخل فندقًا مع امرأة مقنَّعة.

لكن إليك الخدعة: لم يُلهِم موكب أيام الموتى فيلم جيمس بوند، بل الفيلم هو ما ألهم الموكب. فقد خشيت الحكومة المكسيكية أن يتوقع العالم بعد مشاهدة الفيلم أن الموكب حقيقي وهو ليس كذلك، فاستعانت بـ 1.200 متطوع وأنفقت سنة في إعادة خلق العرض الذي يمتد لأربع ساعات. رأى

(1) Días de los Muertos

البعض أن العرض مجرد استغلال تجاري فاحش للمهرجان العائلي الخاص للغاية دياس دي لوس ميرتوس: يومان في بداية نوفمبر يُعتقَد أن الموتى يعودون خلالهما للانغماس في ملذات الأحياء. ورأى آخرون أن هذا هو التطوُّر الطبيعي للمهرجان بأن يصبح عطلة قومية بعيدة عن المعتقدات الدينية، حيث يحتفل الناس بجرأة بتاريخ المكسيك أمام الجمهور العالمي. وعندما انتهى العرض، مشينا على الأرض البرَّاقة التي خلَّفتها المدافع. كانت رفيقتي «سارة شافيز»، مديرة منظمتي غير الربحية The Order of the Good Death. أشارت إلى زينة مهرجان أيام الموتى المُعلقة حولنا، على المنازل والشركات: جماجم لامعة من الورق المقصوص.

تذكرتْ شيئًا مهمًّا وقالت: «ويحي! نسيت أن أخبرك أن ستارباكس المجاور لفندقنا يبيع بان دي مويرتو!».

بان دي مويرتو أو خبز الموتى عبارة عن لفافة مخبوزة ويبرز منها جزء على شكل عظام إنسان وعليها سكر.

في اليوم التالي سافرنا غربًا إلى ميتشوكان، وهي منطقة ريفية تحتفل العائلات فيها منذ فترة طويلة بأيام الموتى. فهنا، في مكسيكو سيتي، انهارت شعبية هذا المهرجان في أوائل القرن العشرين. وبحلول الخمسينيات، اعتبر المكسيكيون في المدن أن الاحتفال بأيام الموتى فلكلور عفا عليه الزمن، يمارسه الناس في ضواحي المجتمع المتحضر.

وفي انقلاب مثير للأحداث، كان أحد الدوافع الرئيسية لتغيير هذا التصوُّر هو زحف الهالوين من الولايات المتحدة إلى الجنوب. ففي أوائل السبعينيات، اعتبر الكُتَّاب والمفكِّرون عيد الهالوين، على حد تعبير الصحفية «ماريا لويزا ميندوزا»، «عيدًا أمريكيًّا بسبب الساحرات اللاتي يركبن المكانس ويعتمرن القبعات المدببة والقطط والقرع المجوَّف، وهي أشياء نستمتع بالقراءة عنها

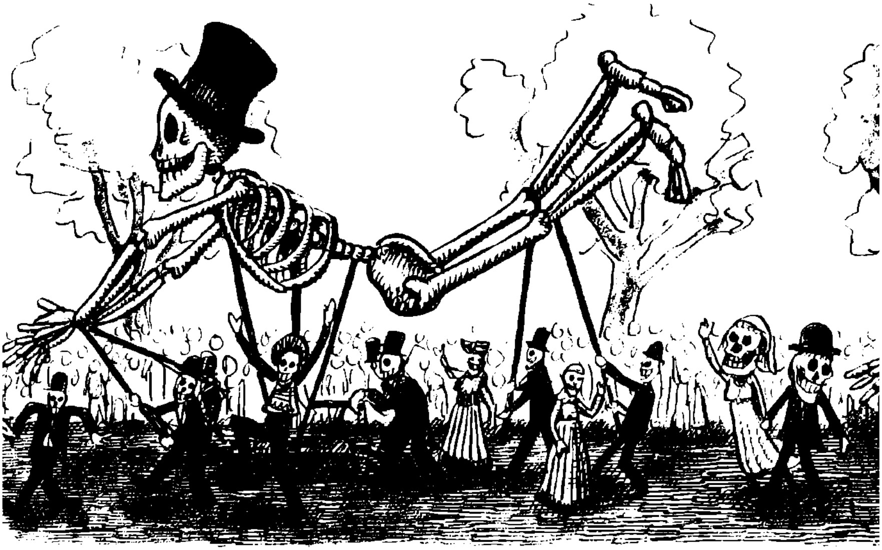

في قصص الجرائم، ولكنها لا تمت لنا بأي صلة». روت «ميندوزا» أن رفاقها المكسيكيين كانوا يتجاهلون الأطفال الذين توسلوا إليهم ليمنحوهم قروشًا قليلة مقابل تنظيف الزجاج الأمامي للسيارات لينجوا من الجوع، بينما في الأحياء الغنية «تحاكي برجوازيتنا سكان تكساس وتسمح للأطفال بالدخول إلى منازل الآخرين وهم يرتدون ملابس سخيفة ويطلبون العطايا التي سيحصلون عليها».

خلال هذه الفترة، أصبحت أيام الموتى، بحسب الباحث «كلاوديو لومنيتز»: «رمزًا للهوية الوطنية» التي وقفت «في وجه الاحتفال الأمريكي بالهالوين». وأولئك الذين رفضوا أيام الموتى في السابق (أو الذين عاشوا في مناطق لم تحتفل به على الإطلاق) أقبلوا على رؤية الاحتفال لأنه مكسيكي للغاية. لم يقتصر الأمر على عودة المهرجان إلى المدن الكبرى وحسب، بل عبَّر المهرجان عن نضال العديد من الجماعات السياسية المهمَّشة. فقد تبنت هذه المجموعات أيام الموتى لإحياء ذكرى من محرومين من اهتمام وعناية الجمهور، بما فيهم السكان الأصليون، والمكسيكيون الذين ماتوا وهم يحاولون عبور الحدود إلى الولايات المتحدة. على مدى الأربعين عامًا الماضية، أصبح مهرجان أيام الموتى رمزًا للثقافة الشعبية، وثقافة السياحة، وثقافة الاحتجاج في جميع أنحاء المكسيك. كما أصبحت المكسيك نفسها رائدة العالم في ممارسة الحزن العام العميق.

❋

أوضحت سارة، بينما كنا نجلس في غرفتنا بالفندق بولاية ميتشواكان في اليوم التالي: «لقد نشأتُ مع كبار السن الذين يكرهون كونهم مكسيكيين. لقد تعلموا أنهم لا يملكون سببًا للفخر بأنفسهم ولديهم كل سبب للخجل من

ذاتهم، وعليهم أن يتشبهوا بغيرهم. ولتكون سعيدًا في أمريكا عليك أن تكون أبيض قدر الإمكان».

انتقل أجداد سارة من مونتيري بالمكسيك في أوائل القرن العشرين واستقروا في حي شرق لوس أنجلوس يُعرف بشافيز رافين. وفي عام 1950، أرسلت الحكومة رسائل إلى 1800 عائلة من ساكني شافيز رافين، ومعظمهم من المزارعين الأمريكيين المكسيكيين ذوي الدخل المنخفض، لإبلاغهم أن عليهم بيع منازلهم للإفساح لبناء مساكن حكومية. ووُعد النازحون بمدارس وملاعب جديدة وأولوية السكن عند الانتهاء من أعمال البناء. لكن بدلًا من ذلك، بعد إبعاد العائلات وتدمير المجتمع، ألغت مدينة لوس أنجلوس خطة الإسكان العام ودخلت في شراكة مع رجل أعمال من نيويورك لبناء ملعب دودجر. ووصف أنصار الملعب الجديد، بمن فيهم رونالد ريغان، منتقدي المشروع بـ «كارهي البيسبول».

وأُبعد الأمريكيون المكسيكيون من شافيز رافين أكثر تجاه الشرق من لوس أنجلوس بسبب ممارسات التمييزية في الإسكان. نشأ والدا سارة في بيئة النزوح هذه. وأنجبا سارة حين كانا في التاسعة عشرة.

قالت سارة: «حتى يومنا هذا، عندما تتحدث جدتي وخالاتي وأعمامي عن تشافيز رافين، تنفطر قلوبهم. إنهم يفتقدونها بشدة».

منذ وُلدت سارة، مُنعت من تعلُّم اللغة الإسبانية. كان لون جلدها فاتحًا، مما جعلها الحفيدة المفضَّلة. كانت هويتها المكسيكية مقصورة في المنزل. وخلال نشأتها في لوس أنجلوس، ترعرعت بين أم باردة وأب يعمل مصمم أزياء في هوليوود (ويُعرف نفسه حتى يومنا هذا لا بأنه مكسيكي، بل «هندي أمريكي»)، وبين جدَّيها. أصبحت سارة تشعر أنها أمريكية صادف أنها مكسيكية، لكنها شعرت بعلاقة ملموسة ضعيفة مع ثقافة عائلتها.

في عام 2013، بعد عشر سنوات من عملها في التدريس في رياض الأطفال، وقعت سارة في حب شريكها روبن[1]، وشعر الزوجان أنهما مستعدان للإنجاب. وحملت. بالنسبة إلى سارة، مثَّل هذا الطفل فرصة «لتكوين أسرة حقيقية: وأسرتي التي اخترتها بنفسي، شيء لا يمكن لأحد أن يسلبه مني».

لكن لم يُكتب لهذا الحلم عمر. توفي جنينها في شهرها السادس. وكانت الأشهر التي أعقبت ذلك فترة «لا مكان فيها لأحد ولا لشيء». كانت سارة بعيدة نفسيًّا عن والديها. شعرت بالوحدة. ومرت عليها أيام تمنت لو دخلت بين أشجار البرتقال الموجودة خلف منزلها واختفت إلى الأبد. ثم هناك لوم الذات: هل حملت شيئًا ثقيلًا بطريقة خاطئة؟ هل أكلت شيئًا ضارًّا؟

تقول سارة: «المرأة النموذجية هي منبع الحياة، أما جسدي فكان قبرًا».

شعرت سارة بانقباض جميع أصدقائها وزملائها في العمل عنها. كانت تعرف أن الناس يريدون العيش في عالم يُعد فيه الأطفال ثمينين وبعيدين عن الخطر.

قالت: «طلب مني المجتمع إخفاء حزني، فلم يرغبوا في مواجهة مثل هذه الفظائع. وذكَّرهم وجهي بها. كنت البعبع».

بحثت سارة في الإنترنت عن قصص من أمهات أخريات مررن بألم موت طفل. ووجدت مواقع إلكترونية من صنع نساء حسنات النية، ويغلب عليها النبرة المسيحية (مثلًا: «لقد أخذ ملاكي مكانه بين ذراعي الرب») وقصصًا تقدم عبارات مبتذلة وملطَّفة. لكن بالنسبة إلى سارة، لم تمثل هذه العبارات المُسكِّنة سوى كلام مبتذل فارغ. لم تستطع القصص التعبير عن الألم الشديد والشوق الذي ألمَّ بها.

وبحثًا عن الراحة، طرقت أبواب تُراثها.

---

(1) غُيِّر اسمه.

حدَّثت نفسها: «يا سارة، أنت مكسيكية. تنحدرين من إحدى أشد الثقافات ارتباطًا بالموت. كيف تعامل أسلافك مع هذه المأساة؟».

يقول الشاعر المكسيكي «أوكتافيو باز» الشهير إن أهل المدن الغربية، كنيويورك وباريس ولندن، «يحرقون شفاههم» لو تلفظتْ بكلمة «الموت»، أما «المكسيكيون فيرددونها ويسخرون منها، وينامون معها ويتسلون بها؛ إنها إحدى ألعابهم المفضلة وشغفهم الدائم»، هذا لا يعني أن المكسيكيين لم يخشوا الموت إطلاقًا، فعلاقتهم الجيدة بالموت كانت جائزة صعبة المنال، فازوا بها بعد قرون من الوحشية.

يوضِّح «كلوديو لومنيتز» ذلك قائلًا: «بدلًا من أن تصبح إمبراطورية متكبرة وقوية، تعرضت المكسيك للتخويف والغزو والاحتلال والتشويه والابتزاز من القوى الأجنبية والمستثمرين المستقلين على حد سواء».

في القرن العشرين، حين وصل العالم الغربي إلى ذروته في القمع وإنكار الموت، أصبح في المكسيك «إلْف الموت هو حجر الزاوية للهوية الوطنية».

بالنسبة إلى سارة، لم يكن التصالح مع وفاة ابنها محاولة لمحو خوفها من الموت؛ كانت تعلم أن هذه المهمة مستحيلة. وإنما أرادت التعامل مع الموت، واكتساب القدرة على ذكر اسمه. أو كما قال باز: «ترديده والسخرية منه، والتسلي به».

وجد العديد من أبناء وأحفاد المهاجرين أنفسهم، مثل سارة، منفصلين عن الطقوس الثقافية التي تربت عليها عائلتها. يشتهر نظام الجنائز في

الولايات المتحدة بتمرير قوانين وأنظمة تتدخَّل في طقوس الموت المتنوعة وتفرض التماهي مع المعايير الأمريكية.

في مثال بارز مُحزن، يرغب العديد من المسلمين لو تمكَّنوا من فتح دور جنائزية في الولايات المتحدة لخدمة مجتمعاتهم والعمل في إدارة الجنائز بترخيص من الحكومة، إذ تقضي الطقوس الإسلامية بغسل وتنقية الجسد فور الموت قبل دفنه بأسرع ما يمكن، ويفضَّل قبل حلول الليل. ويرفض المجتمع المسلم التحنيط، ويفزع من فكرة جرح الجسد وحقنه بالمواد الكيماوية والمواد الحافظة. إلا أن الكثير من الولايات شرعت إجراءات متشددة تفرض على دور الجنائز تقديم خدمات التحنيط، وأن يتدرب جميع مديري الجنائز على التحنيط، رغم أن عملية التحنيط نفسها غير إلزامية أبدًا. وبهذا، يجب على مديري الجنائز المسلمين التنازل عن معتقداتهم إن أرادوا أن تتاح لهم فرصة لمساعدة مجتمعهم في حالات الموت.

كانت أول وأقوى بوابة على الثقافة المكسيكية أمام سارة هي أعمال الرسامة «فريدا كاهلو»، بطلة المكسيك، وبطلة الألم. في رسمتها عام 1932، لوحة صورة ذاتية على الحدود بين المكسيك والولايات المتحدة، تقف فريدا الجريئة على حدود خيالية بين المكسيك وديترويت، حيث كانت تعيش في ذلك الوقت مع زوجها، رسَّام الجداريات «دييغو ريفيرا». على الجانب المكسيكي تنتشر الجماجم ومخلفات الهدم والنباتات والأزهار ذات الجذور السميكة التي تخترق الأرض بعمق. وعلى جانب ديترويت ثمة مصانع وناطحات سحاب وأعمدة دخان: مدينة صناعية تُخفي الدورة الطبيعية للحياة والموت.

حَبلت فريدا في أثناء إقامتها في ديترويت، وكتبت عن الحمل لطبيبها السابق، «ليو إليوسر»، صديق المراسلة المخلص، بين عام 1932 وعام 1951. فكتبت عن قلقها من أن الحمل شديد الخطورة، ومن تضرُّر جسدها

من حادث الترام الشهير الذي حطم جزءًا من حوضها وثقب رحمها. ذكرت كاهلو أن طبيبها في ديترويت «أعطاني الكينين وزيت الخروع القوي جدًّا لتطهير الرحم»، وعندما فشلت المواد الكيميائية في إجهاض الحمل، رفض طبيبها التدخُّل الجراحي، وواجهت كاهلو عواقب الاحتفاظ بالحمل الخطر حتى نهايته. توسَّلت إلى إليوسر لكي يراسل طبيبها في ديترويت، «فلعله خائف من مخالفة القانون أو شيء من هذ القبيل بما أن إجراء الإجهاض مخالف للقانون، وسيكون من المستحيل الخضوع لعملية في وقت لاحق».

لا نعرف ما رد إليوسر على طلب كاهلو، لكنها عانت بعد شهرين إسقاطًا عنيفًا.

في لوحة رسمَتها بعد هذه التجربة، «مستشفى هنري فورد»، ترقد فريدا عارية على سرير المستشفى، وتحتها الملاءات غارقة في الدماء. وفي الفراغ المحيط بها تطفو أشياء متعلقة ببطنها بالحبال السُّرية الحمراء: جنين ذكر (ابنها)، وأدوات طبية، ورموز مثل: الحلزون وزهرة الأوركيد. يعكر الخلفية واجهة ديترويت الصاخبة الصناعية. وبغض النظر عن بغض كاهلو الشديد لديترويت والمِحن الفظيعة التي مرت بها هناك، يدَّعي «فيكتور زاموديو تايلور»، المؤرخ الفني، أنها، ولأول مرة، قررت بوعي وقصد أنها سترسم عن نفسها، وأنها سترسم عن معظم جوانبها الخاصة والمؤلمة.

بالنسبة إلى سارة، التي تبحر وسط بحر من العِبارات التافهات، كانت صراحة فن ورسائل كاهلو بلسم. فقد رأت في كاهلو امرأة مكسيكية أخرى أُجبرت على التعامل مع خيارات مستحيلة لطفلها وجسدها. وقد تمكنت كاهلو من إظهار الألم والحيرة من خلال أعمالها، حيث رسمت جسدها وحزنها دون خجل.

توفي ابن سارة في يوليو 2013. وفي نوفمبر من نفس العام، زارت هي و«روبن»، زوجها المنحدر من أصول مكسيكية أيضًا، المكسيك خلال أيام الموتى.

تقول: «لم نأتِ لزيارة الموت. لم نأتِ سيَّاحًا. لقد كنا نعيش مع الموت كل يوم».

وبين نُصب تخليد الموتى والصور العلنية للجماجم والهياكل العظمية، وجدت سارة من المواجهة والسلام ما لم تجده في كاليفورنيا.

قالت: «بالوجود في المكسيك، شعرتُ أن المكان مرصوف بالحِداد. شعرت أنني مفهومة. شعرت أنني لا أضايق الآخرين. أستطيع التنفُّس».

ومن بين الأماكن التي زاروها مدينة جواناخواتو، موطن مجموعة شهيرة من المومياوات. في أواخر القرن التاسع عشر، كانت الجثث تُدفن في المقبرة المحلية، حيث تُسدَّد الرسوم والضرائب الكبيرة مقابل الدفن «الدائم». وإذا عجزت الأسرة عن دفع الرسوم، تُزال العظام ولو بعد حين لإفساح المجال لجسد جديد. خلال إحدى عمليات النبش، صُدمت المدينة لاكتشاف أنها تحفر لا لإخراج عظام، بل «لحم محنط بأشكال وتعبيرات وجه غريبة». كانت المكونات الكيميائية للتربة، إلى جانب الغلاف الجوي في جواناخواتو، عوامل تحنيط طبيعية للجثث.

استمرت المدينة في استخراج الجثث المحنطة

على مدى ستة عقود، وحرقِ المومياوات غير المدهشة، وعرضتْ المومياوات المعبرة حقًّا في متحف المدينة: متحف المومياوات.

زار المؤلف «راي برادبري» هذه المومياوات في أواخر السبعينيات وكتب قصة عنها، قائلًا: «إن التجربة جرحتني وأرعبتني، ولم أستطع الصبر على مغادرة المكسيك. راودتني كوابيس عن الموت واضطررت إلى البقاء في أروقة الموتى مع تلك الجثث المثبَّتة بالأسلاك والأزياء».

ولأن المومياوات لم تُحنَّط عن قصد على أيدي الأحياء، وإنما تحنَّطت بسبب طبيعة البيئة، تملك العديد من المومياوات أفواهًا فاغرة وأذرعًا وأعناقًا ملتوية. فبعد الموت، يعود الجسم إلى «الارتخاء الأولي»، حيث تسترخي جميع العضلات في الجسم، وتسمح للفك أن ينفتح، ويرتخي الشد في الجفون، وتكتسب المفاصل مرونة قصوى.

في الموت، لا تتماسك الجثث وأطرافها، فلم تعد مضطرة إلى اللعب وفقًا لقواعد الأحياء. ولم يكن المنظر المفزع لمومياوات جواناخواتو مصممًا عن عمد لـ «ترويع» السيد برادبري، وإنما نتيجة العمليات الحيوية الطبيعية للجثث بعد الوفاة.

لكن المومياوات، التي لا تزال معروضة، لم تؤثِّر على سارة بنفس الشكل حين واجهتها. فقد دخلت

زاوية مظلمة وتوقفت أمام جثة طفلة صغيرة مُحنطة، ترتدي ثيابًا بيضاء وترقد على قماش مخملي.

قالت: «لقد بدت ملاكًا بهالة من الضوء تحيط بها، وأقسم إنني شعرت في تلك اللحظة أن بإمكاني الوقوف إلى الأبد أنظر إليها وحسب».

لاحظت امرأة أخرى دموع سارة الصامتة وذهبت لإعطائها منديلًا وأمسكت ذراعها دون كلام.

كان لمومياوات الأطفال الأخرى المعروضة في المتحف مستلزمات أخرى، مثل الصولجانات والتيجان. هؤلاء هم الملائكة الصغار. فقبل منتصف القرن العشرين في المكسيك وأماكن أخرى من أمريكا اللاتينية، اعتبر الناس من مات من الرُضَّع أو الأطفال كائنات روحانية، أشباه قديسين، وأنه تواصل مباشر مع الرب. ويستطيع هؤلاء الملائكة الصغار، مَن لم يرتكبوا خطيئة واحدة، أن يقدموا خدمات لمَن وراؤهم من أسرهم الأحياء. تتولى العرَّابة إعداد الجسد، وتغسله وتُلبسه زي قديسين بمقاس مناسب، وتحيطه بالشموع والزهور. لن ترى الأم الجثة إلا بعد هذه العملية، حين يتخلَّص الجسد من أعباء الحزن، ويتحول إلى كائن سماوي مستعد إلى أن يتبوأ مكانه على يمين الرب.

يُدعى الأصدقاء والعائلة إلى مثل هذه الحفلة، ليس لتكريم الطفل وحسب، ولكن أيضًا لإثارة إعجابه والتبرُّك به، فهو الآن صاحب قوة روحية عظيمة. في بعض الأحيان، نُقل الطفل إلى عدة حفلات أخرى، حيث يحمل الأطفال الآخرون نعشه، ويمشي في موكبه أسرته ووالداه. وغالبًا ما تُؤخذ صورة أو تُرسم رسمة للملاك الصغير وتوضع وسط إطار رائع.

بالنسبة إلى سارة، رغم أنها لا تؤمن بالقديسين أو الحياة الآخرة، فقد لمسها التقدير لحالات وفاة الأطفال.

تقول: «تعامل الناس مع هؤلاء الأطفال على أنهم مميزون للغاية. لقد بنوا شيئًا لهم وحدهم».

لقد أُقيمت الحفلات والألعاب ورُسمت اللوحات، والأهم من ذلك كله، وُجدت مهام يجب إتمامها من أجل الطفل، مهام أكبر من فترات الصمت المنعزل الطويل.

***

وفي كل عام، تحديدًا في مساء يوم 1 نوفمبر، يُثقب الحد الفاصل بين الأحياء والأموات ويضعف، سامحًا للأرواح بالعبور. وفي شوارع سانتا في دي لا لاجونا المرصوفة بالأحجار، وهي مدينة صغيرة بولاية ميتشواكان، تطوف النساء المسنات على منازل جيرانهن الذين فقدوا أحدًا في العام السابق، ويقدِّمن لهم أطباق خبز الموتى والفاكهة الطازجة.

أملت رأسي وأنا أعبر مدخلًا محفوفًا بأزهار القطيفة الذهبية. فوق هذا الباب مباشرة، عُلقت صورة بإطار لــ «خورخي»، الذي لم يتخط حين مات 16 عامًا فقط. ظهر في الصورة يعتمر قبعة بيسبول إلى الخلف. وخلفه

ملصقات لعدة فرق موسيقية. قلت في نفسي: «(سليبنوت)[1]! ما هذا يا خورخي؟!» وتساءلت هل الحكم على الموتى بناءً على ذوقهم الموسيقي أمر سيئ؟ «أوه، (ميسفيتس)[2]! هذا اختيار جيد».

قابلت في المدخل نُصُب خورخي المكوَّن من ثلاث درجات، أو الأوفريندا كما يسمونها. وكل عنصر أحضرته عائلته وأصدقاؤه إلى النُّصُب كان لجذبه إلى المنزل في تلك الليلة. فمنذ وفاة خورخي في ذلك العام، أقامت عائلته نُصبًا له في منزل العائلة. وعلى مدى السنوات القادمة سينقلون القرابين إلى قبر خورخي. وسيستمر في العودة ما استمرت عائلته في زيارة القبر، ودعوته للعودة بين الأحياء.

عند قاعدة مذبحه وجدت كأسًا سوداء للبخور الخشبي، ورائحته النفاذة تتطاير في الهواء. وأحاطت الشموع وزهور القطيفة بكومة من الفواكه والخبز بارتفاع ثلاثة أقدام تُزينها. لن تتوقف الكومة عن النمو طوال الليل وقدوم المزيد من أعضاء المجتمع لتقديم القرابين. حين يعود خورخي، لن يكون جثة متجددة، بل روحًا، تأكل الموز والخبز وهي تطفو في الهواء.

وقد وضعوا في وسط النُّصب قميصه الأبيض المفضل، المرسوم عليه وجه مهرج حزين وكلمة «جوكر» بخط يدوي. وانتظرت عودته زجاجة بيبسي (أفهم جاذبيتها، قد يبدو هذا مقززًا، لكني مستعدة للعودة من الموت لتناول دايت كولا). إلى جانب هذا كله، هناك صور مسيحية تقليدية، والعديد من صور مريم العذراء ويسوع المصلوب المغطى بالكثير من الدماء. كما تدلت من السقف قطع ورقية ملونة على شكل هياكل عظمية على درَّاجات.

تجمع 12 فردًا تقريبًا من عائلة خورخي حول نُصبه، متأهبين لاستقبال الزوَّار حتى وقت متأخر من الليل. وحولهم يركض الأطفال الصغار في

---

(1) فرقة Slipknot الأمريكية، تعزف موسيقى الهيفي ميتال – المترجم.

(2) فرقة Misfits الأمريكية، تعزف موسيقى الروك – المترجم.

فساتين الأميرات اللامعة، وعلى وجوههم رسومات على شكل كاترينا الهيكل العظمي الأنيق. كانوا يحملون يقطينًا صغيرًا لجمع الحلوى من البالغين.

ولم يفت ذلك على سارة، فجهَّزت كيسًا مليئًا بالحلوى. انتشر الخبر بين الأطفال، فحاصرتها وجوه الهياكل العظمية الأنيقة واليقطين، الذي احتوى الكثير منه على شموع مُشتعلة. «آنسة! آنسة! شكرًا لك!». جثت سارة وهي توزع الحلوى بهدوء وحب معلمة المدرسة الابتدائية، وهو عملها السابق.

قالت بابتسامة ساخرة: «لقد كنا نصنع نفس هذا اليقطين ذي الشموع ليوم الموتى في فصلي الدراسي كل عام، لكن بمجرد أن يقع حريق صغير واحد تُجبرك الإدارة على التوقُّف».

تُعد سانتا في دي لا لاجونا موطن بوريبيتشا، وهو شعب أصلي معروف بالعمارة الهرمية الفريدة وفسيفساء الريش المصنوع من ريش طيور الطنانة الثمينة. في عام 1525، مع انخفاض عدد السكان بسبب الجدري، وإدراكهم أن شعب الأزتيك القوي سقطوا بالفعل في أيدي الإسبان، تعهد زعيمهم بالولاء لإسبانيا. واليوم، تدرِّس المدارس في المنطقة بلغتين: البوريبيتشا والإسبانية.

والعديد من العناصر التي ترحب بالموتى اليوم، من الموسيقى، والبخور، والزهور، والطعام، كانت مستخدمة بالفعل بين السكان الأصليين قبل الغزو الإسباني في القرن السادس عشر. في وقت الغزو، كتب راهب دومينيكاني أن السكان الأصليين تبنوا الأعياد الكاثوليكية لجميع القديسين وجميع الأرواح بسعادة لأنها قدمت الواجهات المثالية لمهرجاناتهم القائمة لتكريم الموتى.

وقد بُذلت محاولات على مدى القرون التالية للقضاء على الممارسات، التي كانت «قبل كل شيء، مرعبة للنخبة اللامعة، التي سعت إلى طرد الموت من الحياة الاجتماعية». في عام 1766، منع المكتب الملكي للجريمة السكان الأصليين من التجمُّع في مقابر عائلاتهم، وقطع بقسوة ما بينهم وبين موتاهم. لكن العادات وجدت طريقها للاستمرار، كما هو الحال في كثير من الأحيان.

لقد رأيت على منزل واحد في سانتا في دي لا لاجونا، لافتة كُتب عليها بالبورييتشا، «مرحبًا بك في بيتك أيها الأب (كورنيليو)». وقد شغل نُصب «كورنيليو» غرفة كاملة. تقدمتُ ووضعتُ موزتي وبرتقالتي فوق كومة القرابين المتنامية، بينما انقضت الأمهات الحاكمات لتقديم أوعية كبيرة ساخنة من البوزول وأكوابٰ الأتول، وهو مشروب ساخن من الذرة والقرفة والشوكولاتة. بالنسبة إلى العائلات، هذه الليلة ليست لمجرد قبول القرابين لموتاهم من طرف واحد، إنه تبادل مع المجتمع.

كان الأب كورنيليو نفسه يراقب الحدث من زاوية الغرفة، على شكل تمثال بالحجم الكامل. وكان هذا التمثال يجلس على كرسي قابل للطي، مرتديًا معطفًا وحذاءً رياضيًّا أسود برقبة طويلة، وقبعة رعاة بقر بيضاء مائلة، فبدا وكأنه يأخذ قيلولة الظهر.

في وسط النصب وُضعت صورة مؤطرة لكورنيليو يعتمر فيها نفس قبعة رعاة البقر البيضاء التي يعتمرها التمثال، ومن خلفه صليب خشبي. ومن الصليب تدلت الجماجم الشهيرة، أو جماجم السكر ذات الألوان الزاهية... والخبز.

سألت سارة: «هل من الطبيعي أن نعلِّق الخبز على النصب؟».

قالت: «نعم. سترين الكثير من الخبز».

بعد زيارة العديد من المنازل لتقديم القرابين، سألت سارة أي نُصب حرَّك مشاعرها أكثر.

قالت: «لم أكن في أسعد حالاتي أمام أي نُصب، بل مع الأطفال».

أشارت إلى صبي يبلغ من العمر ثلاث أو أربع سنوات، يتجوَّل بدلو اليقطين، مرتديًا عباءة سوبرمان.

- إنه شعور حلو ومر. كان ابني الآن ليبلغ بالضبط هذا العمر.

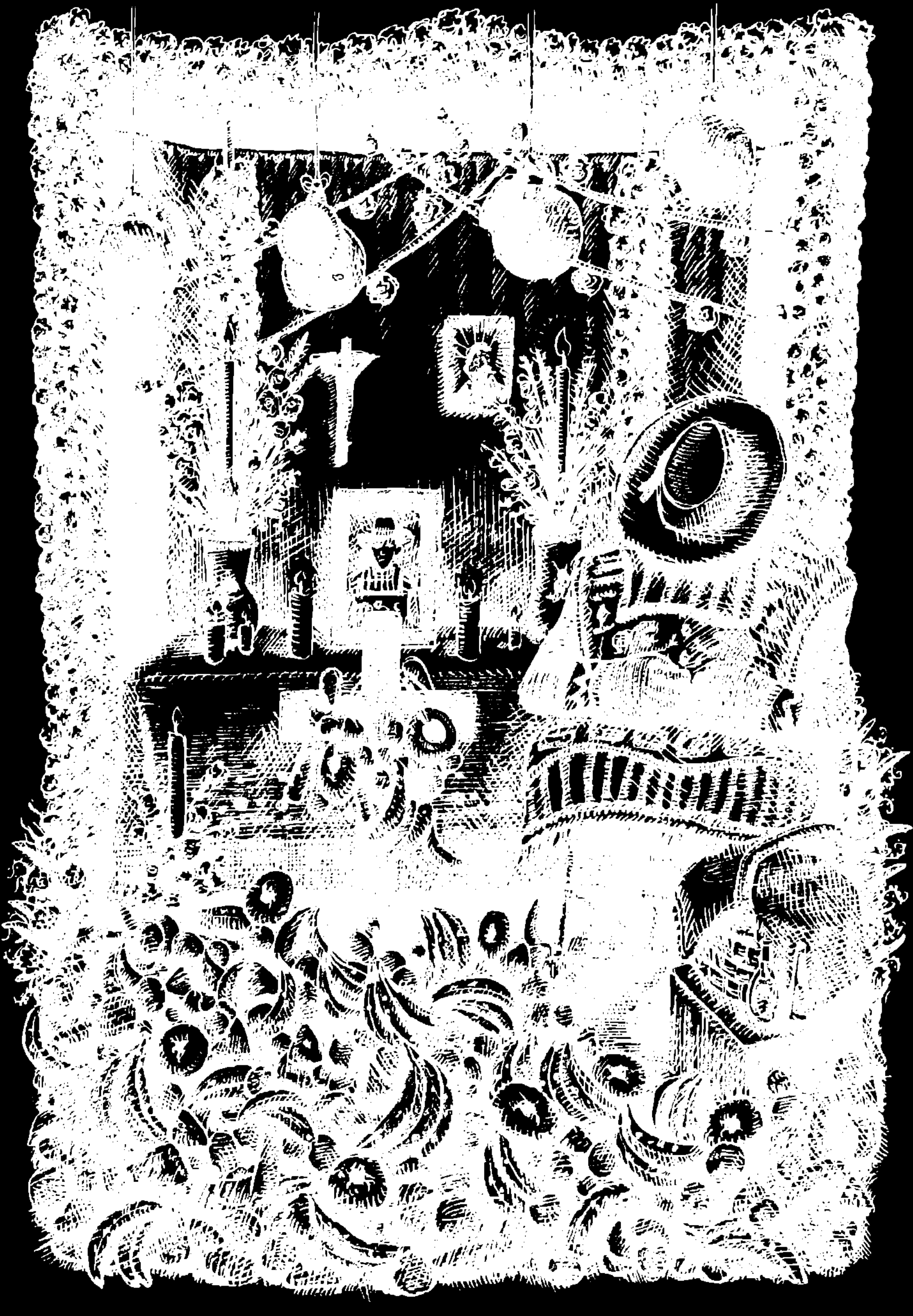

وراقبنا سوبرمان الصغير وهو يمد دلوه بخجل طالبًا الحلوى.

تابعنا في رحلتنا نحو الجنوب إلى المدينة الأكبر تزينتزونتزان، التي تقيم مهرجانًا صاخبًا في شوارعها خلال أيام الموتى. في المهرجان، يطبخ الباعة لحم الخنزير ولحم البقر على مقالٍ معدنية كبيرة، وتهدر الموسيقى من مكبرات صوت المتاجر المحلية، ويفجِّر الأطفال المفرقعات النارية في الشوارع. وعلى تلة معتدلة الانحـدار، على طرف المدينـة، تقع المقبرة المحلية.

لم يكن المشي إلى المقبرة مساء الأول من نوفمبر أقل من مُلهم، فقد توهجت المقبرة بنور عشرات الآلاف من الشموع التي تخطط لها العائلات وتدَّخر من أجلها طوال العام لضمان عودة موتاها. ورأيت صبيًا صغيرًا يعمل بجد عند قبر جدته، مُجتهدًا في إعادة إشعال أو استبدال أي شمعة تنطفئ. اختلط وهج الشموع برائحة القطيفة والبخور، لينتج ضبابًا ذهبيًّا يحوم بين القبور.

في السنوات الأخيرة، بدأت العديد من المدن في الولايات المتحدة في إقامة فعاليات لأيام الموتى، بما في ذلك احتفال ضخم تقيمه مقبرة هوليوود فورإيفر.

تقع مقبرة هوليوود فورإيفر على بُعد دقائق فقط من داري للجنائز في لوس أنجلوس، وقد حضرتُ الاحتفال عدة مرات. يثير احتفال هوليوود الإعجاب من حيث الحجم والتنفيذ، لكن من حيث الإحساس والعاطفة أعتبره أقل كثيرًا من مهرجان تزينتزونتزان. شعرت بالأمان بين جدران هذه المقبرة، وكأنها في وسط قلب متوهج نابض.

وُضعت السلال فوق المنصات الأسمنتية للمقابر، ليجد الموتى شيئًا يحملون قرابينهم فيه وهم عائدون. اشتعلت حرائق الأخشاب الصغيرة جالبة الدفء للعائلات المجتمعة. وطافت فرقة من عازفي الترومبون والأبواق والطبول والمزمار الضخم من قبر إلى قبر، تعزف الأغاني التي بدت، بالنسبة

إلى أذني غير الخبيرة، موسيقى الرانشيرا الممزوجة بالمارياتشي وأغاني الفرق الرياضية في الجامعات.

توقفت سارة عند قبر «ماركو أنطونيو باريجا»، الذي توفي عن عمر سنة واحدة فقط. ورأينا فوقه في الصورة حمامة ترفرف بجناحيها. كان قبره عبارة عن حصن بارتفاع سبعة أقدام يرمز إلى حجم حزن والديه. وقد مات ماركو قبل عشرين عامًا، لكن قبره كان لا يزال مغطى بالشموع والزهور، وهذا دليل على أن ألم فقدان الأطفال لا يزول أبدًا.

قبل مجيئي إلى المكسيك، كنت أعرف أن ابن سارة قد مات، لكني لم أعرف ظروف وفاته. وقد كشفت لي من تلقاء نفسها ونحن في غرفتنا بالفندق الحقيقة المُرة.

في أول فحص بالموجات فوق الصوتية لسارة، كانت الفنيَّة الثرثارة تحرك عصا الجهاز على بطن سارة لكنها صمتت فجأة.

قالت: «سأستدعي الطبيبة».

عند إجراء الموجات فوق الصوتية للمرة الثانية، تحدثت الاختصاصية بصراحة فجَّة.

قالت: «آه، أرى قدمًا حنفاء[1] هنا، وهذه اليد بثلاث أصابع فقط، وهذه بأربع. نمو القلب ضعيف. أوه، انظروا! يملك عينين رغم كل شيء! أغلب هذه الحالات لا تملك أعين. (ثم جاءت آخر ركلاتها) لا أعتقد أن هذا الحمل قابل للاستمرار».

(1) اعوجاج القدم وتلفها – المترجم.

أُصيب طفل سارة بمتلازمة التثلُّث الصبغي 13، وهي حالة جينية نادرة تسبب تشوهات للذهن والجسم. ولا يعيش معظم الأطفال الذين يولَدون بهذه الحالة لأكثر من بضعة أيام.

وقال طبيب ثالث لسارة: «لو كنتِ زوجتي، لقلت لك ألا تُكملي هذا الحمل إلى نهايته».

أما الرابع فأتاح خيارين أسودين. الأول: إثارة المخاض في المستشفى، وسيعيش طفلها خارج الرحم لفترة قصيرة جدًّا، ثم يموت. والثاني: إنهاء الحمل.

قال الطبيب: «أعرف شخصًا في لوس أنجلوس يمكنه إجراء هذه العملية من أجلك. ومع إنها لا تُجري هذه العملية بعد هذا التأخير، لكنني سأتصل بها من أجلك».

في هذا الوقت، كانت سارة في شهرها السادس تقريبًا. حددت الموعد. حاولت أن تبتعد نفسيًّا عن طفلها للاستعداد لما سيأتي، لكنه كان يتحرك ويركل في بطنها. وقد كرهت أن يُسلَب منها.

تقول: «لم يكن شيئًا غريبًا بداخلي؛ كان ابني».

يتطلب إنهاء الحمل في هذه المرحلة المتأخرة ثلاثة مواعيد على مدى ثلاثة أيام. وأمام العيادة، يغلق صف من المتظاهرين طريق سارة وروبن لمنعهما من دخول العيادة.

قالت سارة: «صرخت امرأة حقيرة مرارًا وتكرارًا قائلة إنني قاتلة. لم أستطع تحمُّل ذلك، لذلك مشيت نحوها مباشرة وصرخت في وجهها: طفلي مات بالفعل! كيف تجرُئين؟».

ثم انتظرت هي وزوجها في العيادة لساعة، وهما يستمعان إلى صراخ المتظاهرين الخافت يقول: «أيتها السيدة ذات الطفل الميت! أنصتي! ما يزال بإمكاننا إنقاذك!».

وكانت هذه أسوأ ثلاثة أيام مرت في حياة سارة وروبن. اشترطت الطبيبة أشعة صوتية أخيرة. أشاحت سارة بوجهها عن الشاشة، لكن روبن رأى طفلهما يحرك يده وكأنه يلوِّح بالوداع.

في غرفة أخرى، سمعت سارة شهقات مؤلمة لفتاة حاولت إنهاء حياتها لأنها حامل: «لا أريده، لا أريده!».

قالت سارة: «أردت أن أريحها وأقول لها إنني سآخذ طفلها، لكن لم يكن هذا حقًّا ما أردت. أردت هذا الطفل: طفلي».

في اليوم الأخير من الإجراءات، حضر جميع الموظفين ووقفوا حول سارة وهي على طاولة العمليات وأخبروها عن مدى أسفهم الشديد لحدوث هذا، وأنهم يعدونها بالعناية بها جيدًا.

قالت سارة: «هذا هو المكان الذي عاملني فيه الناس بأشد اللطف، هو نفس المكان الذي كان بالنسبة إليَّ مكانًا للموت».

بعد أكثر من ثلاث سنوات، أصبح ثقل وفاة ابنها كالمرساة الثابتة في جسدها. في المقبرة في تزينتزونتزان، حيث تأملت سارة في صورة الطفل ماركو، وضع روبن يده بمحبة على ظهرها.

كسرت الصمت وقالت: «لا يريد الآباء سوى التباهي بأطفالهم. إنهم فخورون بهم جدًّا. وإذا مات طفلهم تنتهي هذه الفرصة تمامًا. وهذه فرصتهم، ليثبتوا أنهم ما زالوا يحبونه وأنهم لا يزالون فخورين به».

حين مات ابن سارة، لم تشعر بالفخر، بل شعرت بضغط المجتمع عليها بأن تحافظ على كرامتها وتُخفي حزنها، لئلا تؤذي الصدمة التي بداخلها أحدًا غيرها.

تحب دور الجنائز الغربية كلمة «الكرامة». حتى إن أكبر شركة جنائز أمريكية سجلت الكلمة تُجاريًّا. وما تعنيه الكرامة عمليًّا في أغلب الأحيان، هو الصمت، ورباطة الجأش القسرية، والإجراءات الشكلية الصارمة. تستغرق حفلات اليقظة ساعتين بالضبط، ثم نمشي خلف الجنازة إلى المقبرة، ثم تغادر الأسرة المقبرة قبل أن ينزل النعش في القبر.

في المقبرة، وجدنا قبورًا كثيرة لتخليد ذكرى أطفال صغار، من بينهم: «أدريل تيراس دي لا كروز». وُلِد أدريل في الموعد الذي كانت سارة لتلد ابنها فيه، وعاش أكثر من أسبوع بقليل. جلس والداه عند قبره، واستلقت فتاة صغيرة على صدر والدتها واستلقى أخوها الأكبر تحت بطانية بجوار القبر، وبدا نائمًا. يدافع «كلوديو لومنيتز» عن أن تبني عادات أيام الموتى قد يؤدي إلى إنقاذ الحياة العاطفية لجارة المكسيك الشمالية. ويقول إن المكسيكيين «يملكون قوة على الشفاء، وبخاصة شفاء ما هو بالتأكيد أكثر أمراض الولايات المتحدة المزمنة إيلامًا: إنكار الموت وترك مَن فقد عزيزه في نوع من الحبس الانفرادي».

في آخر يوم لنا في المكسيك، عدنا إلى مكسيكو سيتي، وزرنا منزل فريدا كاهلو، لا كاسا أزول الشهير. لقد وُلدت كاهلو في هذا المنزل، وهنا توفيت في سن السابعة والأربعين.

توضح سارة: «رغم غرابة وقع هذا، فإن المجيء إلى هنا يكاد يكون فعل امتنان. لقد ساعدتني فريدا. وزيارة لا كاسا أزول هي حجي».

قالت سارة: «أعتقد أن معظم الأمهات يخفن ولو قليلًا من أن يؤدي إنجاب طفل إلى تقييدهن. ولطالما ظلت في ذهني كل الأشياء التي يمكنني فعلها وكل الأماكن التي يمكنني زيارتها، ورحلات الحج التي أقطعها وأنا دون أطفال. أنا على دراية بالوقت الفسيح الذي أملكه. وهذا ما يجعله وقتًا ثمينًا، لأنني أمتلكه بتكلفة باهظة».

في منزل كاهلو، عُرضت لوحتها «فريدا والقيصرية»، وهي عمل غير مكتمل يصوِّر فريدا بمعدة مشقوقة إلى جانب طفل رضيع مكتمل النمو.

شهقت سارة حين رأتها: «هذا هو أول لقاء شخصي لي مع إحدى هذه القطع. إنه مثل تكوين صداقة عزيزة مع شخص عبر الإنترنت، ثم مقابلته وجهًا لوجه في الحياة الواقعية. إنه حدث يثير الكثير من العواطف».

قد لا تكون المشاعر الحقيقية لفريدا كاهلو نحو الحمل واضحة تمامًا. لذلك يحرص بعض كُتَّاب السير الذاتية على حماية صورتها كقديسة لدرجة أنهم وصفوا عمليات الإجهاض الطبي التي أجرتها بأنها «حالات سقوط» مدمرة لأم حريصة. فيما يُصرُّ آخرون على أن كاهلو لم تكن مهتمة بالأطفال وأن «صحتها السيئة» كانت مجرد ذريعة للتهرب من الضغط الثقافي لإنشاء الأسرة.

في الطابق العلوي، في غرفة نوم كاهلو الصغيرة، وُجدت جرَّة من حقبة ما قبل العصر الكولومبي تحتوي على رمادها. وعلى سريرها الضيق وُضع قناع موت فريدا، وهو تذكير غريب بأن الفنانة نزفت حتى الموت في هذه الغرفة بالذات. فوق سريرها، علقت فريدا لوحة رضيع ميت، ملفوف بالأبيض، ويرتدي تاجًا مُزهرًا على وسادة من الساتان: ملاك صغير.

كارولينا الشمالية

كولوهي

يُعد الحوت الرمادي مخلوقًا مُدهشًا، فطوله 50 قدمًا ويزن 36 طنًّا وله زعانف هائلة تصل إلى 10 أقدام. على بُعد عشرة أميال من ساحل كاليفورنيا، اخترقت إحدى إناثه المشهد ونفثت الرذاذ نفثة ضعيفة وأخيرة. فبعد 65 سنة في هذه الحياة، أتى الموت إلى الوحش الضخم، فعلق على السطح.

تبدأ بعض الحيتان في الغرق على الفور، لكن حوتتنا هذه تحديدًا ستبقى طافية. وبداخل جسدها تتحلل الأنسجة والبروتينات، وتسيل الأعضاء، ويتراكم الغاز فيملأ غلافها الدهني الخارجي ويحوِّله إلى بالونة في مأتم. ولو انقطع من موضع واحد، لدفَع الغاز المضغوط أحشاءها الرخوة إلى مسافة تصل إلى عدة ياردات من جسدها. لكن جلدها يتحمَّل. تسللت الغازات ببطء، فانكمشت الحوتة وبدأت رحلتها البطيئة اللطيفة الدمثة نحو قاع البحر. تهبط وتهبط لمسافة تتجاوز الميل، حتى يلتقي الوحش بالقاع اللين.

وهنا في المنطقة العميقة [1]من المحيط، البرودة شديدة والظلام دامس، فالضوء لا يصل إلى هذه الأعماق. ولم تصل حوتتنا إلى هنا لـ «ترقد بسلام» وتنام على القاع في الظلام البارد الهادئ. بل توشك بقاياها أن تصبح مأدبة ضخمة تبقى لعقود. فالعملية المعروفة في مجتمع علم المحيطات باسم «سقوط الحوت»، تخلق منظومة بيئية كاملة حول الهيكل، وكأنه مطعم متنقل للمخلوقات شبه الفضائية في الأعماق البدائية.

تشم الحيوانات القمامة المتنقلة رائحة الحوت وتصل أولًا لتناول الطعام. إنهم سكان الأعماق الأشداء: أسماك القرش النائمة، والأسماك المُخاطية (اسم غير عادل، إنها أشبه بجريث يُخرَج وحل منها للأسماك)، وسرطان البحر، وجراد البحر. تبدأ الحيوانات القمامة بتمزيق اللحم المتحلل، وتتناول ما يصل إلى 130 رطلًا يوميًّا.

وبمجرد انتزاع الجزء الأكبر من المادة العضوية، تضج المنطقة المحيطة بالذبيحة بالحياة في قاع البحر القاحل عادة. تقيم الرخويات والقشريات معسكرًا لها. وينمو زغب أحمر كثيف من ديدان أعماق البحار على عظام الحوت، بكثافة 45 ألف دودة لكل متر مربع. الاسم اللاتيني للديدان: أوسيداكس، ويعني «مفترسة العظام». وهو اسم دقيق، إذ تخترق هذه المخلوقات التي لا تملك أعينًا ولا فمًا العظامَ وتستخرج منها الزيوت والدهون. ومؤخرًا، اكتشف العلماء أن البكتيريا المُحبة للكبريت الموجودة عند الحوت الساقط تُشبه الموجودة في الفتحات الحرارية المائية في أعماق البحار.

---

(1) المنطقة العميقة أو منطقة العمق: هي نطاق ما بين ألف إلى ألفي متر تحت سطح الماء – المترجم.

يتحول موقع سقوط الحوت إلى نسخة طويلة من «كوني ضيفتنا» من فيلم الجميلة والوحش، وهي سهرة احتفالية للاستمتاع، حيث تلتهم المخلوقات «طبقًا تلو الآخر». والحوت هو مثال لفاعل خير على روحه، وهو جزء من ترتيب جميل ومنطقي: حيوان يموت ويتبرع بجسده ليتمكن الآخرون من العيش. ولعل لسان حال الوجبة: «جرِّب الأجزاء الرمادية، إنها لذيذة». وباختصار، فالحوت مرتع لنواخر الميتات.

ولكي نكون منصفين، لم يحدد العلم حتى الآن موقف الحيتان من هذا الوضع. ولا ندري لو أتيح لهم إبداء رأيهم، هل يفضِّلون التخلي عن السقوط وإبقاء جثثهم محبوسة في حصن منيع من الشعاب المرجانية؟ وهو ربما ملاذ آمن بعد الوفاة، لكنه سيمنع الحيوانات الأخرى من الاستفادة من العناصر الغذائية الحيوية التي لم تعد مفيدة للحوت الراحل.

تقضي الحيتان حياتها كلها في دعم البيئة المحيطة بها. ويتكوَّن نظامها الغذائي من الأسماك والكريل، وقد افترض البشر لسنوات أن انخفاض عدد الحيتان = ازدياد الأسماك والكريل المتاحة للبشر. وقد بررت هذه المعادلة ذبح صناعة صيد الحيتان لما يقرب من ثلاثة ملايين حوت في القرن العشرين وحده.

لكن اتضح أن قلة الحيتان لا تعني ارتفاع عدد الأسماك، إذ تغوص الحيتان إلى أعماق المحيط المظلمة لتتغذى. ويجب أن تعود إلى السطح للتنفس، وفي أثناء وجودها في الأعماق، تطلق أعمدة سميكة من البراز. (ملاحظة: غائط: إنها تتغوط). ويُعد براز الحوت غنيًّا بالحديد والنيتروجين، اللذين يتدفقان لتخصيب العوالق، التي تُغذي الأسماك والكريل وتمكِّنها من الازدهار. لذلك

تعتبر الحيتان جزءًا مهمًا من هذه الدورة خلال حياتها، ولا يتغير ذلك عند موتها.

غريزيًا، قد تشعر بنفس الحماس للمساهمة بجثتك بعد موتك. وإلا فكيف تفسِّر تزايد شعبية هذه المقولة: «عندما أموت، لا أريد ضجة. فقط احفروا حفرة وأدخلوني فيها».

إنه طلب معقول حقًا، إذ يبدو أن تقديم جثتك مرة أخرى إلى الطبيعة هو أقل الخيارات تكلفة وأكثرها «خُضرة». ففي النهاية، تنمو النباتات والحيوانات التي نستهلكها في التربة وتتغذى منها.

وقد يحتوي فدان واحد من التربة على 2.400 رطل من الفطريات، و1.500 رطل من البكتيريا، و900 رطل من ديدان الأرض، و890 رطلًا من المفصليات والطحالب، و133 رطلًا من الكائنات الأولية. تعج التربة بالحياة، مثلها مثل الجثة (تحت غلافها من الكيراتين، أو الجلد الميت). وعندما نضع جثة على عمق بضعة أقدام في التربة، يحدث السحر المجهري الدقيق. هنا تعمل تريليونات البكتيريا التي تعيش بداخلك على إسالة أحشائك. وعندما يقطع الضغط المتراكم الجلد، يحدث لمٌّ شمل حماسي بين أجسادنا والأرض.

مكتبة سُر مَن قرأ

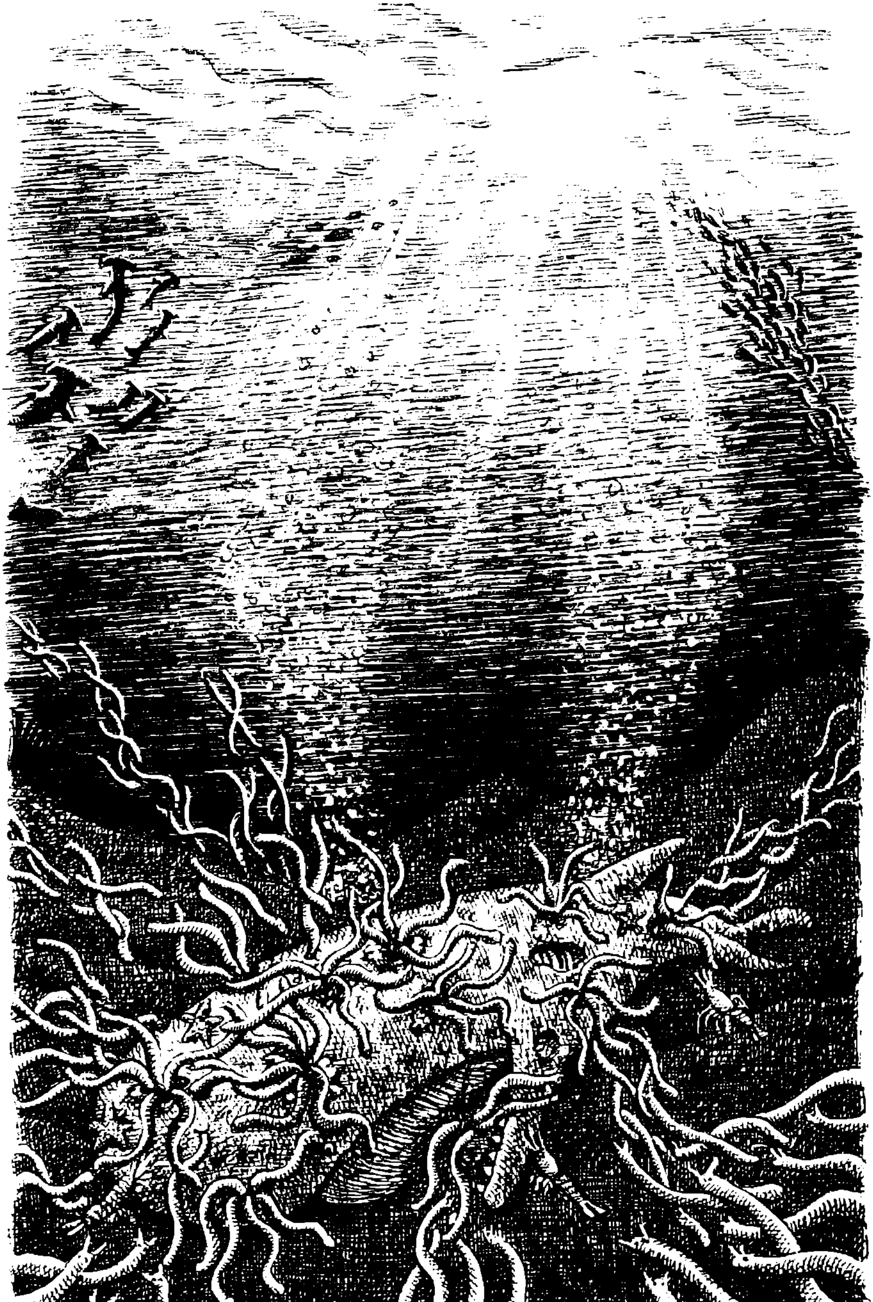

نحن مدينون بحياتنا للتربة، وكما قال «ويليام براينت لوجان»: «الجثث التي نعيدها إلى الأرض ليست ثمنًا كافيًا».

لكن من المفترض أنها مجرد البداية.

- كيف تصفين ما نفعله هنا يا كاترينا؟

فكرتْ للحظة ثم أجابت: «نحن نعد العُدة للتجارب».

- وما تلك التجارب؟

- مهلًا! دعينا لا نسميها تجارب، فهذا يجعلني أشبه بعالمة مجنونة.

- هل ثمة كلمة أفضل؟

- نحن هنا نصب الأكوام. لا، هذا مخيف كذلك. تبًّا!

انتظرتُ.

في النهاية قررتُ: «دعينا نقول فقط إننا نعدِّل تركيبة الكومة».

وكانت نصف راضية عن ذلك.

يجب أن تتعامل مع اللغة بحرص إذا كنت «كاترينا سبيد»، الشخص الذي يقود مهمة «تحويل الجثث إلى سماد» كما وصفتها صحيفة نيويورك تايمز. فمحاولة إقناع الآخرين بمثل هذا العمل حساسة، لأنها تنطوي على محو الخط الفاصل بين الابتكارات البيئية في مجال الموت وحيل النصب الخضراء التي يقدمها الدجالون.

سافرت أنا وكاترينا على طرق متعرجة في أبالاتشيا الجنوبية، جبال بلو ريدج التي تخترق الحدود بين تينيسي ونورث كارولينا. وقد تسللت إليها، كما تسللت إلى بقية الولايات المتحدة، صناعة الجنائز الحديثة واستولت على طقوس ولوجستيات العناية بالموتى. ولكن بسبب العزلة والدين والفقر في المنطقة، استغرق زحف الموت الصناعي إلى هنا وقتًا أطول من أي مكان آخر في البلاد تقريبًا.

أخيرًا، دخلنا طريقًا منعزلًا وتوقفنا عند بوابة. هناك، وجدنا الدكتورة «شيريل جونستون»، أو «د. جي» كما يناديها طلابها، تنتظرنا ومعها مجموعة صغيرة من المتطوعين الجامعيين. تدير د. جي محطة أبحاث طب العظام الشرعي (FOREST) في جامعة كارولينا الغربية. ولعلك سمعت عن المنشآت التي تُسمى بـ «مزرعة الجثث»، حيث تُوضع الجثث، المتبرَّع بها لصالح العلم، لتتحلل بهدف إجراءات دراسات الطب الشرعي والتدريب على تطبيق القانون. ولكن، كما تسارِع د. جي بالتنبيه: «مزرعة الجثث مصطلح غير دقيق: تُنتج المزارع الطعام. ونحن لا نُنتج الجثث. ولو نظرت إلى منتجنا النهائي، أظن أن بإمكانك تسميته (مزرعة الهياكل العظمية)».

كنت أنظر بطرف عيني إلى بعض الأقمشة الفضية التي تغطي ما بدا أنه أكوام دفن ترابية.

تساءلتُ: «هل يضعون الجثث المتبرَّع بها تحت هذه؟ حيث نقف بسياراتنا بالضبط؟» لقد رأيت الكثير من الجثث في شبابي، لكنهم كانوا جميعًا غير مُخيفين، بل مجرد جثث نائمة على طاولات أو نقّالات بيضاء معقمة. ويبعث في نفسك وجود الجثة في مكان لا ينبغي أن تكون فيه شعورًا بعدم الراحة كمقابلة مدرس الكيمياء خارج الفصل.

قالت د. جي بعد المقدمات: «لا. ليست من البشر. إنها من الدببة السوداء. حوادث سيارات. أحيانًا تجلب لنا إدارة الموارد الطبيعية ما بين 15 و20 في العام الواحد. فبسبب شدة سواد فرائهم، من السهل جدًّا أن تصدمه بسيارتك في الليل».

وتفيد مدافن الدببة في تدريب الطلاب الجامعيين. فقد أقام الطلاب شبكة منظَّمة لجمع عظام الدب بعد تحلله وإعادتها إلى المختبر لفحصها. وعند معالجة الدب بنجاح يُسمَح للطالب بالعمل على البشر، وهم ليسوا في منطقة وقوف السيارات (وهو ما سُررت بمعرفته) وإنما في حظيرة بمساحة 58 × 58 قدمًا أعلى التلة محاطة بأسلاك شائكة لإبعاد الفضوليين: ذئاب القيوط والدببة وطلاب الجامعات السكرانين.

صعدنا مع المجموعة إلى أعلى التل حتى بوابة الحظيرة المغلقة وفتحتها د. جونستون. خطوت إلى الداخل، ولم أصطدم برائحة نفاذة أو إحساس غريب بالموت. وكل ما وجدته كان حظيرة صغيرة للجثث خلَّابة للغاية بين جبال كارولينا الشمالية، ودوائر من ضوء الشمس تخترق الأشجار وتضرب شتلات حواسي. حاليًّا، كانت تحتوي الحظيرة على بقايا خمسة عشر روحًا استقرت في هذه المنشأة بعد الوفاة: ثلاث جثث مدفونة تحت التربة، واثنتا عشرة مكشوفة أعلاها.

رأيت عظامًا متناثرة لهيكل عظمي لأنثى ترتدي بيجاما أرجوانية منقطة بسبب عواصف الربيع الممطرة. كانت جمجمتها قد استقرت بالقرب من عظم الفخذ. وعلى بعد عدة أمتار إلى يسارها، رأيت رجلًا مات حديثًا، وكان فكه مفتوحًا كالمُتثائب، ولا يمنعه من السقوط من مكانه سوى طبقة رقيقة من اللحم. ولو جثوت على ركبتك بجانبه لأمكنك رؤية الشعر ينبت من ذقنه.

أشارت كاترينا إلى أعلى التل حيث هيكل عظمي مفلطح: «عندما كنت هنا قبل بضعة أشهر، كان هذا الرجل لا يزال يمتلك شاربًا وأجمل بشرة زرقاء مليئة بالعروق. لكن لم تكن رائحته رائعة».

ثم أدركتْ أنه قريب منها فاعتذرت إليه: «آسفة، هذه هي الحقيقة».

خطرت فكرة تحويل الموتى إلى سماد لأول مرة لكاترينا حين كانت تدرس الماجستير في الهندسة المعمارية. ففي حين هام الطلاب الآخرون بأعمال «ريم كولهاس» و«فرانك جيري»، عكفت كاترينا على تصميم «مكان لإراحة الموتى في المدن».

وقد رأت أن عملاءها المستقبليين هم المتوفون من المقيمين في المدن الحديثة، المرتاحون للحياة وسط الغابات الخرسانية، إلا أنهم يتوقون إلى الموت للعودة إلى العالم الطبيعي، حيث «يصبح الجسد ترابًا».

لكن لماذا صناعة السماد في حين أن الحل البسيط لتلبية التوق البدائي إلى أن «يصبح الجسد ترابًا» هو فتح مقابر دفن طبيعية، حيث يمكن أن تذهب الجثث مباشرة إلى حفرة في الأرض، دون تحنيط ولا نعوش ولا أقبية خرسانية ثقيلة؟

ترد كاترينا، وهي مُحقة، بأنه من غير الوارد أن تخصص المدن المكتظة مساحات شاسعة من الأراضي الثمينة والقابلة للبناء للموتى. ولذا فهي لا تهدف إلى إصلاح سوق الدفن، بل سوق حرق الجثث.

كانت نتيجة أطروحة كاترينا هي مشروع الموت الحضري، وهو مخطط معماري لمراكز تحويل الجسم إلى سماد في المناطق الحضرية. ويمكن نشر هذه المراكز في جميع أنحاء العالم، من بكين إلى أمستردام. فسيضع الملكومون المتوفى أعلى منحدر مبني حول قلب مركزي مصنوع من الخرسانة الناعمة والدافئة، بارتفاع طابقين ونصف. عند أعلى هذا المنحدر، سيُوضع الجسم في خليط غني بالكربون من شأنه، في غضون أربعة إلى ستة أسابيع، تحويل الجسم (العظام وكل شيء) إلى تربة.

ويحدث تفاعل السماد عندما تخلط الأشياء التي تحتوي على نسبة عالية من النيتروجين (مثل: فضلات الطعام، أو قصاصات العشب، أو... جسم الإنسان بعد موته) بكومة من المواد الغنية بالكربون (مثل: رقائق الخشب أو نشارة الخشب). وإذا أُضيفت الرطوبة والأكسجين تبدأ الميكروبات والبكتيريا الموجودة داخل الكومة في تكسير الأنسجة العضوية وإطلاق الحرارة. وهذا يطبخ كل المكونات معًا. وغالبًا ما تصل درجات الحرارة داخل كومة السماد إلى 150 درجة، وهي حرارة كافية لقتل معظم مسببات الأمراض. وعند

تحقيق التوازن الصحيح بين الكربون والنيتروجين، ترتبط الجزيئات، وتنتج تربة غنية بشكل لا يصدَّق.

أوضحت كاترينا: «خلال تلك الأسابيع الأربعة إلى الستة تكون في القلب، وتزول عنك صفة الإنسانية. فالجزيئات تتحول حرفيًّا إلى جزيئات أخرى مختلفة. أنت تتحول»!

وهذا التحول بالذات هو ما ألهمها بالاسم الذي أسمت به العملية: إعادة التكوين (فاسم «تحويل الجثة إلى سماد» سيكون ثقيلًا جدًّا جدًّا جدًّا على عامة الناس). في نهاية إعادة التكوين، يمكن للعائلة جمع التربة لاستخدامها في حديقتها، ويمكن للأم التي كانت تحب البستنة أن تولِّد من نفسها حياة جديدة.

كانت كاترينا واثقة بنسبة 99% في قدرتنا على إعادة تكوين الإنسان، وقد أعدَّت قائمة رائعة من علماء التربة في مجلسها الاستشاري الذين رأوا أن عليها أن تكون واثقة بنسبة 100%. فقد عملوا على تحويل الماشية إلى سماد منذ سنوات. فالعمليات الكيميائية والبيولوجية التي تتمكن من تكسير ثور صغير بوزن ألف رطل من شأنها أن تنجح مع إنسان يبلغ وزنه 180 رطلًا. لكنها احتاجت إلى دليل تجريبي على بقايا بشرية حقيقية (أي: ميت حقيقي).

ومن هنا جاءت د. جونستون ومحطة أبحاث طب العظام الشرعي. كانت د. جي مفتونة بفكرة كاترينا لدراسة تحويل البشر إلى سماد، لكنها لم تخطط لإجراء تجارب فورية. ثم، مصادفةً، ورثت جبلًا صغيرًا من رقائق الخشب من برنامج إعادة التدوير أُقيم في الحرم الجامعي. بعد فترة وجيزة، تلقت مكالمة

تفيد بأن جهة مانحة جديدة في طريقها إلى المُنشأة. لذلك راسلتْ كاترينا قائلة: «لدي جثة. هل نجرب؟».

وفي فبراير 2015، وضعتا أول جثة متبرَّع بها، لامرأة تبلغ 78 عامًا (سنسميها: جون السمادة) على سرير من نشارة الخشب الخالص تحت تل في المحطة. وبعد شهر، وضعتا جثة متبرع ثانٍ، ذَكَر أكبر حجمًا (سنسميه: جون السماد) على التل بين مزيج من البرسيم ونشارة الخشب ووضعتا على ذلك قطعة قماش فضية. لم تكن التجارب مُعقَّدة. والسؤال الوحيد الذي يسعى هذان الجسدان إلى الإجابة عنه هو: «هل سننتج سمادًا؟».

في محطة أبحاث طب العظام الشرعي اليوم، لدينا جسد جديد تمامًا يجب أن نشغل أنفسنا به، ومن المقرر أن يصل إلى المنشأة في غضون ساعة. كان اسمه «فرانك»، وهو رجل ستيني أصيب بنوبة قلبية في بدايات الأسبوع. قبل وفاته، اختار فرانك التبرع بجسده لمنشأة صناعة السماد البشري.

سألت د. جونستون: «هل تعرف عائلة فرانك أي شيء عن مشروع إنتاج السماد؟».

أوضحت د. جي: «لقد تحدثت مع أخيه (بوبي) عدة مرات».

وأوضحت بما لا يدع مجالًا للشك: «يمكنك أن ترفض هذا، وحينها سنستخدم فرانك لدراسة الطب الشرعي المعتاد. لكن الأسرة أصرَّت على أن هذا ما أراده فرانك. لأكون صادقة، بحلول الوقت الذي تسجِّل فيه جسمك للتبرع إلى مكان مماثل، تكون مستعدًّا لخوض أي شيء تقريبًا».

للتحضير لوصول فرانك، بدأنا في جمع وسحب كومة ضخمة من خشب الصنوبر ونشارة خشب القيقب إلى أعلى التل في دلاء الدهانات سعة خمسة

جالونات. لم يزعج الجهد البدني كاترينا، التي كانت طويلة ونحيلة وقصيرة الشعر. ومع أنها في أواخر الثلاثينيات، ذكَّرتني بلاعبي كرة القدم المحبوبين في المدارس الثانوية، وقد بنَت عمليًّا التل بالدلاء.

كان بإمكان أحد الطلاب الجامعيين، وهو شاب أشقر قوي البَنية، أن يحمل أربعة دلاء في المرة الواحدة، اثنان في كل يد.

سألته: «هل أنت طالب هنا؟».

أجاب: «نعم يا سيدتي. في السنة الأخيرة بقسم أنثروبولوجيا الطب الشرعي».

ومن أجل الحفاظ على صحتي النفسية افترضت أن «سيدتي» هذه شيء يقوله أهل الجنوب، وليس علامة على تقدمي في السن.

إن سحب نشارة الخشب في شمس كارولينا الشمالية (الذي بذلت فيه مجهودًا شجاعًا) بدا وكأنه عمل يدوي عادي، ولم يعطِني شعور رعاية الميت الذي يعطيني إياه السلام النفسي لكشط الرماد بعد حرق الجثة.

بحلول الساعة 11 صباحًا، كنا قد بنينا طبقة أساس بطول قدمين من رقائق الخشب في أعلى التل في الحظيرة. ولم ينقصها سوى الضحية المتطوعة: رَجُلنا فرانك. وكأننا أطلقنا إشارة، دخلت سيارة زرقاء داكنة إلى موقف السيارات. ودخل رجلان يرتديان ملابس كاكية مكوية وقمصان بولو زرقاء متماثلة عليها شعارات دار كرو للجنائز. كانا فريقًا مكونًا من الأب والابن، العضو الأكبر شائب الرأس، والأصغر ذو شعر أشقر.

لم يأتِ فريق كرو إلى هذه المنشأة مطلقًا، لذلك اصطحبتهم د. جونستون في جولة. رأيت وجوههم تتقطب ارتباكًا وهم يحاولون التوصل إلى طريقة لحمل جسم فرانك عبر العديد من التلال وبين الشجيرات.

أفصح الأب عن الخبر: «إنه رجل ضخم بعض الشيء».

يموت الناس في أماكن غير مريحة طوال الوقت (الكراسي ذات الذراعين، وأحواض الاستحمام، وأكواخ الفناء الخلفي، وأعلى السلالم الطويلة الخطرة). ومهمة مديري الجنائز عادة هي نقل الجثث من هذه الأماكن، وليس إيصالها إليها. إن مصدر فخر صناعة الجنائز أنها تنقل الجثة من الفوضى إلى النظام، وليس العكس.

سألتُ الأب هل هذه واحدة من أغرب عمليات النقل التي كُلِّف بها في الفترة الأخيرة.

أدار رأسه وقال بنبرة جافة: «نعم». نقطة.

وضعت خريطة طريق تضمن مسارًا مستقرًّا لا يزعج المقيمين الآخرين في محطة أبحاث طب العظام الشرعي، فخلال رحلتها الفوضوية نحو التحوُّل إلى هيكل عظمي، تزعج مياه الأمطار والمخلوقات الصغيرة أجسام المتبرعين. وفي محطة أبحاث طب العظام الشرعي، من السهل جدًّا أن تخطو بالخطأ على عظم ساق مارقة لأحد النزلاء إذا لم تتخذ الاحتياطات اللازمة.

سحب الرجلان نقالة واتجها إلى بوابة الدخول، وفوقها حقيبة المستشفى الزرقاء التي تغلِّف فرانك. يقف اللون الأزرق النابض بالحياة في تناقض صارخ مع الأخضر والبني الباهتين لصيف ولاية كارولينا الشمالية. ولاحظت

مكتوبًا على العلامة المُعلقة على إصبع فرانك: «جامعة كارولينا الغربية- مشروع الموت في المدن».

قلبت كاترينا العلامة لإلقاء نظرة، ثم رسمت على فمها أصغر ابتسامة ممكنة. أخبرتني لاحقًا أنها شعرت بأنها اكتسبت أخيرًا الشرعية عند رؤية الاسم مطبوعًا.

لسوء حظ كاترينا، لن يكون كسب تأييد صناعة الجنائز هو التحدي الوحيد أمامها. لقد كتب «مايك آدامز»، المدون الشهير (وهو أيضًا مناهض للتطعيم، وباحث في حقيقة 11/9، ومُشكك في حادثة ساندي هوك)، عن كاترينا في مقال شاركه أكثر من 11 ألف شخص عبر الفيسبوك. واعتبر آدامز مشروعها مجرد وسيلة لزراعة الغذاء لسكان المدن. وبما أن النظام العالمي الجديد سيحتاج إلى إمدادات ثابتة من السماد البشري لإطعام الأحياء، فمن المؤكد أنه سيُدفع نحو تشريع «القتل الرحيم القسري لكبار السن حتى تُستخدم أجسادهم في إنتاج السماد». ادعى آدامز أن الحكومة ستستخدم المشروع «لتجميل القتل الجماعي بغطاء بيئي».

ولأني أعرف كاترينا، وهي من عشاق البيئة تعيش في مدينة سياتل ومتزوجة ولها طفلان، فإن فكرة تدبيرها لعملية واسعة للقتل الجماعي تبدو غير معقولة. لكن تظل مشكلة العلاقات العامة قائمة: فأمام كل شخص يعتقد أنه من المحتم على أجسادهم أن تغذي الأرض، ثمة شخص يعتقد أن خطة كاترينا تعبِّر عن مجتمع وصل إلى ذروة فساده وفسوقه.

وسرعان ما بدأ النضال من أجل رفع فرانك إلى أعلى التل. لقد كان جهدًا جماعيًّا، بدءًا من المناظرة الطويلة بين وضع رأسه إلى الأمام أم قدميه. وفي مرحلة ما، نظرت إلى الأعلى ورأيت جمجمة تطل علينا وتراقب عبثيَّتنا معشر الأحياء.

وعندما وصل فرانك أخيرًا إلى قمة التل (بعد تقديم الرأس)، وضعنا كيس الجثة الأزرق على سرير من نشارة الخشب وفككنا الأربطة التي تمسكه، ليكشف عن رجل طويل وقوي، عاريًا إلا من ملابسه الداخلية وجواربه. قلبنا

فرانك على جانبه الأيمن وسحبنا الحقيبة من خلال هزها برفق، وبهذا أصبح رجلًا على نشارة الخشب، ولا يمكن العودة إلى الوراء.

امتلك فرانك لحية قصيرة بيضاء وشعرًا يصل إلى كتفيه، وقد وضع ذراعه اليسرى بأناقة تقريبًا خلف رأسه، بأسلوب «ارسمني كإحدى الفتيات الفرنسيات»[1]. غطت الأوشام جذعه وذراعيه برسومات: ساحر، وثعابين، ورموز دينية، وديناصور تيريكس يركض على صدره، فأضاف الحبر ألوانًا على أرضية الغابة.

انسحب الطلاب الجامعيون إلى أسفل التل لجمع المزيد من خليط البرسيم، وبقيت وحدي مع كاترينا لأول مرة منذ بداية اليوم.

حدقتْ إلى فرانك وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

قالت: «جاء هذا الرجل إلى هنا عن عمد. أتفهمين؟ لقد رغب في أن يكون هنا».

توقَّفتْ وشهقتْ شهقة عميقة ثم أكملتْ: «أنا ممتنة بكل جوارحي».

أخذت كاترينا حفنة من البرسيم الأخضر ونشارة الخشب، ووضعت الخليط على وجه فرانك، وهو أول جزء يُغطَّى من جسده.

انضممتُ إليها، ونشرنا معًا الخليط على رقبته وحول ذراعيه. قالت: «نحن نصنع له عشًّا صغيرًا! يبدو مريحًا».

توقفت، ووبخت نفسها: «لا تريد د. جي أن تحكمنا العواطف بهذا الشكل حول الجثث. توقفي يا كاترينا».

---

(1) إشارة إلى مشهد رسم جاك لروز في فيلم تايتنك – المترجم.

لم أكن متأكدة. في وقت سابق من اليوم، روت لي د. جونستون قصة رجل ثمانيني تبرع بجسده إلى محطة أبحاث طب العظام الشرعي. بعد وفاته، نقلت زوجته وابنته جثته إلى المنشأة في شاحنة العائلة. وسُمح لهما كذلك باختيار بقعة خاصة له. ثم بعد ستة أشهر فقط، ماتت زوجته. وقد أوصت أن يكون جسدها في منطقة مجاورة لجسد زوجها. لبَّينا طلبها، وتحلل الرجل وزوجته معًا في الأرض جنبًا إلى جنب، كما كانا في الحياة.

هذا مخالف كثيرًا لمبدأ عدم الانخراط العاطفي. لكن لم تشعر د. جي بالندم على هذا السلوك.

قالت: «أحب أن أنادي المتبرع بالسيد أو السيدة كذا. أحب أن أناديهم بأسمائهم الحقيقية. ولا أرى سببًا يمنع من هذا. ما يزالون أنفسهم. تختلف المنشآت الأخرى معي، وتقول إنه سلوك لا يحافظ على مسافة مهنية عن المتبرع. ولا أتفق معهم على الإطلاق. فسلوكي هذا يُضفي الإنسانية على الجثث. لقد التقيت ببعض هؤلاء قبل أن يموتوا. أنا أعرفهم. إنهم بشر».

يُعد نهج د. جي جزءًا من موجة جديدة في التعامل مع التبرعات العملية، حيث تُعامِل الجثة المتبرع بها باعتبارها شخصًا، لا جثة مجهولة الاسم. يعمل «إرنست تالاريكو» الابن مديرًا طبيًّا مساعدًا في كلية الطب بجامعة إنديانا نورث ويست. تأتي تبرعات الجثث إلى كليته الطبية ليعمل الطلاب الصغار على تشريحها في معامل التشريح. عندما بدأ تالاريكو البرنامج لأول مرة، وجد نفسه غير مرتاح للنظر إلى الجثث المتبرَّع بها باعتبارها مجرد قطع مجهولة من اللحم، يُشار إليها فقط بالأرقام أو الأسماء المستعارة. فقرر تالاريكو إقامة حفل تأبين في يناير من كل عام من أجل الجثث الست المتبرَّع بها للبرنامج. كان من بين الحضور طلاب الطب في السنة الأولى،

وعائلات المتبرعين، وهو ما أدهشني. صُدمت «ريتا بوريلي»، التي تبرعت بجثة زوجها إلى جامعة إنديانا، عندما تلقت رسالة من الطلاب تفيد بأنهم يريدون معلومات أكثر عن حياته.

تقول: «لقد أرادوا صورًا. ظللت أبكي بشدة لدرجة أنني بالكاد استطعت إنهاء قراءة الرسالة».

تعتبر مشاركة الأسرة اختيارية، ولكنها تسمح للطلاب بالتدرُّب على المهمة التي لا يمكن لأي طبيب تقريبًا تخطيها: التحدث بصدق مع أهل المريض عن الموت.

حتى إن الطلاب يطلقون على الجثث التي تُخصَّص لهم «أول مرضاي». وفي تقرير عن البرنامج أعدَّته صحيفة وول ستريت جورنال، أوضحت طالبة الطب في السنة الأولى «رانيا قوقيس» أن «التفكير في الجسد باعتباره رقمًا أسهل، لكن هذه ليست الطريقة التي تجعل الأطباء جيدين».

ومع ظهور هذه النظرة التقدمية، سألت د. جي عما إذا كانت ستتبرع بجسدها لمحطة أبحاث طب العظام الشرعي عندما تتخلص من حاويتها الفانية. كان الجواب نعم، من حيث المبدأ. لكنها كانت قلقة على طلابها. فمعرفة تاريخ المتبرِّع والإشارة إلى الجسد على أنه السيدة فلانة شيء، ورؤية أستاذك يتحلل أمام عينيك شيء آخر. لكن العائق الحقيقي أمام د. جي هو والدتها. فقد عارضت والدتها تمامًا فكرة محطة التحلل، لأنها من جيل يعتبر الجنازة اللائقة هي حفل اليقظة المقامة في الكنيسة. ولن تتبرع بجسدها إذا كانت والدتها على قيد الحياة وغير مرتاحة للفكرة.

لكن مؤخرًا، أعلنت والدة د. جي، على خلفية تفكيرها فيما تريده لجسدها: «أنا لا أفهم لماذا يتعين علينا خوض عملية حرق الجثث أو دفنها من الأساس. ألا يمكن أن نخرج إلى الغابة ونترك أجسادنا تتحلل بشكل طبيعي؟».

أجابت د. جي: «أمي!».

- نعم يا عزيزتي.

- أتعلمين أن هذا ما أفعله؟ هذه مهمة محطة أبحاث طب العظام الشرعي! مكان للتحلل في الغابة.

بلغ ارتفاع كومة نشارة الخشب عند فرانك ثلاثة أقدام ونصف. وبدا وكأنه تل دفْن بناه الفايكنج. وقد عمل الطالب الجامعي الأشقر القوي على تثبيت سياج سلكي حول التل لمنع خليط نشارة الخشب (أو فرانك، لا سمح الله) من الهروب والتدحرج إلى أسفل التل. كان هذا بعيدًا تمامًا عما ستبدو عليه عملية صناعة السماد في المدن، ولكن في ظل زقزقة الطيور وأزيز الحشرات وأشعة الشمس المتسللة بين الأشجار، لم يسعني إلا أن أعتقد أن هذا هو المكان المثالي للتعفن.

عادت مجموعة المتطوعين، المغطاة بالعرق وغبار الخشب إلى حظيرة الجثث.

هذه المرة كانوا ينقلون المياه داخل عبوات رمال القطط المعاد تدويرها. سُكب 12 جالونًا من الماء فوق الكومة لإضافة الرطوبة المغرية للميكروبات والبكتيريا إلى المزيج. وخلال التقاط الصور لتوثيق الإجراء، أُوصي شخص ما بإزالة ملصقات العبوات كي لا تبدو وكأنها برعاية هذه العلامة التجارية، وهو ارتباط لن يروق لأي من الطرفين.

تتنبأ كاترينا بأن هذا الجزء من العملية، أي سكب الماء على قمة التل، سيصبح فيما بعد طقسًا، فهي لا تريد أن يشارك مشروعها محارق الجثث الحديثة في الحساسية من مشاركة الأسرة. وتأمل أن تحصل الأسرة من سكب الماء فوق نشارة الخشب الطازجة على نفس الشعور بالقوة الذي يقدمه الضغط على زر المحرقة لإشعال الفرن الحديث أو إهالة التراب على التابوت. عندما سكبنا الماء على تل فرانك، بدت العملية وكأنها طقس. لقد بدت وكأنها بداية لشيء ما بالنسبة إلى فرانك، وربما للمجتمع.

❋

بعد تناول الغداء في حانة لمشاهدة المباريات في المدينة (لم نُفصح للنادل الأشقر المبتهج لِمَ تغطينا نشارة الخشب)، عدنا إلى محطة أبحاث طب العظام الشرعي. فلم يكن فرانك هو السبب الوحيد لقدومنا إليها، إذ لا يزال هناك موضوع سماد «جوون» و«جون»، أول الجثث المتبرَّع بها. اليوم سنكشف تلالهما لنرى ماذا يوجد تحتها، إن وُجِد شيء.

مشينا بتثاقل إلى أعلى التل، فالتفتت د. جي إلى كاترينا وأعلنت: «أوه، لقد نسيت أن أخبركِ! لقد تجاهلت كلابُ البحث عن الجثث التلالَ تمامًا».

فأشرق وجه كاترينا، فخلال مسيرتها المهنية كطبيبة أنثروبولوجيا شرعية، قدمت د. جي المشورة لعدد لا يُحصى من عمليات البحث عن المفقودين، التي

تركز عادةً على البحث في الغابات الكثيفة في الجبال المحيطة. وبعد أن شهدت بنفسها الصعوبة التي يواجهها المسؤولون في تحديد مكان الموتى، فتحت د. جي المحطة للمتطوعين في إنفاذ القانون والبحث والإنقاذ مع كلاب البحث عن الجثث. وفي هذا إفادة كبيرة للمدربين من خلال إتاحة التدرب على جثث متحللة حقيقية، في ظروف مشابهة لظروف البرية. بعد أسبوع من التدريب في المحطة، ودَّعتهم الدكتورة ومنحتهم عينة مما تسميه «التربة القذرة»: التربة التي تنام عليها الجثث المتحللة، ويمكن للضباط استخدامها بعد ذلك لإعطاء التوجيهات في مقرهم. «كان عليك أن ترى مدى سعادتهم حين قدمت لهم قوارير من التراب أو قطعًا من الملابس المتسخة من التحلل. كأن الكريسمس قد حلَّ.

كما تقول الترانيم القديمة: «... أعطاني حبي الحقيقي، حمامتين وقارورة تراب من تحت الجثة».

ولماذا الاهتمام بتجاهل الكلاب لتلال السماد؟ تعمل الكلاب عن طريق حاسة الشم ولا تجد صعوبة في شم الجثث الموجودة في العراء، أو حتى تلك المدفونة في قبور غير عميقة. في الأمام داخل كومة السماد، توضع الرطوبة والتهوية والكربون والنيتروجين بتوازن لحبس الرائحة داخل الكومة. وتدرك كاترينا أن الجمهور لن يقبل بهذه الطريقة الجديدة للتخلص من الجسد إذا فاح من محطة صناعة السماد، التي يُرجى منها أن تكون أماكن للحداد وإقامة الطقوس، رائحة التعفن البشري. كان عدم اهتمام الكلاب التام بأكوام الجثث خبرًا رائعًا لمستقبل المشروع.

تقرر الكشف عن المتبرع الذكر، جون السماد، أولًا. لقد كان رجلًا طويل القامة قوي البنية في منتصف الستينيات من عمره وتوفي في مارس، مما يعني أنه مكث في كومة الخشب والبرسيم لمدة خمسة أشهر. كان موقعه في

أعلى التل يعني التعرُّض أكثر لأشعة الشمس المباشرة، وبالتالي درجة حرارة أعلى بشكل عام في محيط التل. كانت التلة كلها مغطاة بغطاء مشمع فضي.

قد يؤدي الحفر في الكومة بالمجارف المعدنية كبيرة الحجم إلى خطر تدمير ما قد يكون بداخلها. لذلك استعضنا عن المجارف المعدنية بمجارف يدوية صغيرة ومجارف بلاستيكية ثقيلة. وبينما كنا نحفر بحذر في الكومة، جعلتنا الألوان اللامعة الأرجوانية والصفراء للمجارف نبدو كأطفال تبني قلعة رمال. ثم فجأة اصطدمنا بعظام. تدخلت د. جونستون واستخدمت فرشاة ناعمة لإزالة الغبار والكشف عن عظمة الترقوة اليسرى للمتوفًّى.

حزنت كاترين بشدة لهذا الاكتشاف: «لن أكذب. أردت ألا أجد شيئًا هناك. أردت أن نحفر ونحفر ولا نجد إلا التربة».

أما د. جي فابتسمت وقالت: «اسمعي، لقد أردت أن يوجد شيء ما ليكون هناك». سألتها: «مهلًا! نحن نسعى إلى تحويل الجسد بالكامل إلى سماد خلال أربعة إلى ستة أسابيع، فلماذا تريدين أن تعثري على عظام؟».

قالت كاترينا: «لأن د. جي تملك دوافع مختلفة، فهي تريد العظام».

وتبين أنه رغم حماس د. جي لمشروع كاترينا، فهي لا تجد أبدًا ما يكفي من الهياكل العظمية. ومجموعات الطب الشرعي، كالتي تديرها في ولاية كارولينا الغربية، لا تملك ما يقترب حتى من كمية العظام التي يحتاجون إليها، وهم بحاجة إلى تنوع كبير من جميع الأنواع والأعمار ليتمكنوا من إجراء مقارنات حقيقية ومفيدة.

تعتقد د. جي أنها إن تمكنت من تحديد وقت الانتشال المناسب من التلال، فيمكنها التوصُّل إلى نظام يحوِّل الإنسان من جسد كامل إلى هيكل عظمي أسرع بكثير من الطريقة الحالية عبر وضعهم في العراء وانتظار انتهاء الحشرات والحيوانات والطبيعة من عملها.

في اليوم الذي وُضع فيه «جون السماد» في نشارة الخشب، نُشرت على جسده طبقة من البرسيم الأخضر الطازج لرفع درجة حرارة الكومة، وهو ما تحقق فيما يبدو. لكن إعداد السماد يحتاج أيضًا إلى الرطوبة لينجح، ومع إزالة الكومة شيئًا فشيئًا، اتضح لنا أن طبقة البرسيم عملت على سَحب الرطوبة من جسده. لقد وجدنا جون مُحنطًا، ولحمه الأبيض الرقيق لا يزال عالقًا بعظام الفخذ والحوض، وأمكنني تنظيفها بضربات خفيفة. أول درس قاسٍ مستفاد في تحويل الجسد إلى سماد: لا تفرط في إضافة البرسيم. اكتشفت الدكتورة «ج» شيئًا مثيرًا للاهتمام لأنها كشفت رأسه وأعلى كتفه اليمنى، وهي أجزاء الجسم الوحيدة غير المغطاة بالبرسيم. لقد تسربت أمطار الربيع الغزيرة من أعلى التل متخطية الغطاء المشمع، فأغرقت تلك المنطقة. وفي هذه المنطقة تحديدًا، وجدت العظام نظيفة وداكنة وعارية من اللحم وبعيدة عن التحنُّط تمامًا. بل وجدت بدايات تكوُّن الثقوب الشبيهة بالجبن السويسري على عظم القفص الصدري، ما يدل على بداية تحلل العظام.

ورغم هذا الاكتشاف المُشجِّع، لم يتحول «جون السماد» إلى تربة غنية وداكنة كما كانت تأمل كاترينا. لقد ظل مغلَّفًا بتلك الكومة لخمسة أشهر كاملة، ووجدناه لا يزال موجودًا: محنطًا. قد يستغرق تحويل ثور كامل إلى سماد ما يصل إلى أربعة أسابيع عند استخدام التهوية الميكانيكية. أما أحشاء الذبائح المجلوبة من المذبح فتستغرق خمسة أيام فقط. ولا يزال أمام تحويل البشر إلى سماد طريق طويل.

لم يزعج هذا د. جي. هزت كتفيها وقالت: «يتعلم المرء القليل في كل مرة».

ومنحتنا إشارة البدء في تغطية جون مرة أخرى (بعد إضافة المزيد من الماء وإزالة طبقة البرسيم المشؤومة).

تذكِّرني التجارب الجارية في محطة أبحاث طب العظام الشرعي بمحاولات أستاذ التشريح الإيطالي «لودوفيكو برونيتي» لإنشاء أول آلة حرق جثث حديثة في أواخر القرن التاسع عشر. كانت أساليب برونيتي ملائمة تمامًا للعصر الصناعي، حيث استخدم ما أطلق عليه الباحث «توماس لاكر» «الحداثة التكنولوجية القاسية».

ترأَّس برونيتي العديد من التجارب الفاشلة، لكن تلك التجارب مثَّلت «بداية حقبة جديدة في تاريخ الجثث». في النهاية، أصبحت آلات حرق الجثث الصناعية اليوم هي الطريقة السائدة للتخلص من الجثث في كل الدول المتقدمة تقريبًا.

كانت أول جثة أحرقها برونيتي لامرأة تبلغ 35 عامًا باستخدام فرن من الطوب. لم تكن التجربة ناجحة، لأن الفرن حوَّل جسدها إلى خمسة أرطال ونصف من قطع العظام. لكن هذه الطريقة استغرقت وقتًا طويلًا لا يرقى إلى قبول البروفيسور: أربع ساعات.

رأى برونيتي أن تقطيع الجثة قبل حرقها قد يُسرِّع العملية. دخلت الجثة رقم اثنين، لرجل ذي 45 عامًا، في نفس فرن الطوب مُقسَّمة على ثلاثة مستويات: الأول للأطراف، والثاني للرأس والصدر والحوض، والثالث للأعضاء والأحشاء الأخرى. ظل حرق الجثة يستغرق أربع ساعات مليئة بالإحباط، لكن العظام المتبقية تزن رطلين ونصف فقط.

فكَّرت كاترينا في هذا التكتيك. فقد أخبرها العديد من خبراء التسميد: «إذا كنت تريدين حقًّا إعداد السماد بكفاءة، فاقطعي الجسم أولًا».

ولا تقف اقتراحات الخبراء المفزعة عند هذا الحد. فهناك من قالوا إن عليها أن تضيف الروث إلى الكومة، وهناك صانع السماد العضوي الذي أرسل لها بريدًا إلكترونيًّا يقول: «عزيزتي السيدة سبيد، أنا مهتم بمشروعك. لقد

حالفني الحظ بشدة مع كومة السماد لأنني أستخدم بقايا البول الذي أجلبه من المستشفيات. هل فكرتِ في هذه الفكرة؟».

سألتُها: «هل رددتِ عليه؟».

- اضطررت إلى رفض بول المستشفيات بكل أدب. هل هو مصدر جيد للنيتروجين؟ نعم. هل هو سريع؟ على الأرجح. هل سأضع جثة فيه؟ لا.

لم تردع برونيتي فكرةُ تفكيك الموتى، وقرر في جولته التالية مع التجارب أن يرفع درجة الحرارة، حيث وضع كل جزء من الجسم في فرن مختلف تمامًا ينتج غاز الفحم، وهي مادة تُستخدم لإنتاج الكهرباء في القرن التاسع عشر. كانت حرارة هذا الفرن أعلى بعدة مئات من الدرجات واستغرق فترة أطول بساعتين (ليصبح المجموع ست ساعات). لكن النتيجة النهائية كانت عظامًا متفحمة تمامًا، خالية من جميع المواد العضوية. اختفت جميع آثار ما يجعل الإنسان إنسانًا، بما فيها: الحمض النووي، وإن كان هذا غير معروف للأستاذ حينها.

وفي ورقته البحثية عام 1884، كتب برونيتي عن حرق الجثث:

«إنها لحظة جليلة ومذهلة وتشعر فيها بالقداسة والهيبة. لقد بعث احتراق الجثة دائمًا في نفسي عاطفة قوية جدًّا. وما دام قد ظل شكلها بشريًّا، واستمر اللحم في الاحتراق، يغلب على المرء التعجبُ والانبهارُ، وحين يختفي الشكل البشري ويتفحم الجسد بأكمله، يغلب على المرء الحزن».

بحلول عام 1873، كان برونيتي جاهزًا لعرض نتائج تجاربه لأول مرة في معرض فيينا العالمي. واحتوى كُشكُه رقم 54 في القسم الإيطالي على

مكعبات زجاجية عديدة تعرض نتائج تجاربه: العظام واللحم بدرجات متفاوتة من التفكك.

ومثَّلت تقنية حرق الجثث التي قدَّمها برونيتي فرصةً للمجتمع لتخطي مراحل التحلل وحرق الجسم ليبقى منه مواده غير العضوية فقط. وكان يأمل في تحويل هذه العملية إلى عملية صناعية، بإنجازها في أقل وقت ممكن بنفس كفاءة خطوط الإنتاج في المصانع. ووفقًا لـ «لاكور»، فقد رأى برونيتي حرق الجثث الحديث «مشكلة أمام العلم والتكنولوجيا». كانت الرسالة واضحة: الطبيعة، التي تُركت مع أنظمتها وشأنها، قذرة للغاية وغير كفء، واحتاجت إلى شهور لتفعل ما يمكن أن يفعله فرن يعمل على درجة 2000 في غضون ساعات فقط. وشملت اللافتات الموجودة في كشك برونيتي في معرض فيينا لافتة تقول «حُفظت من الديدان، واستهلكها اللهب المنقِّي».

وبعدها بنحو 150 عامًا، أختلف أنا وكاترينا مع برونيتي في أن اللهب فقط هو الذي بمقدوره التنقية. تحدث الشاعر «والت ويتمان» عن التربة والأرض باعتبارهما المحوِّلات الكبرى، حيث تبتلعان «بقايا» البشر وتنتجان «هذه المواد السامية». تعجَّب ويتمان من قدرة الأرض على إعادة استيعاب الفاسد والحقير والمريض، وإنتاج حياة جديدة نقية. فلا يوجد سبب للتخلُّص من مكوِّناتك العضوية بالغاز أو اللهب مع وجود منفعة من «بقايا» تكوينك البشري.

عادت د. جي إلى الخيمة في موقف السيارات لتحميل البيانات من جهاز تسجيل إلكتروني كان موضوعًا على صندوق «جون السماد» لتسجيل ارتفاع درجة الحرارة التي اختبرها جسده في أثناء وجوده في الكومة. وبهذا لم يبقَ أحد سواي وكاترينا للبدء في إزاحة الكومة الثانية التي تحتوي على «جوون السمادة». لقد عانت هذه المرأة البالغة 78 عامًا الهزالَ قبل وفاتها بسبب

المرض. ويتكون تلُّها من نشارة الخشب النقية وكانت تحت التل مكشوفة وفي الظل.

وكلما تعمَّقنا في الكومة، كشف التراب عما تحته من الخنافس واليرقات. وقد كانت التربة الموجودة داخل الكومة غنية وداكنة، لذا يشار إلى السماد باسم «الذهب الأسود». لكن وجود الحشرات ليس علامة جيدة، فمعنى هذا وجود شيء داخل الكومة يوفِّر مصدر غذاء لها، أو وليمة تُبقي هذه المخلوقات مشغولة. ثم اصطدمت بعظم فخذ «جوون»، الذي كان لا يزال مغطى بطبقة بيضاء سميكة من الدهون المتحللة في قوام الزبادي اليوناني (معذرة يا عشَّاق الزبادي اليوناني). وعندما كشفنا المزيد، وجدنا المرأة في المراحل الأخيرة من التحلل، وأصبحت مجرد عظام تقريبًا.

كانت مشكلة «جوون السمادة» عكس مشكلة «جون السماد»، فلديها رطوبة كافية (وهذا هو سبب نجاحها في التحوُّل إلى هيكل عظمي)، ولكن نقَصها النيتروجين، فلم ترتفع درجة الحرارة في الكومة بما يكفي لتحويل عظامها إلى تربة.

لم تنجح تجربة «جون» ولا «جوون».

لكن كانت هذه بداية تجارب كاترينا فحسب. فستحضر المزيد من الجثث إلى محطة أبحاث طب العظام الشرعي لتحويلها إلى سماد.

في جامعة ويك فورست، كلَّفت أستاذة القانون «تانيا مارش» طلابها في قسم قانون المقابر باستقراء قوانين الولاية للتوصُّل إلى طريقة لإضفاء الشرعية على مرافق صناعة السماد في جميع الولايات. وفي جامعة ويسترن واشنطن، ستبدأ عالمة التربة وخبيرة التسميد «لين كاربنتر-بوجز»، تجارب على حيوانات بحجم الإنسان (أبقار صغيرة، وكلاب كبيرة، وخراف محلوقة، وخنازير، وكلها ميتة سلفًا). وثمة دراسات جارية بالفعل لما يحدث للزئبق

الموجود في حشوات الأسنان والضروس خلال عملية صناعة السماد، حيث يُعد إطلاق هذه المادة السامة في الهواء أحد أكبر المخاوف البيئية من حرق الجثث.

قالت كاترينا: «اتصلت بي لين عبر الهاتف في ذلك اليوم للتحدث عن دراسة الأسنان، وذكرت عرَضًا أنها حفرت قبرها ونامت فيه في الليلة الماضية. إنها مُتنسِّكة للغاية».

أجبتها: «اللعنة، حفرتْ قبرها ونامت فيه؟!».

- نعم، الموت جزء من ممارساتها الروحية. إنها أكثر بكثير من مجرد محبة لصناعة السماد من الماشية.

وتجدر الإشارة إلى أن المشاركين الرئيسيين في مشروع صناعة السماد من النساء: العالمات والمتخصصات في الأنثروبولوجيا، والمحاميات، والمعماريات. إنهن النساء المتعلمات، اللائي يملكن امتياز تكريس جهودهن لتصحيح الخطأ. لقد قدمن مساحة كبيرة في حياتهن المهنية لتغيير نظام الموت الحالي. أشارت كاترينا إلى أن «البشر يركِّزون بشدة على كبح الشيخوخة والتدهور، لقد أصبح هاجسًا. وبالنسبة إلى النساء، هذا الضغط لا يرحم. ولذلك يصبح تحويل الجثث إلى سماد فعلًا متطرفًا. إن هذه العملية تعادل أن يقول المرء: «أنا أحب وأقبل نفسي».

أتفق مع كاترينا هنا. غالبًا ما تخضع أجساد النساء لسلطة الرجال، سواء أعضاؤنا التناسلية، أو حياتنا الجنسية، أو وزننا، أو طريقة لباسنا. توجد حرية موجودة في التحوُّل إلى سماد، فهنا يُصبح الجسم فوضويًّا وأشعث وشاذًّا. وأنا أستمتع بهذه الصورة حين أتخيل ما سيحدث لجثتي المستقبلية.

عندما أصبحت العناية بالموتى صناعةً في أوائل القرن العشرين، حدث تحوُّل مزلزل فيمن يتحمل مسؤولية الموتى، فانتقلت رعاية الجثة من عمل

بدائي غريزي تقوم به النساء إلى «مهنة» و«فن» وحتى «علم» يؤديه رجال يتقاضون أجورًا مرتفعة. لقد سُلبت الجثث، بكل ما فيها من فوضى مادية وعاطفية، من النساء. لقد جُعلت أنيقة ونظيفة، ووُضعت في تابوتها على قاعدة تمثال، بعيدًا عن متناول أيدينا دائمًا.

ولعل عملية مثل صناعة السماد هي محاولتنا لاستعادة جثثنا. لعلنا نرغب في أن نصبح تربة لشجرة صفصاف، أو شجيرة ورد، أو شجرة صنوبر: قدرها الموت بالتعفُّن أو الأكل وفقًا لشروطنا نحن.

إسبانيا

برشلونة

تُظهر طريقة دور الجنائز الأمريكية أسلوبًا جماليًّا موحدًا بشكل يثير الريبة: القرميد العتيق، والستائر الداخلية المخملية، ورائحة المعطِّرات غير المريحة (التي تغطي رائحة المطهرات القادمة من غرفة تحضير الجسد). لكن على خلافها، يبدو دار ألتيما، ببرشلونة، مزيجًا بين مقر جوجل وكنيسة السيانتولوجي. فهي بسيطة وشديدة الحداثة، تُشعرك بإمكانية إقامة جماعة دينية سرية. وتتميز طوابقها الثلاثة بأرضيات وجدران وأسقف من الحجر الأبيض الأنيق. وتسمح الشرفات الواسعة بالخروج والإطلال على الحدائق، لا مواقف السيارات. ويوجد جدار كامل من الزجاج الممتد من الأرض إلى السقف، يعرض منظرًا بانوراميًّا للمدينة من الجبال إلى البحر. زُر طاولة القهوة الإسبريسو للاستفادة من خدمة الإنترنت اللاسلكي المجاني.

تدفقت شمس البحر الأبيض المتوسط من النافذة وانعكست على الأرضية البيضاء. أعمى عينيَّ الوهجُ ووجدت نفسي في حالة من الحوَل الدائم في أثناء

الحديث مع موظفي ألتيما الجذَّابين والمُهندمين، بما فيهم «جوسيب»، مدير الدار الذي يرتدي بذلة دائمًا.

إلى جانب جوسيب، يعمل 63 شخصًا في المنشأة جيدة المنظَّمة. وتعمل الدار على نقل الجثث من محل وفاتها، وتجهيزها، واستخراج شهادات الوفاة، والالتقاء بالعائلات، وإدارة صلاة الجنازة. تتعامل ألتيما مع ما يقرب من ربع الوفيات الواقعة في برشلونة، وتأتيهم عشرة إلى اثنتي عشرة جثة يوميًّا. ويتاح للعائلات خيارا الدفن والحرق، إذ تبنت إسبانيا حرق الجثث ببطء، بفضل جذورها الكاثوليكية، مقارنة بالدول الأوروبية الأخرى، وتبلغ نسبة حرق الجثث 35% من إجمالي الجثث، و45% في مدينة برشلونة.

لفهم طقوس الموت في برشلونة، يجب أن تفهم الزجاج. الزجاج يعني الشفافية والمواجهة الصريحة مع حقيقة الموت الوحشية. ويعني الزجاج أيضًا الحاجز الصلب. يتيح لك الزجاج الاقتراب، ولكن يمنعك من اللمس.

تفتخر ألتيما باحتوائها على كنيستين صغيرتين وعشرين غرفة للعائلات، إذ يمكن للعائلات استئجار إحدى هذه الغرف وقضاء اليوم بأكمله مع ميِّتهم، حيث يأتون من الصباح ويبقون حتى تغلق الأبواب في العاشرة مساءً، وهو ما تفعله العديد من العائلات فعلًا. المشكلة أن الجسد سيظل خلف زجاج طوال الوقت.

لكن تتاح لك عدة خيارات في شكل الزجاج الذي يوضع بينك وبين عزيزك الميت. إذا اخترت العرض الإسباني، فستعرض ألتيما الفقيد في نعشه محاطًا بالزهور خلف لوح زجاجي كبير، يشبه نافذة متجر متعدد الأقسام. إذا كنت تفضِّل الطراز الكتالوني، فسيدفع فريق الدار التابوت المفتوح في حاوية عرض تتوسط الغرفة على غرار «الأميرة بياض الثلج».

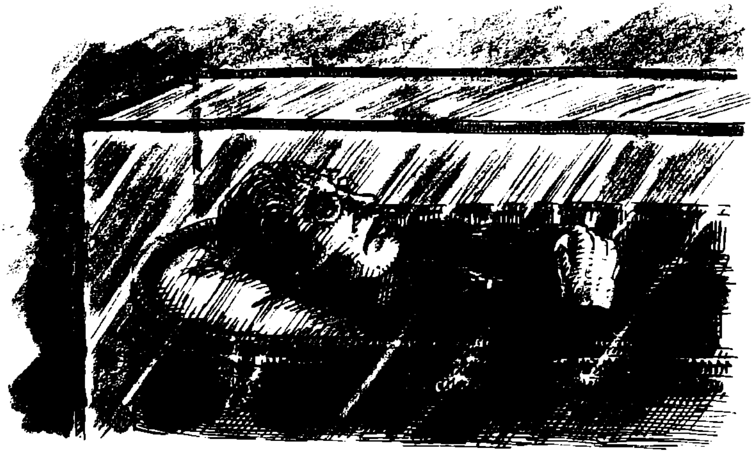

وفي كلتا الحالتين، تتمكن ألتيما من الحفاظ على درجة حرارة ثابتة حول الجسم تتراوح بين 0-6 درجات مئوية (32-42 درجة فهرنهايت).

خلف الكواليس، ثمة ممرات طويلة تنتظر فيها الجثث داخل توابيتها الخشبية حتى يحين وقتها في العرض. ثم تُفتح أبواب معدنية صغيرة مستوحاة من «أليس في بلاد العجائب» للسماح لموظفي ألتيما بإدخال الجسم إلى العرض أو الصندوق الزجاجي. تساءلتُ: «ما الكتالوني في النعش الزجاجي؟».

كان مترجمي هو «جوردي نادال»، رئيس شركة النشر التي أصدرت كتابي الأول في إسبانيا. أعتبر جوردي شخصية من رواية زوربا اليوناني، حيث ينتهز كل فرصة ليلقي مقولات حذقة، ويُبقي كأس نبيذك ممتلئة وطبقك عامرًا بالحبَّار والبايلا[1].

كان الجواب: «عائلاتنا الكتالونية تريد أن تقترب من الموتى».

(1) وجبة من الأرز والزعفران والمأكولات البحرية والدجاج – المترجم.

أردت أن أقول: «تقترب منهم بوضعهم خلف الزجاج كما تفعل معارض حديقة الحيوانات؟ ما الضرر الذي قد تتسبب فيه الجثث بالضبط؟».

الحقيقة أنني أمضيت الأسبوع السابق بأكمله في إسبانيا في مقابلات مع الصحافة الوطنية حول الطرق التي تُبقي بها دور الجنائز الحديثة أهل الميت بعيدًا عنه. وقد قرأ فريق ألتيما تلك المقابلات. وسماحهم لي بزيارة المنشأة من الأساس معجزة، ويُظهِر استعدادهم لاستخدام طرق بديلة لم أرها لدى أي شركة جنائز أمريكية قط. خفت أن ينفد حظي.

ولا أدَّعي أن الزيارة كانت خالية من الشد والجذب تمامًا، فقد سألني أحد الموظفين، وهو رجل كبير السن، هل أقضي وقتًا ممتعًا في برشلونة؟

قلت مازحة: «إنها فاتنة، لا أريد مغادرتها. ربما أبقى هنا وأقدِّم على وظيفة في ألتيما».

قال مازحًا: «مع آرائك هذه لن نوظفك».

لكن أمكنني سماع بعض الحدة في صوته.

- هل تقولون باللغة الإسبانية: أبقِ أصدقاءك قريبين وأعداءك أقرب؟

- آه، نعم. (ورفع حاجبيه) سنفعل ذلك.

اشتكى مَن تحدثت إليهم في برشلونة (المواطنون العاديون وعمَّال الجنائز على حد سواء) من التعجُّل في عملية الموت. شعر الجميع بضرورة دفن الجثة في غضون أربع وعشرين ساعة، ولا يعلم أحد السبب بالضبط. وشعر أهل الميت بضغط من مديري الجنائز لإنجاز الأمور بسرعة. وعلى الطرف المقابل، احتج مديرو الجنائز على العائلات التي «تريد إنجاز كل شيء بسرعة شديدة، وفي أقل من 24 ساعة». بدا الجميع محاصَرين في ساقية دورتها 24 ساعة. وتنوعت النظريات التي تؤكد على هذا الإطار الزمني

بين عوامل تاريخية مثل: الماضي الإسلامي في إسبانيا (يطلب الإسلام دفن الجثث بسرعة بعد الموت) إلى طقس البحر الأبيض المتوسط الدافئ، الذي يسرِّع تعفُّن الجثث أكثر من أي مكان آخر في أوروبا.

قبل القرن العشرين، لم يكن غريبًا الاعتقاد بخطورة الجثث وقدرتها على نشر الأوبئة والمرض. وقد أوضح الإمام د. «عبد الجليل ساجد» لـ «بي بي سي» أن التقليد الإسلامي في الدفن خلال أربع وعشرين ساعة الأولى «يُعد وسيلة لحماية الأحياء من أي مشكلات صحية». ويتبع التقليد اليهودي نفس القواعد. وهذا الخوف ألهم مختلف ثقافات العالم المتقدم فأقامت حواجز حماية بين الجثة وأهلها. فتبنت الولايات المتحدة ونيوزيلندا وكندا التحنيط الكيميائي لتحضير الجثث. ووضعوها هنا في برشلونة خلف الزجاج.

وسار التحوُّل إلى إزالة هذه الحواجز ببطء، رغم التصريحات الواضحة من جهات بارزة، كمنظمة الصحة العالمية، بأنه حتى بعد وقوع حادث تسبب في وفيات جماعية، «خلافًا للاعتقاد الشائع، لا يوجد دليل على أن الجثث تشكِّل خطرًا لنشر الأوبئة». وتأتي تصريحات مراكز السيطرة على الأمراض واتقائها أكثر صراحة: «منظر ورائحة التحلل مزعجان، لكنهما لا يشكلان خطرًا على الصحة العامة».

مع وضع ذلك في الاعتبار، سألتُ المالك «جوزيب»، هل يُسمح لأهل الميت بالاحتفاظ بجسده في منزله، دون صناديق زجاجية واقية؟ أصرَّ على أن ألتيما نادرًا ما تتلقى مثل هذا الطلب، إلا أنه وعدهم بالسماح بذلك، وسيرسل موظفيه إلى المنزل «لإغلاق الثقوب».

أخذنا مصعد بضائع في الطابق السفلي ودخلنا منطقة تحضير الأجساد. في إسبانيا، تُرسَل الجثث بسرعة كبيرة إلى القبر أو المحرقة ونادرًا ما تخضع للتحنيط. فلدى ألتيما بالفعل غرفة تحنيط تحتوي على طاولتين معدنيتين،

لكنها تقوم فقط بالتحنيط الكامل للجثث إذا كانت ستُنقَل إلى جزء مختلف من إسبانيا أو إلى خارج البلاد تمامًا. وعلى عكس الولايات المتحدة، حيث يجب على المحنِّطين الطموحين السعي إلى مزيج مبالغة فيه من شهادة كلية العلوم الجنائزية والتدريب المهني، تُجرى جميع التدريبات في إسبانيا في دار الجنائز، ودار الجنائز فقط. تفتخر ألتيما باستعارة خبراء التحنيط من فرنسا لتدريب موظفيها، «بمن فيهم الرجل الذي حنط (ليدي دي)!».

في غرفة تحضير الجسد، وجدتُ امرأتين مُسنتين متشابهتين، ترتديان سترات متطابقة وحول رقبتيهما جرحان متطابقان على شكل صليب، موضوعتان في تابوتين خشبيين متطابقين. رأيت موظفتين من فريق ألتيما تنحنيان على رأس المرأة الأولى وتجففان شعرها بمجفف الشعر، وموظفان على الثانية لدهن وجهها ويديها بكريم كثيف. كانت هذه الجثث في طريقها إلى الطابق العلوي، إلى النوم في توابيت زجاجية أو خلف جدران زجاجية.

سألتُ «جوردي»، ناشري، إذا كان قد رأى جثثًا كهذه من قبل، دون الحاجز الزجاجي. فأجاب بحيويته المعتادة بأنه لم يفعل قط، لكنه كان مستعدًّا للمواجهة.

وأضاف: «رؤية الحقيقة على هذا النحو أمر رائع دائمًا. يمنحك هذا ما تستحقه كإنسان. يمنحك الكرامة».

❋

«جوان» هو النسخة الأبيض والأسود من أخيه جوزيب. وهو مدير مقبرة الصخور البيضاء، إحدى مقابر ألتيما. وجدير بالذكر أن جميع المقابر الإسبانية عامة، لكن يمكن للشركات الخاصة، كألتيما، التعاقد على إدارتها لفترة زمنية محددة. تحوم عربة الجولف الكهربائية صعودًا وهبوطًا في أرجاء التلال المتدرجة بين ألواح القبور وحجرات الدفن البارزة. وتشبه

مقبرة الصخور البيضاء العديد من المقابر الأمريكية، مع وجود مجموعات من الزهور الزاهية على شواهد القبور الجرانيتية المسطحة.

لكن جانبًا واحدًا كان مختلفًا تمامًا. اتصل جوان بأحد حرَّاس المقبرة ليأتي إلينا عند قمة التل. لا توجد قبور في الأعلى، فقط ثلاث فتحات سرية في الأرض بأغطية دائرية. انحنى حارس الأرض لفتح الأقفال الثقيلة ودفع الدوائر المعدنية للخلف. ركعت معتمدةً على ركبتيَّ بجانبه وألقيت نظرة خاطفة، فوجدت تحت الأغطية ثقوبًا عميقة محفورة في جانب التل مملوءة من الأعلى بأكياس العظام وأكوام رماد الجثث المحترقة.

قد يأنف الأمريكي الشمالي من فكرة وجود مقبرة شاعرية تحتوي على مقابر جماعية مليئة بمئات من حاويات الرفات. لكن هذا هو الطبيعي في هذه المقبرة الإسبانية.

يبدأ الموتى رحلتهم في مقبرة الصخور البيضاء في قبر على مستوى الأرض أو في ضريح داخل الحائط. لكن الموتى لم يشتروا منزلًا في المقبرة، بل استأجروا شقة، ولديهم عقد إيجار، وإقامتهم في القبر محدودة.

قبل وضع الجثة في القبر، يجب على الأسرة استئجار فترة لا تقل عن خمس سنوات للتحلل. وعندما تتحلل الجثة وتصبح هيكلًا عظميًّا، ينضمون إلى إخوتهم في الحُفر المشتركة، مما يفسح المجال أمام المتوفين حديثًا. الاستثناء الوحيد للأجساد المحنَّطة (وهي كما قلنا، نادرة في إسبانيا)، فقد تحتاج هذه الأجساد إلى أكثر من عشرين عامًا قبل نقلها. ويُلقي طاقم جوان نظرة خاطفة دوريًّا على الجثث المحنطة، ويقولون: «أوه، حسنًا يا صديقي، لم تنته بعد!».

سيتعين على الجثة البقاء في القبر أو الجدار حتى تصبح جاهزة للانضمام إلى نادي العظام الجماعي.

إن عملية «إعادة تدوير القبور» ليست ممارسة تحتكرها إسبانيا، إذ تنتشر في معظم أوروبا، وهو ما يحير المواطن الأمريكي العادي، الذي ينظر إلى القبر على أنه منزل دائم. في إشبيلية، جنوب إسبانيا، لا توجد أرض فارغة لإقامة مقابر جديدة تقريبًا. ويبلغ معدل حرق الجثث هناك 80% (مرتفع للغاية بالنسبة إلى إسبانيا)، لأن الحكومة تدعم حرق الجثث حتى بلغت تكلفته بين 60 و80 يورو فقط؛ من الحكمة من الجهة الاقتصادية، أن تموت في إشبيلية.

في برلين، تؤجِّر العائلات الألمانية القبور مدة عشرين إلى ثلاثين عامًا. وفي الآونة الأخيرة، أصبحت أرض المقبرة ليست فقط عقارًا رئيسيًّا للموتى، ولكن للأحياء أيضًا. ومع توجُّه الكثيرين إلى حرق الجثث، تحولت المقابر القديمة إلى متنزهات وحدائق مجتمعية وملاعب للأطفال. وهذا تحوُّل يصعب التصالح معه. تعتبر المقابر مساحات جميلة تحمل قيمة ثقافية وتاريخية ومجتمعية. ولنفس السبب، تملك إمكانات ثقافية منعشة، كما تقول هذه الفقرة إذاعة بابلك ريديو إنترناشونال:

> *«هناك مقبرة برلين، التي نُزعت منها جميع الشواهد تقريبًا، وأصبحت الآن حديقة مجتمعية تشمل: حديقة صغيرة للاجئين السوريين بها نبات الطماطم والبصل والنعناع».*
>
> *وتستضيف الآن ورشة نحت شواهد القبور، الواقعة عند مدخل المقبرة، دروسًا في اللغة الألمانية للاجئين.*
>
> *وقال «فتوي طارقجن»، كبير البستانيين في المشروع المجتمعي: «إنها مساحة مهمَلة كانت تُستخدَم لدفن الناس، وتُستخدَم الآن في البستنة وإثراء البشر بأفضل طريقة ممكنة».*

تحاول مقبرة الصخور البيضاء أن تقدم أكثر من مجرد دفن الموتى. فقد فازت بجوائز لمبادراتها الخضراء. فأسطولها من المركبات كهربائي بالكامل، بما فيه: عربة النعش على شكل حشرة فضية من تصميم الطلاب في كلية التصميم ببرشلونة. وتستضيف الأرض البالغة عشرة هكتارات مستعمرات للسناجيب والخنازير البرية ومنازل خاصة للخفافيش. وتُزرَع مستعمرات الخفافيش عن قصد للسيطرة على الغزو الخطير لبعوض النمر الآسيوي، رُغم الهجوم الشديد على الإدارة لجرأتها على ربط مقبرتها بالخفافيش ومصاصي الدماء والزومبي الأشرار!

لكن رغم سلامة هذه المبادرات من الناحية البيئية، لا تُعد الصخور البيضاء مقبرة طبيعية، فهي تفرض دفن الموتى في توابيت خشبية في أقبية من الجرانيت، مكدَّسة في طبقات من شخصين أو ثلاثة أو ستة أشخاص. هذا محير. لمَ لا نضع الجسم مباشرة في التربة دون الجرانيت؟ سيسمح هذا للعظام بالتحلل تمامًا، مما يعني عدم الحاجة إلى تخصيص مساحة للمقبرة الجماعية، وبالتالي تحرير الأرض.

قال جوان: «نحن لا نفعل ذلك في إسبانيا».

وقد قرر جوان حرق جثته، لكنه تفهَّم التناقض في هذا الاختيار. «تحتاج إلى تسعة أشهر لإنجاب طفل، أما تدمير الجسم فشديد السهولة باستخدام عمليات حرق الجثث الصناعية».

استغرق في التفكير للحظة واحدة، ثم قال: «ينبغي أن تُترك للجسد الأشهر التسعة نفسها كي يتحلل».

همستُ لجوردي: «يبدو أنه يريد دفنًا طبيعيًّا!».

إسبانيا جيدة جدًّا في إنتاج الأفكار الخضراء لكل ما يتعلق بالموت تقريبًا. فخلال جولتنا مررنا ببستان للأشجار الأصيلة في منطقة البحر الأبيض المتوسط وموطنها الأصلي في هذه المنطقة.

وستزرع مقبرة الصخور البيضاء شجرة وتدفن خمسة أشخاص من عائلتك حولها، مما يجعلها شجرة العائلة حرفيًّا. إنها أول مقبرة في إسبانيا تقدم هذا الخيار.

تشبه «شجرة العائلة» الجِرار القابلة للتحلل الطبيعي التي حازت شعبية كبيرة، بايوز آرن، من إنتاج شركة تصميم مقرها برشلونة.

ولعلك رأيتها وأنت تتصفح وسائل التواصل الاجتماعي. تشبه بايوز آرن أكواب ماكدونالدز الكبيرة لكنها مملوءة بتربة بها بذرة الشجرة ومكان لرماد الجثة المحترقة.

حملت واحدة من أكثر المقالات شهرة حول بايوز آرن عنوان «هذه الجرة الرائعة ستحوِّلك إلى شجرة بعد الموت!» وهي فكرة جميلة، وقد تنمو الشجرة من التربة المصاحبة، ولكن بعد عملية حرق الجثث التي تبلغ 1800 درجة، تتحوَّل العظام المتبقية إلى الكربون البسيط غير العضوي. فمع احتراق كل شيء عضوي (بما في ذلك الحمض النووي)، لم يعد رمادك المعقَّم مفيدًا للنباتات أو الأشجار على الإطلاق. هناك عناصر غذائية، لكن تركيبتها غير مناسبة تمامًا للنباتات،

ولا تساهم في الدورات البيئية. تُكلِّف جرَّة بايوز آرن 145 دولارًا. الرمزية جميلة، لكن الرمزية لا تجعلك حقًّا جزءًا من الشجرة.

لدى مقبرة الصخور البيضاء نوعان من أفران حرق الجثث، تعمل على حرق 2600 شخص كل عام. حين دخلتُ لرؤية الآلات، فوجئت برجلين يرتديان بذلات ويحيطان بتابوت خشبي فاتح عليه صليب، وينتظران ويداهما متشابكتان أمام فرن يعمل منذ فترة. «أوه، انتظرتمانا! ممتاز! شكرًا لكما!» أشعر بالحماس كلما شهدت عملية حرق. لن أعتاد هذا أبدًا مهما كثر إشرافي أو إجرائي له. إن الوقوف في حضرة جثة على بعد لحظات من التحوُّل بالنار لهو أمر في غاية القوة.

اصطحبنا جوان في جولة قصيرة في غرفة حرق الجثث، التي تتضمن آلة حرق الجثث الموجودة منذ 15 عامًا والمستخدَمة في عمليات حرق الجثث التي تشهدها الأسرة. وقد كانت أجمل بكثير من المستودعات الصناعية الموجودة في أمريكا. شرح لنا أن «الجدران من الرخام الإيطالي والأرضية من الجرانيت البرازيلي».

وأعلن جوان أن «60% من العائلات تأتي للشهادة على حرق الجثة». هنا انفتحت أفواهنا حتى اصطدمت بالأرضية الجرانيتية المصقولة.

استدركت: «معذرة! 60%؟».

هذا رقم هائل، أعلى بكثير من نظيره في الولايات المتحدة، حيث لا تعرف العديد من العائلات من الأساس أن لديهم خيار الشهادة على حرق الجثث.

قبل أن يبدأ حرق الجثة، أحضرتها جوان خارج الغرفة، خلف ثلاثة ألواح زجاجية تمتد من الأرض إلى السقف. وكانت متطابقة مع الألواح الثلاثة التي تفصلنا عن الجسد في دار الجنائز.

سألت جوان: «لماذا تستخدمون الزجاج مع الحرق؟».

أجاب: «الزاوية بهذه الطريقة تحجب رؤية النيران داخل الفرن بالكامل».

وهي حقيقة. فمهما حاولت، لم أستطع رؤية النار، وكل ما رأيته حافة آلة حرق الجثث. أدخل الرجلان التابوت في الآلة المبطنة بالطوب. عندما نزل الباب المعدني الثقيل، سحبا بابًا خشبيًّا أنيقًا أمام الفرن، وأخفيا الواجهة الصناعية للآلة.

برشلونة هي أرض «يكاد». لقد أطلقوا مبادرات للمقابر البيئية، والحفاظ على الحيوانات، وزراعة الأشجار المحلية. لم تُحنَّط لديهم الجثث، ولم تُدفن في توابيت خشبية. يكاد أن يكون هذا دفنًا أخضر، باستثناء القلعة الجرانيتية التي تحتِّم وضع التابوت فيها. لقد شهدوا عمليات حرق جثث حضرها 60% من الأهالي، ودور جنائز يمكن للعائلة أن تقيم فيها يومًا كاملًا مع أحبائها. يكاد يكون نموذجًا للتفاعل الأسري مع الميت، لكن هناك زجاجًا يفصل الأسرة عن الجسد حين يراه الأهل وعند حرق الجثة، مما يجعل الميت كقطعة في متحف.

أردت أن أعتد برأيي في استخدام الزجاج، لكنني لم أستطع، لسبب بسيط: باستخدام الرخام والزجاج الأنيق، قدمت ألتيما الشيء الوحيد الذي تحتاج إليه الولايات المتحدة أكثر من أي شيء آخر: الحضور. أتى الناس عند وقوع حالات الوفاة. أتوا للمشاهد التي تمتد إلى يوم كامل، وجلسوا طويلًا بالقرب من الجسد. لقد أتوا لحضور حرق الجثث: 60% منهم أتوا في هذا الموقع. ربما كان الحاجز الزجاجي هو عجلات التدريب المطلوبة للسماح للجمهور الحذِر بالاقتراب من الموت دون أن يقترب بشدة.

تستغرق عملية الحرق نحو 90 دقيقة. أخذتُ «جوان جوردي»، ناشري، إلى خلف الماكينة، حيث لا تذهب العائلة. فتحت نافذة معدنية صغيرة، تسمح لنا بالتحديق داخل غرفة الحرق. هبطت ألسنة عنيفة من اللهب من السقف والتهمت الجزء العلوي من التابوت.

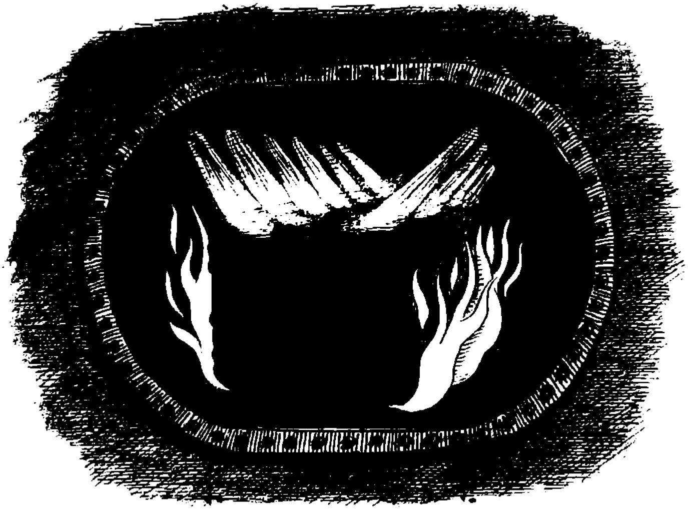

اتسعت عينا جوردي عندما نظر إلى الداخل، وانعكست ألسنة اللهب على مقلتيه.

ومقابل إرشادي داخل برشلونة، كانت مكافأة جوردي المسكين العديد من الاحتكاكات المقرَّبة مع الموتى. وفيما كنا نأكل ما بدا وكأنه عشاء من 14 طبقًا في المدينة، سألتُه عن رأيه في اليوم.

فكَّر ثم أجاب: «عندما يحين موعد سداد فواتيرك، عليك دفعها. في شركتي، أسدد فواتيري. وهنا في هذا المطعم، أسدد فاتورتي. والأمر كذلك مع المشاعر: عندما تأتي المشاعر، وهي هنا الخوف من الموت، يجب أن أشعر بها. يجب أن أسدد فواتيري. هذه هي الحياة».

اليابان

طوكيو

توقَّف توكودان، البرنامج التلفزيوني الياباني الصباحي، من أجل فاصل إعلاني. ظهرت نساء ببذلات على شكل العنب يرقصن على إيقاع إلكتروني نابض. ثم قصَّت الأرانب المتحركة الشعر المستعار لرجل بدا مذهولًا.

عاد توكودان! وقدَّم المضيفون الفقرة التالية، التي بدأت براهب يرتدي رداءً أبيض ويُصلي في معبد. أحاطت بالمكان الأزهار والبخور، وبدا أنه يترأس جنازة.

كان المعبد مكتظًّا بالمُعزِّين المضطربين. ثم تراجعت الصورة لتكشف عن النُّصب ومصدر كل هذا الحزن: 19 كلبًا آليًّا. اقتربت الكاميرا من أقدامهم المكسورة وذيولهم المقطوعة. ظللت أشاهد التلفزيون خلال الإفطار في الفندق باهتمام كبير، وأتناول البيض المقلي على شكل قلوب.

في عام 1999، أطلقت شركة الإلكترونيات العملاقة سوني الـ «أيبو» (أي: «الرفيق» باللغة اليابانية). كان للكلاب الروبوتية التي تزن 3.5 رطل القدرة على التعلُّم والاستجابة بناءً على أوامر مالكها. وبجمال وسحر كانت الأيبو تنبح وتجلس وتحاكي عملية التبول. وادَّعى أصحابها أن هذه الجراء ساعدتهم في مقاومة الشعور بالوحدة والمشكلات الصحية. وقد أوقفت سوني إنتاج أيبو في عام 2006، لكنها وعدت بمواصلة تقديم خدمات الصيانة. ثم، في عام 2014، توقفوا عن تقديم خدمات الصيانة أيضًا، وهو درس قاسٍ لمالكي ما يقرب من الـ 150 ألف أيبو التي باعتها سوني. لكن انتشرت الصناعة المنزلية للبيطريين الآليين ومنتديات دعم ألم الفقد عبر الإنترنت، وبلغت ذروتها في جنازات الأيبو بصورة مأسَوية لا يمكن إصلاحها.

وبمجرد انتهاء فقرة توكودان، توجهتُ إلى طوكيو ممتلئةً بالبيض المُشكَّل بشكل قلب لمقابلة المترجمة «إميلي (أياكو) ساتو». اقترحت أن نلتقي عند تمثال «هاتشيكو» في محطة سكة حديد شيبويا. هاتشيكو بطل قومي في اليابان. وهاتشيكو كلب (حقيقي) أيضًا. فخلال الثلاثينيات ظل يلتقي بمالكه، أستاذ الزراعة، في محطة السكة الحديد كل يوم بعد العمل. وذات يوم، لم يأت الأستاذ قط لمقابلة هاتشيكو بسبب وفاته بنزيف في المخ. لكن هذا لم يُثنِ هاتشيكو، فعاد إلى المحطة كل يوم على مدار السنوات التسع التالية حتى أوقف الموت هذه الطقوس. تعتبر الكلاب نقطة التقاء قوية بين مختلف الثقافات، فكل إنسان تقريبًا يحترم الكلاب المخلصة.

كانت «ساتو سان» تنتظرني حين وصلت، وهي امرأة في أواخر منتصف العمر لم يتجاوز مظهرها الأربعين ولو بيوم. كانت ترتدي بذلة رياضية وتنتعل حذاء مشي مناسبًا.

قالت: «سرُّ جمالي هو المشي عشرة آلاف خطوة كل يوم».

كدت أفقدها عدة مرات عندما نزلنا إلى أحشاء متاهة محطة شيبويا وفرَّقت بيننا حشود أهل طوكيو المتأنقين.

ابتسمت ابتسامة عريضة وقالت: «ربما ينبغي أن أرفع علمًا كالذي يحمله قادة المجموعات السياحية، وعليه شعار جمجمة من أجلك فقط».

بعد بابين دوَّارين وثلاثة سلالم عادية وأربعة متحركة، وصلنا إلى رصيفنا.

أعلنت ساتو سان: «نحن آمنون هنا أكثر من الزلازل».

لم يكن كلامها هذا بلا سياق، ففي ذلك اليوم وحده ضرب المدينة زلزال بقوة 6.8 درجة قبالة الساحل. لا يمكنني التحدث إلى أي شخص في طوكيو دون أن يتحدث عن التأثير النفسي لزلزال 2011، مع موجة التسونامي التي تلته وضربت شمال شرق اليابان، مودية بحياة أكثر من 15 ألف شخص.

على رصيف مترو الأنفاق، تفصل أبواب زجاجية الركَّاب عن القضبان الموجودة تحتهم.

أوضحت ساتو: «هذه الحواجز جديدة نوعًا ما. إنها هنا لسبب واحد... (وخفضت صوتها ثم تابعت) لمنع الانتحار».

يُعد معدل الانتحار في اليابان الأعلى بين دول العالم المتقدم.

أضافت ساتو: «للأسف، أصبح عُمال قطار الأنفاق محترفين للغاية في تنظيف حوادث الانتحار في القطار، وجمع أجزاء الجثة وما إلى ذلك».

من وجهة نظر القِيم اليهودية المسيحية، وبالتالي، من وجهة النظر الغربية السائدة، يُعتبر الموت بالانتحار عملًا أنانيًّا وخطيئة. ومع أن هذا التصور آخذ في الاختفاء ببطء، ورغم وضوح العلم في أن الانتحار له أسباب جذرية من الاضطرابات النفسية التي يمكن تشخيصها وتعاطي المخدرات («الخطيئة» ليست من معايير الدليل التشخيصي والإحصائي الخامس للاضطرابات النفسية).

لكن المعنى الثقافي للانتحار في اليابان مختلف، إذ يُنظر إليه على أنه عمل غير أناني، بل إنه عمل شريف. فقد اخترع الساموراي ممارسة سيبوكو، حرفيًّا بمعنى «قطع البطن»، وهو نزع الأحشاء بالسيف لمنع الوقوع في أسر العدو.

وفي الحرب العالمية الثانية، قُتل ما يقرب من 4 آلاف رجل ضمن طياري كاميكازي، الذين حوَّلوا طائراتهم إلى صواريخ واصطدموا بسفن العدو. تحكي الأساطير المشهورة المشكوك فيها، عن الهجر، حيث يحمل الأبناء في أوقات المجاعة أمهاتهم المسنات على ظهورهم إلى الغابة ثم يتركونهن هناك في أوقات المجاعة، حيث تبقى المرأة بتفانٍ في مكانها، وتستسلم لانخفاض درجة حرارة الجسم أو الموت جوعًا.

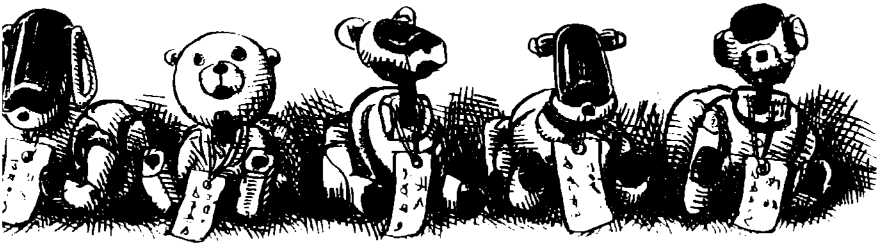

يقول الغرباء إن اليابانيين يضيفون الطابع الرومانسي على الانتحار، وإن اليابان لديها «ثقافة انتحار». لكن الواقع أعقد من هذا. إن وجهة النظر اليابانية لقتل النفس باعتباره إيثارًا تدور حول الرغبة في ألا يتحوَّل المرء إلى عبء على من حوله، وليست انبهارًا بالفناء في حد ذاته. علاوة على ذلك، «يمكن للدارسين الأجانب النظر إلى إحصائيات الانتحار، لكنهم لن يفهموا الظاهرة»، كما يقول الكاتب «كينشيرو أوهارا». «اليابانيون فقط هم من يفهمون انتحار اليابانيين».

بالنسبة إليَّ، كان رصد الموت في اليابان أشبه بالمشاهدة من خلف زجاج: كل شيء مألوف، ولكن مشوش. فمثل أمريكا، تُعد اليابان دولة متقدمة، والجنائز فيها والمقابر تجارة كبيرة. وتلعب شركات الجنائز الكبيرة دورًا كبيرًا في كل من الأسواق الغربية واليابانية. ومرافِقها العريقة تمتلئ بعمَّال الموت المحترفين. ولو كان الواقع كذلك، فما من داعٍ لأن أزورها، لكن هذه ليست القصة الكاملة.

يقع معبد كوكوجي البوذي في مبنى من القرن السابع عشر وينزوي في شارع هادئ في طوكيو، وبداخله مقبرة متواضعة، حيث تمثل شواهد القبور القديمة أجيالًا من العائلات التي أتت للعبادة هنا. رأيت قطة اختلط فيها الأسود بالأبيض تتسكع على الطريق الحجري. لقد خرجنا من طوكيو الحديثة ودخلنا فيلمًا لميازاكي[1]. ظهر الجوشوكو «ياجيما» (جوشوكو يعني الرئيس الكاهن أو الراهب) لاستقبالنا، وهو رجل لطيف في رداء بني بشعر أبيض قصير ونظارات.

على النقيض من محيطه القديم، بدا الجوشوكو ياجيما رجلًا صاحب فكر تقدمي، وبخاصة حول كيفية إحياء ذكرى بقايا الجثث المحترقة (صنف البشر الذي أحبه). يُبدي مديرو الجنازات في الولايات المتحدة خوفًا من فكرة «ثقافة حرق الجثث» الوطنية، التي من شأنها أن تقوِّض أرباحهم من عمليات التحنيط ومبيعات النعش. لكن في الواقع، لا نملك أي فكرة عما قد تبدو عليه «ثقافة حرق الجثث» التي يشترك فيها جميع أفراد الشعب. أما اليابان فلديها فكرة، لأن معدل حرق الجثث هناك يبلغ 99.9%، وهو أعلى معدل في العالم. ولا يوجد بلد آخر يقترب منه (آسفة يا تايوان: 93%، وسويسرا: 85%).

وظل الإمبراطور والإمبراطورة آخر المقاومين، إذ حافظوا على اختيارهما لدفن الجسد بهيئته المكتملة. لكن قبل عدة سنوات، أعلن الإمبراطور «أكيهيتو» وزوجته الإمبراطورة «ميتشيكو» أنهما سيُحرقان أيضًا، متجاوزين 400 عام من تقاليد الدفن الملكية.

حين امتلأ معبد كوكوجي عن آخره، كان بإمكان الكاهن أن يشتري مساحة لجعلها مقبرة على النمط القديم، لكنه بنى قبل سبع سنوات كولومباريوم روريدين. (الكولومباريوم هي مبانٍ منفصلة لتخزين البقايا المحروقة).

(1) مخرج ومؤلف ياباني – المترجم.

فسَّر لي: «ظلت البوذية دائمًا حديثة. من الطبيعي جدًّا استخدام التقنيات بالتماشي مع البوذية. لا أرى أي تعارض».

وبناءً على هذا، اصطحبنا عبر الأبواب ليُريَنا أحدث مبنى سداسي في المجمَّع.

وقفنا في الظلام فيما ضغط ياجيما على شيء ما في لوحة المفاتيح عند المدخل. بعد لحظات، بدأ ألفا تمثال بوذي يملؤون الحائط من الأرض إلى السقف في التوهج والنبض باللون الأزرق الزاهي. خرجت منا أنا وساتو «واه» في تناغم تام، بذهول وسعادة. لقد رأيت صورًا لروريدن، لكن أن يُحيطني من كل جانب تمثال مضيء لبوذا لَأمر مربك!

فتح ياجيما بابًا مغلقًا، وألقينا نظرة خاطفة خلف الجدران التي خرجت منها التماثيل لنجد 600 مجموعة من العظام.

ابتسم قائلًا: «وضعنا علامة عليها لتسهيل العثور على الآنسة كوبوتا».

كانت كل مجموعة من بقايا الجثث المحترقة تقابل تمثالًا كريستاليًّا لبوذا على الحائط.

وعندما يأتي أحد أفراد الأسرة للزيارة، فإنهم إما يكتبون اسم المتوفَّى وإما يسحبون بطاقة ذكية بشريحة، على غرار البطاقات المستخدَمة في الطرق الفرعية لطوكيو. بعد إدخال مفاتيح العائلة عند المدخل، تضيء التماثيل باللون الأزرق، باستثناء بوذا واحد يتلألأ باللون الأبيض الصافي. لا داعي لتقليب النظر في الأسماء بحثًا عن أمك، فالنور الأبيض سيرشدك إليها مباشرة.

قال ياجيما: «كل هذا لا يزال تحت التطوير. على سبيل المثال، بدأنا بلوحة تعمل باللمس، حيث يُكتب اسم الميت. وذات يوم رأيت امرأة عجوزًا تعاني

لكتابة الاسم، وعند ذلك قررنا الحصول على تقنية البطاقات الذكية. كان عليها فقط تمرير البطاقة على الجهاز للعثور على ميِّتها على الفور!».

عاد ياجيما إلى لوحة التحكُّم وأمرنا بالوقوف في وسط الغرفة.

أعلن: «مشهد الخريف!»، فتحولت تماثيل بوذا إلى اللون الأصفر والبني مع تحرُّك البقع الحمراء وكأنها أكوام من الأوراق الواقعة حديثًا. «مشهد الشتاء!» فتحولت تماثيل بوذا إلى عواصف ثلجية ذات لون أزرق فاتح وأبيض. «الشُّهب!» فتحولت تماثيل بوذا إلى اللون الأرجواني وقفزت البقع البيضاء من بوذا إلى بوذا، وكأنها حركة بالرسوم المتحركة لسماء الليل.

لا تُفسِح غالبية الكولومباريا مجالًا للابتكار، فتصميمها جميعًا هو نفسه في جميع أنحاء العالم: صفوف لا تنتهي من جدران الجرانيت، حيث يُحفظ الرماد خلف أسماء الموتى المحفورة. وإذا كان التميز أولوية بالنسبة إليك، فقد يُسمح لك بلصق صورة صغيرة أو دب محشو أو باقة من الزهور.

كان من الممكن أن يظن الإنسان أن هذا العرض الضوئي من إنتاج ديزني، ولكن ثمة شيئًا في التصميم المتطور للأضواء جعلني أشعر وكأنني محشورة في رحم عملية تلوين الأفلام الكرتونية.

أوضح ياجيما أن «الحياة الآخرة للبوذية مليئة بالكنوز والنور».

ويصف عالِما الدين «جون أشتون» و«توم وايت» الأرض النقية (العالم السماوي لدى البوذيين في شرق آسيا) بأنها «مزيَّنة بالجواهر والمعادن الثمينة ومزينة بأشجار الموز والنخيل. تنتشر بكثرة البِرك المنعشة الرائعة وزهور اللوتس، وتغني الطيور البرية بمديح بوذا ثلاث مرات في اليوم».

خلال تصميم الروريدين، حاول ياجيما خلق «الحياة الآخرة على طريقة بوذا».

لم تكن أضواء بوذا دائمًا بهذه الدقة. كان أحد أوائل زوَّار المنشأة الجديدة مصمِّمة أضواء تطوعت لإنشاء مشاهد للمواسم الأربعة. «في البداية، بدت الأضواء وكأنها عرض في لاس فيجاس!».

ضحك ياجيما وقال: «قلت لها: هذه ليست لعبة! هذه مبالغ كبيرة! وألغينا ما حدث. قلت لها: اجعليه طبيعيًّا قدر الإمكان. لا يزال العمل جاريًا لخلق هذا المناخ: المناخ الطبيعي قدر الإمكان».

دعانا ياجيما لتناول الشاي داخل المعبد وقدَّم لي كرسيًّا مُعدًّا لزيارة الأجانب. كان يعتقد أنني لا أستطيع تحمل الجلوس القرفصاء على الحصير طوال فترة تناول الشاي والحوار. أكدتُ له أنني أقدر على هذا. (لم أقدر. خدرت ساقاي بشكل مؤلم بعد أول ثلاث دقائق).

سألت ياجيما لماذا صُمِّم روريدين بهذه الطريقة، وكان رده حماسيًّا: «توجب علينا التحرُّك، توجب علينا فعل شيء. أصبح الأطفال في اليابان أقل من السابق، وأعمار الكبار أطول من السابق. من المفترض أن تعتني العائلة بقبرك، لكن لا يتبقى عدد كافٍ من العائلات للعناية بجميع القبور. توجب علينا فعل شيء لمَن تُركوا دون أحد».

❋

تخطى ربع سكان اليابان السنة الخامسة والستين، وهو ما أدى، مع انخفاض معدل المواليد، إلى تقلص عدد سكان اليابان بمقدار مليون شخص في السنوات الخمس الماضية. وتتمتع اليابانيات بأطول متوسط عمر متوقَّع في العالم، ويأتي اليابانيون في المرتبة الثالثة. والأهم من ذلك، أن «متوسط العمر الصحي المتوقع» -ليس مجرد التقدم في السن، بل التقدم في السن مع عدم الاعتماد على أحد- هو الأطول لدى كلا الجنسين. ومع تقدم السكان في العمر، تتضخم الحاجة إلى الممرضات ومقدمي الرعاية. لذا

فمن بلغ السبعين هو من يرعى من تجاوزوا التسعين. تعلم مترجمتي، «ساتو سان»، ذلك جيدًا، فهي نفسها مسؤولة عن رعاية ستة أشخاص: والديها ووالدَي زوجها واثنين من أعمامها. وجميعهم في منتصف الثمانينيات أو أوائل التسعينيات. قبل بضعة أشهر، توفيت عمتها الكبرى عن 102 سنة. لقد عمل جيش المسنين هذا «السوق الفضية» طوال حياتهم، وادخر المال، ولم يُنجب سوى القليل من الأطفال. لكن لديهم مالًا يعتمدون عليه. تقول صحيفة وال ستريت جورنال إن «إحدى أكثر الكلمات جاذبية في عالم التجارة الياباني هي «شو كاتسو»، أي «نهاية العمر»، التي تعني مجموعة ضخمة من المنتجات والخدمات الموجَّهة إلى الأشخاص الذين يستعدون لآخر سنواتهم في الحياة.

وقد ارتفعت عائدات صناعة الموت اليابانية بمقدار 335 مليار ين (3 مليارات دولار أمريكي) منذ عام 2000. فمثلًا تقدِّم شركة فاينال كتور أكفانًا بتصميمات خاصة ومصورين متخصصين لالتقاط صور نهاية العمر التي ستُعلَّق في الجنازة.

ويحضر الزبائن قبل سنوات من جنائزهم لشراء تماثيلهم في الروريدين. ويشجعهم ياجيما على الإكثار من الزيارة والصلاة للآخرين، وبالتالي مواجهة موتهم هم. وعندما يموتون، «سيرحِّب بهم مَن سبقوهم إلى بوذا».

ثمة مَن لا يخططون للمستقبل، وليس لديهم عائلة مقرَّبة. وهؤلاء هم من تترك أجسادهم خطوطًا بنية حمراء قاتمة على السجاد أو أغطية الأسرَّة بعد عدم اكتشاف وفاتهم لأسابيع أو شهور من وقوعها. إنهم ضحايا وباء الكودوكوشي الياباني، أو «موت الوحدة»: كبار السن الذين يموتون منعزلين ووحيدين، دون أن يجد أحد جثثهم، ناهيك بزيارة قبورهم والصلاة عندها. لدرجة أن هناك شركات متخصصة يستأجرها أصحاب العقارات لتنظيف آثار الكودوكوشي.

عندما بنى ياجيما الروريدن، فكَّر في الرجل الذي ليس له أبناء ويقول: «ماذا سأفعل، من سيُصلي من أجلي؟»، وفي كل صباح، يدخل ياجيما إلى الروريدن، ويُدخل عبر الشاشة تاريخ اليوم. في ذلك الصباح كتب 13 مايو، فتوهَّجت عدة تماثيل بالأصفر، لتُبرز الأشخاص الذين ماتوا في مثل هذا اليوم. أشعل ياجيما البخور وصلى من أجلهم. إنه يتذكرهم، حتى لو لم يملكوا عائلة تتذكرهم. بالنسبة إلى امرأة أو رجل مسن لم يترك عائلة، ستمثل تماثيل بوذا المتوهجة في الروريدن مجتمعه في الحياة الآخرة.

وربما نعتبر الجوشوكو ياجيما كاهنًا قويًّا، لكنه أيضًا مصمم مبدع.

يقول: «عندما أصلي، أفكر أيضًا في الإبداع. كيف نصنع شيئًا جديدًا مليئًا بالأضواء الباهرة؟ كيف نصنع تماثيل بوذا جديدة؟».

بالنسبة إليه، فإن فعل الصلاة ضروري للإبداع: «في كل مرة أصلي، تأتيني الأفكار المختلفة؛ أنا لست رجلًا يجلس إلى مكتب لوضع خطة. يحدث كل شيء وأنا أصلي».

- ماذا ستفعل حين يمتلئ الروريدن بالرماد؟
- إذا امتلأ، فسأفكر في بناء ثانٍ أو ثالث (وأتبع ذلك بابتسامة). أنا أفكر في ذلك بالفعل.

في أوائل القرن العشرين، كانت محارق الجثث التي يديرها القطاع الخاص في اليابان (على الأقل في نظر الصحافة) أوكارًا للأشرار، فقد ترددت شائعات عن أن القائمين على محارق الجثث يديرونها لسرقة الأسنان الذهبية من الموتى. والأغرب من ذلك ما تداولته الصحف من أنهم يسرقون الأعضاء التي تدخل بعد ذلك في صناعة أدوية يُزعم أنها تعالج مرض الزهري. ما

زالت الآلات تعمل بحرق الأخشاب بدلًا من الغاز، لذلك تستغرق العملية وقتًا طويلًا، فيجب أن تغادر العائلة المحرقة وتعود إلى الدار لأن الجسد يحترق طوال الليل.

أوضح المؤرخ «أندرو برنستاين» أنه «كإجراء احترازي ضد سرقة الأعضاء أو الأسنان الذهبية، أو الجواهر، أو قطع من الملابس، يستلم أهل الميت مفاتيح الأفران المنفصلة، وعليهم إعادتها إلى المحرقة عند رجوعهم لاستعادة العظام والرماد»، مثل دواليب محطة الحافلات.

وقد قدَّمت قاعة ميزو للجنائز، التي تأسست في عام 1938 بصفتها محرقة عامة، نهجًا أكثر حداثة، فقد استخدمت الآلات الوقود، مما أتاح للعائلات التعامل مع كل شيء في يوم واحد (دون الحاجة إلى مفاتيح). ورأى داعمها ضرورة إعادة تقديم المحارق بوصفها «مراكز جنائزية» ووضعها في أماكن تشبه الحدائق كشكل من أشكال «الإدارة الجمالية». وبعد ثمانين عامًا، لا تزال قاعة ميزو في المجال، ولا تزال تستفيد من «الإدارة الجمالية». يتاخم المجمع المترامي الأطراف نهرًا من الغرب وحدائق وملعبًا من الجنوب ومدرسة إعدادية ومدرستين ابتدائيتين من الشرق.

ومثل ميزو، تقدِّم رينكاي، إحدى المحارق التي زرتها، تجربة موت كاملة، ففي يوم زيارتي لها، وجدت أربع جنائز منفصلة وبعدها جنازات أخرى موزَّعة على اليوم.

يصل موظفو شركة الجنازات الخاصة مبكرًا جدًّا عن وصول العائلات التي كانت تأتي بأكاليل الزهور وغيرها من الإضافات الرائعة لتزيين الغرفة: الخيزران والنباتات والكرات المتوهجة (لقد تأثرت كثيرًا بالكرات المتوهجة). أوضحت عالمة الأنثروبولوجيا الاجتماعية «هيكارو سوزوكي» أنه في اليابان الحديثة (كما هو الحال في الغرب) «يتولى المحترفون إعداد وترتيب وإجراء

مراسم جنازة تجارية، ولا يتركون للثكالى إلا الرسوم التي يجب عليهم دفعها».

وقد عبَّر أحد الذين أجرت معهم سوزوكي مقابلة، وهو رجل يبلغ 84 عامًا، عن حسرته على فقدان الطقوس المتعلقة بالموت. واشتكى من أن الجميع كان يعرف في الخمسينيات ما ينبغي لهم فعله بالضبط عند موت شخص ما، ولم يحتاجوا إلى دفع المال لشخص ما من أجل مساعدتهم.

قال: «انظروا إلى شباب اليوم في حالات الوفاة، أول شيء يفعلونه هو الاتصال بشركة إقامة الجنائز. هذا تصرف الأطفال العاجزين. ومثل هذا الموقف المحرج لم نره في الماضي».

والصادم حقًّا، كما قالت زوجته، أن «شباب اليوم لا يبدو عليهم أي إحراج من ذلك أيضًا»، ففوق أنهم أُمِّيون بما يخص الموت، ليس لديهم أي مانع.

بطبيعة الحال، تتعجب الأجيال الشابة من الخرافات القديمة، فالرجل نفسه أقر بأن حفيدته (طالبة طب) سخرت منه حين حكى لها عن جنازات الماضي، حيث «مُنعت الحوامل من الاقتراب من المتوفى. واعتقد الجميع أنه في حال قفزت قطة فوق رأس المتوفى، فستدخل الروح الشريرة للحيوان إلى الجثة وتجعل الجسد يرتفع في الهواء». ولمنع الجثة من التحول إلى قطة زومبي شريرة، «تُبعَد القطط عن الموتى...»..

هُيئت كل قاعة من القاعات الأربع في رينكاي لجنازة أربع مسنات مختلفات. فوُضعت الشاشات لعرض صورهن عند باب القاعة بالقرب من النعش. وفي صورة السيدة «فومي»، ظهرت ترتدي سترة زرقاء فوق قميص أبيض بياقة.

وفي غرفة جانبية صغيرة، استراحت السيدة «تاناكا» نائمة دون تحنيط في نعش خزاميٍّ مُعَد للحرق مع الجثة، وحولها دُس الثلج الجاف[1] لإبقائها باردةً. أحاط بها أهلها مطأطئين رؤوسهم. ستُقام جنازتها من الساعة 10 صباحًا حتى ظهر اليوم التالي، ويليها مباشرة حرق الجثة.

اجتمع الرجال المسنون في غرفة منفصلة، ودخَّنوا سجائرهم بعيدًا عن عامة المُعزِّين.

قالت ساتو سان: «أتذكر قاعات الجنازات قبل غرف التدخين. كان اختلاط دخان السجائر ببخور الجنازة فظيعًا».

وأشبهت المحرقة نفسها، حيث نُقلت الجثث بعد جنازاتها، مدخل مبنى إداري فاخر في نيويورك، وكل شيء فيها من الجرانيت الداكن. والمقارنة بين المحرقة اليابانية والأمريكية، كالمقارنة بين سيارة ليكسس جديدة برَّاقة وسيارة نصف نقل قديمة.

اختبأت عشرة أفران حرق خلف عشرة أبواب فضية، مُلمَّعة بدقة تجعلها خالية من اللطخات. وأدخلت أحزمة نقل رمادية من الفولاذ المقاوم للصدأ الموتى في كل فرن. كانت هذه أنظف وأملس محرقة رأيتها في حياتي.

وعلى باب المحرقة، توجد قائمة الأسعار: تكلفة حرق جثة الجنين 9 آلاف ين، ولعضو واحد من الجسم 7500 ين، و2000 ين لفصل عظام شخص بالغ في جِرار منفصلة. كما عُلِّقت قائمة بالعناصر التي لم يُسمح للعائلة بوضعها في الحرق بجانب أحبائهم المتوفين، وتشمل على سبيل المثال لا الحصر: الهواتف المحمولة، وكرات الجولف، والقواميس، والحيوانات المحشوة الكبيرة، وتماثيل بوذا المصنوعة من المعدن، والبطيخ.

قلت: «مهلًا! ماذا؟ البطيخ! حقًّا؟».

(1) لم يشبه الأغنية المصوَّرة «رويلنج فوج» – المترجم.

هزَّت ساتو سان كتفيها وقالت: «هذا هو المكتوب!».

يصاحب الجثة ثلاثة أقارب أو نحو ذلك إلى المحرقة، بما فيهم أقرب الناس إليها (غالبًا الزوج أو الابن الأكبر)، ويراقبونها وهي تنزلق داخل الآلة. لا تراقب الأسرة عملية حرق الجثة نفسها، بل تجلس بدلًا من ذلك في مكتب الاستقبال في الطابق العلوي. وعندما يكتمل حرق الجثث، يذهبون إلى ثلاث غرف خلف المحرقة مخصصة لطقس التقاط العظام.

بعد حرق الجثة، يُسحب هيكل عظمي مجزأ (ولكن كامل) من الفرن. في المحارق الغربية يجب سحق هذه العظام وتحويلها إلى مسحوق رماد، أما في اليابانية فلا يفعلون هذا عادةً. تدخل العائلة إلى إحدى تلك الغرف، حيث ينتظر الهيكل العظمي.

ثم يستلمون أزواجًا من عيدان تناول الطعام، أحدهما من الخيزران والآخر من المعدن. يبدأ أقرب الأقارب بالقدم، ويلتقط العظام بالعيدان ويضعها في الجرة. ثم ينضم أفراد العائلة الآخرون ويُكملون الهيكل العظمي. ولن تدخل الجمجمة في الجرة كما هي، لذلك قد يتدخل عامل الحرق لتفتيتها إلى أجزاء عظمية أصغر باستخدام عصا معدنية. توضع العظمة الأخيرة، العظام اللسانية (عظمة على شكل حدوة حصان أسفل الفك) في الجرة أخيرًا.

في كتاب «الناس الذين يأكلون الظلام»، وهي رواية رائعة عن امرأتين قُتلتا في طوكيو خلال التسعينيات، يصف «ريتشارد لويد باري» جنازة لأسترالية تدعى «كاريتا ريدجواي». فقد جاء والداها بالطائرة لترتيب جنازة ابنتهما، وكانا غريبين على تقاليد التقاط العظام.

> *... ثم قطعا رحلة طويلة بالسيارة إلى محرقة الجثث على أطراف ضواحي طوكيو. وودَّعا كاريتا، التي رقدت بهدوء في نعش مليء بالورد، وشاهداها تختفي خلف أبواب الفرن*

الفولاذية. لم يكن أي منهما مستعدًّا لما سيتلو ذلك. وبعد توقف، أُخذا إلى غرفة في الطرف الآخر من المبنى، ومُنح كل منهما قفازًا أبيض وعيدان تناول الطعام. في الغرفة، على لوح فولاذي، قابلا بقايا كاريتا بعد أن خرجت من حرارة الفرن. لم يكن الحرق مكتملًا، فرغم احتراق الخشب والقماش والشعر واللحم، كانت أكبر العظام، عظام الساقين والذراعين، والجمجمة متشققة ولكن واضحة المعالم. وبدلًا من استلام صندوق أنيق من الرماد، قابل الوالدان هيكل كاريتا العظمي. ولكونهما العائلة، كانت مهمتهما، وهي جزء تقليدي من كل عملية حرق جثة في اليابان، هي التقاط عظامها باستخدام عيدان تناول الطعام ووضعها في الجرة.

قال نايجل [والدها]: «لم يستطع روب [صديقها] تحمل هذا على الإطلاق. قال إننا وحوش لو فكَّرنا مجرد تفكير في فعل هذا. ولكن، ربما كان ذلك لأننا كنا الوالدين، وكانت ابنتنا... يبدو الأمر مروعًا وأنا أرويه لكم الآن، لكن لم أشعر بذلك في ذلك الوقت. شعرت بعاطفة جياشة، وشعرت تقريبًا بالهدوء. شعرت أننا نعتني بكاريتا».

لم يكن التقاط العظام جزءًا من ثقافة عائلة ريدجواي، ولكن في أصعب مواقف حياتهما، أمدهما هذا الطقس بمهمة ذات معنى.

قد لا تدخل جميع العظام في الجرة. في بعض مناطق اليابان، قد تأخذ الأسرة ما تبقى من العظام والرماد بعد الحرق إلى المنزل في حقيبة صغيرة منفصلة، أو تتركها في المحرقة. يتولى طاقم المحرقة سحق العظام المتبقية ووضعها في أكياس، ثم تكديس الأكياس بعيدًا عن الأنظار. وحين تبلغ الكومة

الحجم الكافي، تستلم العظامَ المسحوقة مجموعةٌ متخصصة أخرى، وهم جامعو الرماد. بعدها توضع في قبور كبيرة في الجبال، بعرض 8 أقدام وطول 10 أقدام وعمق أكثر من 20 قدمًا. ووفقًا لعالمة الاجتماع «هيكارو سوزوكي»، يزرع جامعو الرماد أشجار الكرز والصنوبريات فوق تلك القبور.

«تجذب أشجار الكرز هذه العديد من الزوَّار، لكن قلة منهم تعرف سر جمال هذه الأشجار».

تقدِّم بساتين الكرز حلًّا أكثر أناقة من الطريقة القديمة. في الماضي، دُفن الرماد ببساطة في أرض المحارق. ولكن مع ظهور المجمعات الأفخم الشبيهة بالحدائق، مثل: قاعة ميزو، فقدت فكرة «إلقاء العظام في الخلف» قبولها. وقد سمعت سوزوكي عن هذه المجموعة من جامعي الرماد وهي توصَف حرفيًّا بـ «جامعي القمامة». ووفقًا لها، فإن نظرة المحارق إلى جامعي الرماد على أنهم «مجرد عَمالة يدوية لا يتحملون أي مسؤولية عن روح المتوفى». والاضطرار إلى التعامل مع الجثة والأسرة هو ما يجعل موظف محرقة الجثث «محترفًا».

كان هذا تمييزًا غريبًا بين عُمَّال المحارق وجامعي الرماد. في السنوات التي قضيتها في حرق الجثث، كانت هاتان الوظيفتان وظيفة واحدة. يدخل

الجسد إلى الفرن جثة، ويخرج عظامًا ورمادًا. في الغرب، حيث لا يوجد طقس التقاط العظام، تقلق العائلات بشدة من احتمال تلقيهم كومة خاطئة من الرماد. ويبلغون حد الهوس بسؤال: «هل حقًّا أمي هي من في هذه الجرة؟»[1] وبعد حرق الجثة، أحاول إزالة كل جزء من العظام أو الرماد من فرن الجثث. ومع ذلك، تسقط بعض شظايا العظام في الشقوق، وتُجمَع بعد ذلك في أكياس. في كاليفورنيا، كنا ننثر تلك الأكياس في البحر. كنت عاملة الحرق وجامعة الرماد في نفس الوقت، «محترفة» و«جامعة قمامة».

حين بلغ «سو جين كاتو» 111 عامًا في عام 2010، أصبح أكبر معمِّر في طوكيو. جاء المسؤولون إلى منزله لتهنئته على هذا الإنجاز الرائع. لم تسمح لهم ابنة كاتو بالدخول، ملقية إليهم بحجج أن كاتو في حالة غيبوبة مستمرة أو أنه يحاول ممارسة سوكوشنبوتسو، وهو الفن القديم للتحنيط الذاتي للرهبان البوذيين.

بعد محاولات متكررة، اقتحمت الشرطة المنزل بالقوة وعثرت على جثة كاتو الميت منذ 30 عامًا على الأقل، وكانت في حالة تحنيط طوال هذه الفترة الطويلة (لكنه ما زال يرتدي ملابسه الداخلية). فبدلًا من تكريم والدها وإحضاره إلى القبر، أغلقت ابنة السيد كاتو غرفة في الطابق الأول من منزل العائلة على جسده.

ونُقل عن حفيدته قولها: «قالت أمي اتركوه هناك، وبقي كما هو».

وعلى مر السنين، حصلت ابنته البالغة 81 عامًا على أكثر من 100 ألف دولار من معاشه التقاعدي.

(1) نعم، هي من في الجرة.

إن ما فعلته عائلة كاتو سان مذهل، لا لاستمرار حيلتهم لفترة طويلة، ولكن لأنها أظهرت مدى تغير نظرة اليابانيين نحو الجثث. ففي الموروث الثقافي التقليدي، اعتُبرت الجثة نجسة. وبما أن الجثة ملوِّث، فمن المتوقع أن تعمل الأسرة على أداء طقوس لتنقيتها وإعادتها إلى حالة أكثر اعتدالًا وأمانًا: طقوس رفع التلوث.

وقد تبدو قائمة الطقوس التي مورست ذات يوم لتطهير كل من الأحياء والأموات بلا نهاية بالنسبة إلى شخص يعيش في يومنا هذا. وإليك قائمة بأبرزها: شرب الساكي قبل وبعد أي ملامسة للجسم، وإشعال البخور والشموع بحيث يمكن للنار استخراج التلوث، البقاء مستيقظًا مع الجسد طوال الليل، حتى لا تدخل الجثة أرواح شريرة، وفرك اليدين بالملح بعد حرق الجثة.

بحلول منتصف القرن العشرين، توفي عدد أكبر من الناس في المستشفيات، بعيدًا عن المنازل. ومع ازدياد عدد المحترفين الذين تولوا المسألة، فقد اليابانيون أكثر الإحساس بأن الجثة نجسة. وارتفعت نسبة حرق الجثث من 25% (في مطلع القرن) إلى ما يقرب من 100%. شعر الناس أن بالإمكان تجنب التلوث عن طريق إرسال الجثة إلى النيران. وقد حدث نفس التحوُّل في الولايات المتحدة، لكن نتائجه جاءت عكسية. فمن المحبط أن إضفاء الطابع المهني على العناية بالموتى في الولايات المتحدة جعل الخوف من الجثث أشد من أي وقت مضى. مرة أخرى، المشاهدة من وراء الزجاج.

في يوكوهاما، ثاني أكبر مدينة في اليابان، ستجد لاستيل[1]، وهو آخر فندق ستقيم فيه على الإطلاق... لأنك ميت. نعم، إنه فندق للجثث. قد تتوقع أن يسير بك مالك فندق للجثث عبر ممرات متشابكة مُضاءة بالشموع، لكن السيد

(1) مزيج بين كلمتي Last وHotel، أي آخر فندق - المترجم.

«تسورو»، مدير لاستيل، لم يفعل. لقد كان مرحًا وبشوشًا وشغوفًا بالمنشأة وما تقدِّمه.

في نهاية زيارتي، همستُ لمسجل الصوت: «أريده. أريد فندقًا للجثة. أريده».

قادنا السيد تسورو إلى المصعد. واعتذر: «هذا المصعد ليس للجمهور بالطبع. إنه خاص للنقالة والعمَّال فقط».

بدا المصعد نظيفًا للغاية لدرجة أن بإمكانك تناول الطعام بعد التقاطه عن الأرض. خرجنا في الطابق السادس، حيث غرفة التخزين المبردة التي تحتوي على ما يصل إلى 20 جثة.

أوضح السيد تسورو: «أردت بناء شيءٍ هنا لا تملكه المرافق الأخرى».

وبينما هو يتكلم نزلت نقالة كهربائية على مسار معدني ودخلت تحت تابوت أبيض، ثم رفعت النعش من الرف، وأحضرته إلينا عند المدخل.

رأيت على الجدران أبوابًا معدنية بحجم نعش.

سألته: «ما الذي خلف هذه الأبواب؟».

أشار إلينا السيد تسورو أن نتبعه. دخلنا غرفة صغيرة زكية الرائحة وبها بعض الأرائك. وفي هذه الغرفة مجموعة مماثلة من الأبواب المعدنية الصغيرة، لكن تنكُّرها كان أفضل. انفتح باب، ودخل منه النعش الأبيض.

واصلنا السير إلى ثلاث غرف مختلفة مخصصة للعائلات، حيث يمكنك القدوم في أي وقت من اليوم إذا كنت من الأقارب (يظل الجسد موجودًا لأربعة أيام في المتوسط) واستدعاء الجثة من المخزن المبرَّد. ستجد قريبك في النعش، بعد تحسين ملامحه دون تكلُّف (ودون تحنيط)، في زي بوذي أو بذلة معاصرة.

قال السيد تسورو: «لعلك لا تستطيع حضور الجنازة، بسبب العمل مثلًا، لذلك تأتي لزيارة الجسد والجلوس معه».

كانت إحدى الغرف أكبر، وتحتوي على أرائك كبيرة مريحة وتلفزيون وباقات زهور كبيرة. إنه مكان للتسكع مع الموتى، في راحة، دون أي قيود زمنية صارمة كالتي تفرضها دور الجنائز الأمريكية.

وقال: «إن ثمن استخدام هذه الغرفة يزيد على 10 آلاف ين (85 دولارًا)».

أجبته: «تستحق».

للحصول على تلك الفترة لزيارة الجسد بقدر ما تريد، لا حاجة إلى الحجز، بدا هذا خيارًا مرنًا ومتحضِّرًا، على النقيض من قواعد «لقد دفعت أجرة ساعتين في غرفة المشاهدة وستحصل على ساعتين فقط» التي تلتزم بها دور الجنائز الغربية.

في آخر تسعة طوابق من لاستيل توجد غرفة استحمام نظيفة ومشرقة. وثمة منصة غَسْل طويلة وأنيقة من أجل «آخر اغتسال على هذه الأرض». أُحيي طقس حفل الاستحمام التقليدي في السنوات الأخيرة وأُتيح بصورة تجارية لأفراد الأسرة المقربين.

يقول رئيس إحدى الشركات التي أعادت تقديم الخدمة: «نهدف إلى أن تساعد مراسم الاستحمام في ملء الفراغ النفسي في مراسم الجنازة المعاصرة، لأن إبعاد الجثة بسرعة لا يتيح للمفجوعين بفقدان عزيز وقتًا كافيًا للتفكير في الموت».

خلال عملي كحانوتية، وجدت أن كلًّا من تنظيف الجسد وقضاء الوقت معه يؤدي دورًا قويًّا في استيعاب الحزن. كما يساعد المفجوعين على رؤية أن الجثة ليست ملعونة، وإنما هي وعاء حمَل ذات يوم محبوبهم. وقد عبَّرت مُنظِّمة المنازل المشهورة «ماري كوندو» عن هذه الفكرة في كتابها الأكثر

مبيعًا شديد الانتشار «سحر التنظيف الذي يغير الحياة»، فبدلًا من إلقاء كل شيء في كيس قمامة، تقترح أن تقضي بعض الوقت مع كل جزء و«تشكره على ما قدمه من خدمات» قبل توديعه. ويرى بعض النُّقاد أنه من السخيف شكر سترة لم تعد على مقاسك على خدماتها، لكن الدافع لهذا يأتي من موضع عميق في النفس. فكل فراق يُعد موتًا صغيرًا، ويجب تكريمه. وينعكس هذا المفهوم على علاقة اليابانيين بالجسد الميت. فأنت لا تترك أمك تختفي وسط ألسنة اللهب وحسب، بل تجلس معها وتشكر جسدها، وتشكرها، على خدمة أمك. وعندها فقط تتركها تذهب.

استكمل السيد تسورو جولتنا بقطع طريق مرصوف بالأحجار هو في الحقيقة ممر في مباني لاستيل. كانت الأجواء أجواء عرض الكريسماس لكن في العصر الفيكتوري داخل مركز التسوق المحلي. في نهاية القاعة وقفنا أمام الباب الأمامي للمنزل. قدَّم لنا السيد تسورو أغطية صغيرة لنرتديها فوق أحذيتنا.

قال: «هذه الغرفة لإقامة جنازة فيما يُشبه غرفة المعيشة».

وفتح الباب فوجدنا أنفسنا فيما يُشبه مسكنًا يابانيًّا عاديًّا (للأسف ليس على النمط الفيكتوري كالممر).

سألتُ بحيرة: «إذن هذه مجرد شقة أحدهم؟ لكن لا يقيم فيها أحد على الحقيقة؟».

- نعم، إنهم يقيمون هنا. يمكنك قضاء سهرة كاملة مع الجسد هنا.

تحتوي هذه الشقة على كل شيء لجعل الأسرة مُرتاحة: ميكروويف، وصنبور استحمام كبير، وأرائك. وبها مراتب صغيرة تكفي لمبيت 15 شخصًا معًا. في مدينة كبيرة مثل يوكوهاما، لا توجد شقق عائلية تسع لاستضافة المعزِّين من خارج المدينة، لذلك تجتمع الأسرة هنا لقضاء الوقت مع الجثة.

أغرقتني الغرفة بالمشاعر والإلهام. وثمة نِقاش عويص نادرًا ما يُثار بين مديري الجنائز الأمريكيين: رؤية الجسد المحنَّط تجربة غير سارة لأهله. ثمة استثناء لهذه القاعدة، لكن الأُسر لا تُمنح أي وقت ذا معنى مع الجثة (التي تُنقل في الأغلب بسرعة بعد موتها). فقبل أن تحظى الأسرة بوقت مع ميِّتها وتستوعب الخسارة، يأتي زملاء العمل والأقارب البعيدون، ويُجبر كل واحد فيهم على إظهار الحزن والقنوط العلنيين.

أتساءل كيف ستتغير الأمور لو وُجد مكان مثل لاستيل في كل مدينة كبيرة. أماكن متحررة من العادات الاحتفالية الجامدة، حيث يمكن للعائلة قضاء الوقت مع الجثة، متحررين من أعباء الادعاءات المطلوبة للمشاهدة الرسمية. أماكن تكون آمنة ومريحة كالبيوت.

يمتلئ التاريخ بالأفكار التي ظهرت قبل أوانها. ففي الثمانينيات، صنع «هيروشي أويدا»، الياباني الموظَّف بشركة كاميرات، أول عصا للكاميرا ليتمكن من التقاط صور لنفسه خلال رحلاته.

وحصلت العصا على براءة الاختراع في عام 1983، لكن لم يشترها أحد. بدت الأداة الغريبة تافهة للغاية لدرجة أنها كانت محور كتاب «الاختراعات غير المفيدة». (ذُكر من بينها أيضًا: شبشب صغير لقطتك، مراوح كهربائية متصلة بعيدان تناول الطعام لتهوية نودلز الرامين)، ودون أي ضجيج، انتهت صلاحية براءة اختراع أويدا في عام 2003. واليوم، وهو محاط بالحشود التي تُشهر عصيانه مثل فارس نرجسي من فرسان جاداي[1]، يبدو هادئًا في هزيمته وهو يقول لبي بي سي: «نسميه اختراع الثالثة صباحًا؛ لقد وصل مبكرًا جدًّا».

(1) من سلسلة ستار وورز – المترجم.

كذلك يمتلئ تاريخ الموت والجنائز بأفكار سابقة لأوانها. من هذه الاختراعات ما ظهر في عشرينيات القرن التاسع عشر في لندن. كانت المدينة في ذلك الوقت تبحث عن حل لمشكلة اكتظاظ مقابرها المحلية وسوء رائحتها، فقد كُدست النعوش فوق بعضها حتى عمق 20 قدمًا في الأرض. ورأت الجماهير الجثث التي لم يكتمل تحللها بعد تحطيم نعوشها لبيعها للفقراء في صورة حطب. وكان الاكتظاظ واضحًا للمواطن العادي لدرجة أن القس «جون بلاكبيرن» قال: «يجب أن تشمئز الكثير من العقول الرقيقة حين ترى التربة متشبعة ومُسودَّة لاختلاطها ببقايا البشر وأجزاء الموتى».

كان الوقت قد حان لتجربة شيء جديد.

أمطرت اقتراحات إصلاح نظام الدفن بلندن، وشملت اقتراح المهندس المعماري «توماس ويلسون». إذا كان نقص الأرض هو المشكلة، اقترح ويلسون بدلًا من الحفر إلى أعماق أكبر لدفن الجثث، ينبغي أن ترفع لندن موتاها في مبانٍ هرمية للدفن. على أن يُبنى الهرم من الحجارة والجرانيت ويُبنى على تلة تُطل على قلب لندن، فوق ما يُطلق عليها الآن تلة بريمروز. وأن يكون الهرم من 94 طابقًا، أي أطول من كاتدرائية سانت بول بأربع مرات، ليسع خمسة ملايين جثة. سأُذهلك بهذا الرقم مرة أخرى: خمسة ملايين جثة.

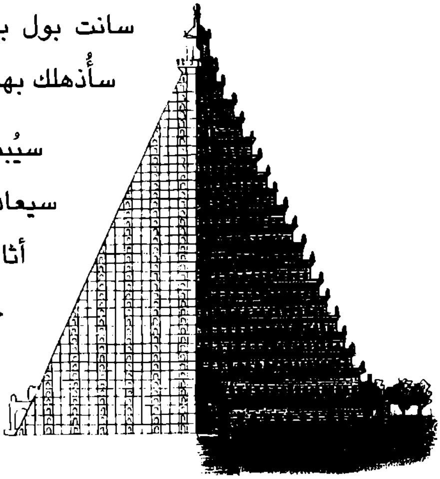

سيُبنى الهرم على 18 فدانًا فقط، لكنه سيعادل مقبرة عادية بمساحة ألف فدان. أثار هرم ويلسون الضخم (باسمه الرائع جدًّا: القبر العاصمي) محبي الفنون والعمارة المصرية من اللندنيين. وقد دُعي ويلسون لعرض فكرته على البرلمان. لكن العامة لم يقبلوا الفكرة.

ووصفت الجريدة الأدبية المشروع بأنه «قطعة وحشية من الحماقة». أراد العامة مقابر بين الحدائق، وأرادوا دفع الموتى إلى خارج أفنية الكنائس المتكدسة في وسط لندن وإرسالهم إلى الأراضي الواسعة ذات المناظر الطبيعية الجميلة ليُتاح لهم التنزه والتواصل مع الموتى. لم يريدوا تلة الموت العملاقة (التي من المحتمل أن تدمر التل بسبب وزنها)، لم يريدوا نصبًا للتعفن يسد عنهم أفق المدينة.

وبَّخ الجميع ويلسون. واختلس فكرته بعد ذلك مهندس معماري فرنسي. وبعد اتهام زميله بالسرقة الفكرية، قاضاه بتهمة التشهير. لكن ماذا لو كانت هذه الفكرة هي عصا سيلفي الموت؟ أي فكرة وصلت قبل أوانها؟ كل قفزة واسعة نقفزها لإعادة تصميم العناية بالموتى، يصاحبها تحذير من أنها قد تُلقى إلى جانب أخواتها من الاختراعات غير المفيدة.

على بُعد خمس دقائق فقط من محطة ريوجوكو، بالقرب من قاعة سومو بطوكيو، توجد أشد منشآت الجنائز تطوُّرًا في العالم. وخلال استراحة تناول الغداء، يمكنك ركوب القطار والسير بين مصارعي السومو الذين يرتدون كيمونوهات مزخرفة، للوصول إلى معبد دايتوكوجي ريو جوكو ريو، معبد ومقبرة متعددة الطوابق.

يُشبه المعبد المباني الإدارية أكثر من المقابر المعتادة. وتقابلك المنشأة بشعور مؤسسي، بداية من مندوبة العلاقات العامة ذات الملابس الأنيقة التي تقابلك في الردهة. وهي تعمل في شركة نيتشيريوكو، ثالث أكبر شركة جنائز يابانية والأكبر في سوق المقابر والقبور الداخلية.

أوضحت لي: «نحن رواد المنشآت الداخلية، وشركة الجنائز الكبيرة الوحيدة المُدرَجة في بورصة طوكيو».

وبسبب ميلي لمبدأ «صناعة الأشياء في المنزل» شعرت بقرب أشد للراهب المستقل غريب الشكل صاحب تماثيل بوذا المُضيئة، لكنني أعترف أن نيتشيريوكو اكتشفت سوقًا جديدة. ففي الثمانينيات، ارتفعت أسعار الأراضي في طوكيو بشدة. وفي التسعينيات، وصل سعر القبر الصغير إلى ستة ملايين ين (53 ألف دولار). وكانت السوق جاهزة لخيارات أرخص وأسهل وأقرب للمدينة (مثل: مقبرة إلى جانب محطة القطار).

والقرب من القطار ليس ما يجعل المقبرة شديدة التطوُّر. لقد اصطحبنا مدير المنشأة في جولة، بدأت بممر طويل له أرضية سوداء عاكسة وإضاءة بيضاء ساطعة. وفي باطن الحوائط حُجيرات منفصلة، عليها زجاج أخضر شفاف يحمي الخصوصية. كان الانطباع العام هو أننا في فيلم من الثمانينيات يتخيل المستقبل، وتصميم جدير بالتحيَّة.

داخل هذه الحُجيرات، وخلف الزجاج، ترى شواهد قبور تقليدية من الجرانيت. وكان لكل حجر فتحة مستطيلة عند القاعدة بحجم مرجع دراسي. وقبعت الزهور الطازجة في إناء، وإلى جانبها بخور ينتظر أن يُشعل. أخرج المدير بطاقة تعمل باللمس مشابهة للتي تُستخدَم في كولومباريوم روريدين. ولتمثيل ما على الأسرة فعله، مرَّر البطاقة على لوحة مفاتيح إلكترونية.

وشرح لنا: «تُعرِّف بطاقة الساكورا الجرَّة».

انزلقت أبواب زجاجية خلف شاهد القبر. وفي الكواليس، كان السحر يحدث. سمعت أزيزًا خافتًا لذراع إنسان آلي تجذب الجرة المُرادة من بين 4.700 جرَّة أخرى. وبعد نحو دقيقة، انفتح الزجاج كاشفًا عن شاهد القبر. والآن، أصبح المستطيل يحتوي على جرَّة، عليها رمز العائلة واسم مخصص من الأمام.

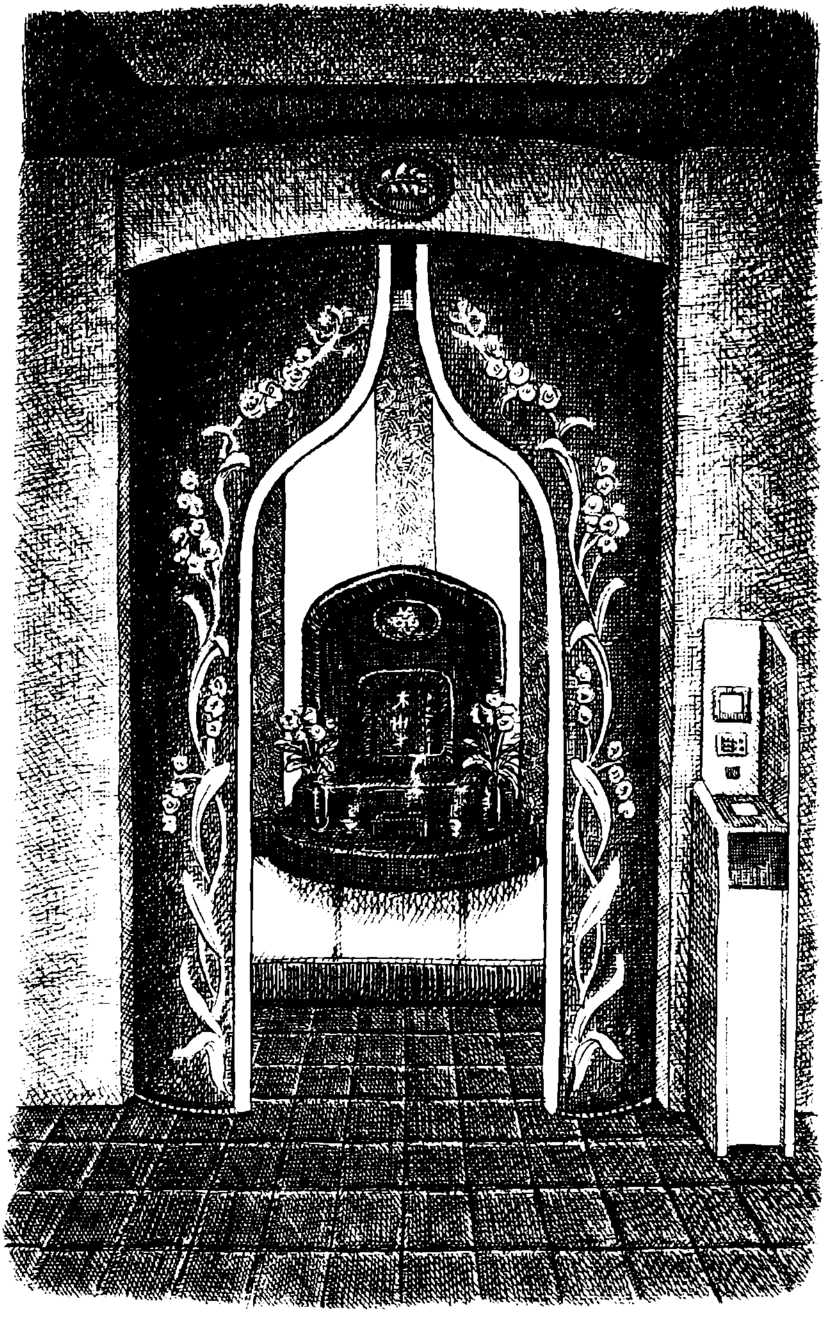

شرح المدير: «الفكرة أن يتمكّن الكثير من الناس من استخدام المنشأة، وأن يمكننا تخزين أكبر عدد ممكن».

يمكن للمنشأة أن تسع 7.200 جرَّة، وهي نصف ممتلئة حتى الآن. «إن كنت تملك قبرًا خاصًّا في مقبرة عائلتك، فعليك تغيير الزهور وإشعال البخور. هذا الكثير من العمل. نحن هنا للنيابة عنك في ذلك».

وبالطبع لأهل الميت المنشغلين، توجد خدمة إلكترونية تسمح لهم بزيارة القبر افتراضيًّا. تقدِّم شركة أخرى في طوكيو، آي-كان، تجربة شبيهة بألعاب الفيديو، حيث يظهر شاهد القبر الافتراضي لسلفك على الشاشة وسط حقل أخضر. ويمكن للمستخدم، بحسب ذوقه، إشعال بخور افتراضي ووضع الزهور ورَش الماء على الحجر وترك بعض الفواكه وزجاجات الجعة.

يُقر رئيس شركة آي-كان أنه «بالطبع من الأفضل أن تأتي لزيارة أسلافك على أرض الواقع» لكن، «خدمتنا لمَن يعتقدون أنه من الممكن التعبير عن الاحترام عبر شاشات الحاسوب».

ويبدو الراهب الرئيس في دايتوكوجي ريو جوكو ريو، «ماسودا جووشوكو»، مسترخيًا دائمًا، ومثل ياجيما لا يُمانع من خلط البوذية القديمة بالأفكار الجديدة. (وعندما غادرنا، ركب دراجته مرتديًا عباءته الكاملة، وهو يتحدث على هاتفه المحمول). وقد أُقيمت المُنشأة في مشروع مشترك بين هذا المعبد وشركة نيتشيريوكو.

وبعد سنوات من التخطيط، خرجت المقبرة المرتفعة، التي فتحت أبوابها للجمهور في عام 2013.

سألني بطريقة مرحة: «حسنًا، لقد رأيت المنشأة، ما رأيك فيها؟».

أجبته: «إنها تعتمد على التكنولوجيا أكثر من أي مقبرة لدينا في الولايات المتحدة. وكل شيء نظيف جدًّا هنا، من المقابر إلى أفران الحرق. كل شيء أنظف وأقل صناعية».

فأقرَّ: «لقد أصبح التعامل مع الموت أنظف فعلًا. في الماضي كان الناس يخافون من الجثث، لكننا جعلناها نظيفة. وبعدها أصبحت المقابر كالحدائق: مرتَّبة ونظيفة».

دلَّني ماسودا بمحادثة طويلة حول اتجاهات حرق الجثث في كل من اليابان وأمريكا. وناقشنا كيف يبتعد اليابانيون عن طقس التقاط العظام حيث تزيل الأسرة شخصيًّا العظام ويفضِّلون بدلًا منه أن يطحن موظفو المنشأة العظام وينثروها.

أوضح لي: «وفقًا للتقاليد، يهتم اليابانيون بالهيكل العظمي. إنهم يقيمون التقاط العظام كما تعلمين. إنهم يحبون العظام ولا يريدون الرماد».

سألته: «إذن، ماذا تغيَّر؟».

قال: «ثمة مشاعر تصاحب العظام، ومسؤولية تجاه الروح. العظام حقيقية. أولئك الذين ينثرون الرماد يحاولون النسيان. يحاولون إبعاد أنظارهم عن الأشياء التي لا يريدون التفكير فيها».

سألته: «هل ترى هذا أمرًا جيدًا؟».

- لا أرى أنه شيء جيد. يمكنك أن تحاولي جعل الموت أنظف، لكن بعد الزلزال الكبير تحديدًا، ومع ارتفاع معدل الانتحار، أصبح الموت أقرب. ثمة أشخاص يقتلون أنفسهم قبل سن العاشرة. بدأ الناس في التفكير في الموت. ولا يمكنك تجاهل ذلك بعد الآن.

❋

في وقت من الأوقات، كان اليابانيون يخافون من الجثث لأنها وسخة ونجسة. وقد تخطَّوا هذا الخوف بدرجة كبيرة وبدؤوا في رؤية الجثث في النعوش لا على ما كانت عليه، وإنما بالنظر إلى مَن كان يملكها: ليست شيئًا ملعونًا، بل جدي الحبيب. يبذل اليابانيون جهدهم في دمج الطقوس مع الجثث، وضمان إتاحة وقت كافٍ تقضيه العائلة في حضورها. في نفس الوقت، تفعل دول مثل الولايات المتحدة العكس تمامًا. فذات يوم، كنا نعتني بجثثنا في منازلنا. وقبل صعود طبقة محترفي العناية بالموتى، ما كنا نخاف خوف اليابانيين من الموت، وقد قدَّرنا حضور الجثة بيننا. لكن في السنوات الأخيرة، تعلمنا أن ننظر إلى الجثث على أنها وسخة ونجسة، ونخشى من قيام الجثث الميتة من الموت، وارتفاع معدل الحرق المباشر.

بالإضافة إلى ذلك، ما يفرِّق بين التجربتين أن اليابانيين لم يخشوا من دمج التكنولوجيا والإبداع في جنائزهم ونُصُبهم. نحن لا نملك مساحة واحدة مثل الروريدن بتماثيل بوذا المتوجهة أو معبد دايتوكوجي ريو جوكو ريو بنظامه الروبوتي. وتُعتبر دور الجنائز في الولايات المتحدة عالية التقنية بمجرد إتاحتها لنشر النعي عبر الإنترنت أو عرض شرائح للصور في أثناء الجنازة. إن كان لسوق الجنازات اليابانية ما تُعلِّمه للدول الغربية فهو أننا لا نحتاج إلى الاختيار، إما التكنولوجيا وإما التفاعل مع الجثث. والأفضل أن بإمكانك توفير كلا الخيارين للعملاء في دار الجنازة نفسها دون تدمير بالحساب النهائي. ونعم، أريد فندق الجثث أكثر من أي وقت مضى.

بوليفيا

لا باز

كان «بول كودوناريس» يعتمر قبعة صوفية كبيرة مصنوعة من جلد ذئب، ولها أذنان ملتصقتان. جعلته القبعة مع الخرزات الذهبية التي تتدلى من لحيته السوداء المدببة يبدو مثل جنكيز خان المتجه إلى مؤتمر للقبعات المصنوعة من الفرو.

شرح: «أعتقد أن السيدة إيلي ستحب قبعة الذئب هذه. إنها تُلبس قطتها أزياء فرسان جاداي».

في رأس بول كان هذا رابطًا منطقيًّا تمامًا.

تعيش السيدة إيلي على بُعد ثلاث بنايات من الجدار الخلفي للمقبرة العامة في لاباز، عند نهاية شارع مرصوف بالأحجار، في منزل غير مميز عليه ملاءة واحدة رثَّة معلَّقة على المدخل. وللعديد من المساكن في هذا الشارع نفس الصفات: أسقف مموَّجة وجدران خشبية وأرضيات خرسانية. إلا أن مسكن السيدة إيلي كان المسكن الوحيد الذي يحتوي على رف عليه 67 جمجمة بشرية، تعتمر قبعات قطنية متطابقة، وعلى استعداد لتقديم الجمائل للكثير

من المريدين المتحمسين. كانت الجماجم الموجودة في منزل السيدة، نياتيتا، وهو اسم يُترجم حرفيًّا إلى «الأنوف الفطساء». ولتتحول الجمجمة العادية إلى نياتيتا يجب أن تمتلك قوى خاصة لتربط الأحياء بالأموات.

أو كما يشرح بول: «كل نياتيتا جمجمة بشرية، لكن ليس كل جمجمة بشرية تتمكن من التحوُّل إلى نياتيتا».

لم تكن هذه جماجم لأهل السيدة أو أصدقائها، بل كل جمجمة جاءت للسيدة إيلي في الحلم، ونبَّهتها إلى وجودها. فقد ذهبت لجمعها من المقابر المكتظة والأسواق والمواقع الأثرية وكليات الطب. تضطلع السيدة إيلي بدور الراعي الخاص بهذه الجماجم، وتقدم لها القرابين في مقابل مساعدتها في كل شيء، من مرض السُكَّري إلى الديون.

تعرَّفت السيدة إيلي إلى بول على الفور، فقد زار لاباز لتصوير النياتيتا على مدار الأحد عشر عامًا الماضية. (وللتذكير: بول مميز جدًّا).

سأل: «أين قطتك؟».

فالسيدة إيلي وبول يشتركان في رابطتين عابرتين للثقافة، الأولى: الحب الواضح للجماجم، والثانية: إلباس قططهم أزياء تنكرية.

أخرج بول هاتفه وبدأ في عرض صور قطته، بابا، على إيلي، مرة بشارب معقوف وسلسلة ذهبية وشعر مستعار مجعَّد، ومرة في زي ممرضة وسماعة طبيب. صرخت السيدة إيلي: «آآه!» بسرور، مبرزة روحها الطيبة حقًّا.

أما الجماجم، فاعتمرت قبعات قطنية موحَّدة لونها أزرق فاتح وأسماء أصحابها مُطرزة من الأمام كالأطفال في الحضانة: «راميرو»، «كارلوتا»، «خوسي»، «والدو» (وجدته!). لم تكن هذه أسماءهم في الأصل، وإنما منحتهم السيدة هذه الأسماء حين أصبحت الجماجم نياتيتا.

ولكل نياتيتا تملكها السيدة شخصيةٌ مميزة وموهبة مختلفة. «كارليتوس» هي الجمجمة التي ستزورها لحل المشكلات الطبية، و«سيسيليا» تساعد الطلاب على الدراسة الجامعية. وتعود سبع من الجماجم، بما فيها: «ماريا» و«سيلو»، إلى أطفال ورُضع، لذلك فهي متخصصة في مشكلات الأطفال. كانت الجماجم تحمل أوراق الكوكا في أفواهها، والشقوق التي بينها محشوة بالحلوى الملفوفة بألوان زاهية. وشملت القرابين الأخرى المقدمة إلى النياتيتا من المريدين الذين بلغت أعدادهم بين 200 إلى 300، الزهور وزجاجات الصودا والبطيخ والأناناس الكامل.

وعُدت جماجم معينة أقوى من غيرها والملجأ عند الصعاب. سكن «أوسكار» على الرف العلوي معتمرًا قبعة شرطي. وكان هو أول نياتيتا تعثر عليه السيدة قبل 18 سنة.

شرحت: «كنا قد فقدنا بيتنا، فلا نملك وظيفة ولا مالًا. وساعدنا أوسكار للوقوف على أرجلنا مرة أخرى».

فحين تقول السيدة إيلي بكل يقين إن نياتيتا تصنع المعجزات، فذلك لأنها شهدت المعجزات بنفسها.

من النياتيتات القوية، «ساندرا»، وسبب قوتها واضح. لم تكن ربع مجموعة النياتيتا التي تملكها السيدة إيلي على الأقل جماجم بقدر كونها رؤوسًا محنَّطة، وكانت ساندرا هي رأس المقاومة. ومن بين الرؤوس المحنطة التي رأيت في بوليفيا، كانت مجموعتها أشد الرؤوس المحنَّطة أناقة، حيث بقيت وجنتاها ممتلئتين وابتسامتها صافية. وغطى الجلد الفعلي كامل الوجه، بما في ذلك الشفاه، التي بدت مُجعَّدة بابتسامة مرحة. وتدلت ضفيرتان يختلط الأسود فيهما بالأبيض على جانبي رأسها. وحتى الأنف كان سليمًا (وهذا نادر، وبالكاد يؤهلها لوصف «الأنف الأفطس») وفي خطوة نسوية، تخصصت

ساندرا في المفاوضات المالية والتجارية. اقترب بول لالتقاط صورة لساندرا. لاحظت السيدة إيلي أنه يحاول التقاط صورة مُقربة فقالت: «هاك!».

وجذبت ساندرا عن الرف وخلعت عنها قبعتها لتكشف عن مدى حفظها. أدارت السيدة إيلي نظرها بحثًا عن زينة أنسب للصورة المقربة. وحين توجَّهتُ لجلبها، سلمتني رأس ساندرا.

تلعثمت: «آه، نعم، حسنًا، بالتأكيد».

وحين أمسكت بساندرا عن قرب، أمكنني أن أرى جفنيها ومجموعة كاملة من الرموش اللينة الخفيفة.

ولو أن من يملكها هو متحف طبي أو تاريخي في الولايات المتحدة، لكان بيننا زجاج فاصل. أما في لاباز، فلم يكن إلا أنا وساندرا المسكينة.

عادت السيدة إيلي بقبعة بيضاء طويلة لساندرا ووضعتها على رأسها. كان بول يلتقط الصور.

قال: «حسنًا، أمسكي ساندرا على قرب أشد منك. هيا بنا! كيتلين، هلَّا تبسمتِ قليلًا؟ تبدين صارمة».

قلت: «إنه رأس بشري. لا أريد صورة لي وأنا أبتسم إلى جوار رأس بشري مقطوع».

- ابتسامة ساندرا أوسع من ابتسامتك بكثير. حاولي أن تبدي أقل شرًّا ولو قليلًا، أرجوكِ!

بعدما أعدتُ ساندرا على الرف وتأهبنا للمغادرة، لاحظت مجموعة جديدة تمامًا من القبعات الصغيرة المطرزة باللون الأزرق المخضر مكدسة بجوار الباب.

شرحت لي امرأة تنتظر دورها لاستشارة جماجم السيدة إيلي: «آه، يحصلون على لون جديد كل شهر. لون الشهر الماضي كان البرتقالي. هذه هي القبعات الجديدة. يعجبني هذا اللون. سيبدو جميلًا عليهم».

❋

تملك السيدة إيلي مجموعة كبيرة من جماجم النياتيتا (أخبرني بول إنه صوَّر في منازل لتخزين الهياكل العظمية تملك عددًا أقل مما لدى السيدة)، لكن أشهر النياتيتات على الإطلاق لدى السيدة آنا.

اعتراف: لم أر السيدة آنا يومًا في الحقيقة. في اليوم الذي زرتها فيه، وجدت غرفة مكتظة بالأشخاص حول مرجل ضخم من الحديد انتظارًا لمقابلتها. تتحدث النياتيتا إلى السيدة آنا في الأحلام، وبناءً على مشكلتك، ستخبرك الجمجمة المناسبة للاستشارة («خوسيه»، «ماريا»، «ناتشو»، «أنجيل»، «أنجيل 2»، «جوني» المشهور جدًّا).

وتجلس كل جمجمة من الجماجم، البالغة نحو عشرين جمجمة، فوق وسادة لامعة في صندوقها الخاص المغلق من الأمام بالزجاج. وتعتمر الجماجم قبَّعات سفاري على حافتها ورود. وفي مقلتيها، حُشيت كرات من القطن مكان الأعين. غطت شرائط من ورق القصدير أسنانهم العلوية والسفلية، فأشبهت واقيات الفم المعدنية.

سألتُ بول: «ما الغرض من هذا الورق؟».

أجاب: «لحماية أسنانهم حين يدخِّنون».

- أوَيدخنون؟

- لمَ لا؟

لم تكن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، بشكل عام، سعيدة قط بوجود النياتيتا في لاباز. في الماضي، أعلن الكهنة الذين يترأسون مهرجان نياتيتا السنوي الجماهير التي تسعى للحصول على البركة أن «الجماجم يجب أن تُدفن» و«لا ينبغي تبجيلها».

في أول عام أتى فيه بول لتصوير المهرجان، وجد الناس أبواب الكنيسة الموجودة في المقبرة العامة مغلقة وعليها لافتة تقول إنهم لن يباركوا أي

جماجم. احتج الناس، وساروا في الشوارع، وهتفوا حاملين نياتيتات في الهواء: «نريد البركة»، ففتحت الكنيسة أبوابها.

وكانت معاداة «إدموندو أباستوفلور»، رئيس أساقفة لاباز، على وجه الخصوص لموضوع النياتيتات شديدة الوضوح.

قال بول ساخرًا: «بالطبع سيعاديها، فهي تُحرجه. إنها تجعله يبدو فاقدًا للسيطرة على أبرشيته».

تمثِّل النساء الشبيهات للسيدة إيلي والسيدة آنا تهديدًا للكنيسة الكاثوليكية. فمن خلال سحرهن وإيمانهن وجماجمهن، يسهِّلن التواصل المباشر دون وسيط بالقوى الغيبية، دون الحاجة إلى وسيط مباشر من الذكور. ذكَّرني هذا بسانت «مويرتي»، قديسة الموت المكسيكية: أنثى لا تخجل من أنوثتها. وهي تحمل منجلًا على الدوام وترتدي أثوابًا طويلة تلف تكوينها العظمي بألوان قوية.

ومما يثير استياء الكنيسة أن أتباع سانت مويرتي وصلوا إلى جنوب غرب الولايات المتحدة، قادمين من المكسيك حيث يعيش عشرات الملايين من أتباعها. وترتبط قوتها بالخارجين على النظام العام، والفقراء، والمثليين، والمجرمين، وأي شخص طردته الكاثوليكية من أحضانها الصارمة.

ومن الظلم أن نقول إن الكاثوليكية هي النظام العقائدي الوحيد الذي يملك تاريخًا في إنكار وكالة المتنسِّكات من الإناث. فبعيدًا عن مكانة المرأة الأقرب للمساواة في البوذية الحديثة، تذكر الكتب المقدسة القديمة تشجيع بوذا محيطيه من الرهبان الذكور على أداء رحلات إلى القبور لتأمل أجساد النساء المتعفنة. والدافع لهذا «التأمل في القذارة» هو تحرير الراهب من الرغبة في

النساء، اللاتي كن، بحسب وصف الباحثة «ليز ويلسون»، «عوائق حسية». وكان يأمل في قدرة القبور على نزع الصفات الجذَّابة من النساء، ليتمكن الرجال من إدراك أنهن مجرد أكياس لحم ممتلئة بالدماء والأمعاء والبلغم. وتحدث بوذا بصراحة عن أن مكمن قدرة المرأة على الخداع ليس في الزينة، كمساحيق التجميل والعباءات، بل في حلة اللحم الخادعة، التي تُخرج خلسة سوائل بشعة من فتحاتها.

وبالطبع لم يؤذن لهذه النسوة، الصامتات المتحللات في القبور، بامتلاك احتياجات أو رغبات أو رحلات روحية خاصة بهن. تفسر ويلسون أنهن «يؤدين أدوارهن كمعلمات دون أن يقلن كلمة واحدة. ما يملكن تعليمه لنا ليس ما في عقولهن، وإنما ما يحدث لأجسادهن».

إن جثث المقابر مجرد أشياء. مجرد مبددات للأوهام يتأمل الرجال فيها ويكتسبون بذلك «الفضيلة».

لم يكن هذا حال السيدة آنا، حيث جُعلت النساء وتأملاتهن ومشكلاتهن في صدر المجلس ومركز مداره. ولا ترفض أي مسألة رومانسية أو مالية أو منزلية وتوصف بأنها تافهة. كانت أرفف النياتيات في غرفة المعيشة في منزلها، وكانت حوائطها مُغطاة من الأرض إلى السقف بالصحُف. وجلب المريدون قرابين من الزهور والشموع. اشتريت أنا وبول شموعًا بيضاء مدببة، ابتعناها من كشك على جانب الطريق. اعتقدت أننا سنسلم الشموع إلى السيدة آنا في شكل هدية، لكن إحدى مريديها أصرت على أن نُشعلها باعتبارها قرابين. قرفصنا على الأرض الخرسانية، وأذبنا أنا وبول كل شمعة من الأسفل لتثبيتها في وضع عمودي على الألواح المعدنية. ظلت تسقط على جنبها بسبب فشلنا في المهمة، وبالكاد تجنبنا إحراق المكان بأسره.

وبما أننا جلبنا قرابين، قلت لنفسي إن من الأفضل أن أتحدث إلى إحدى النياتيتات. سألت ناتشو أن يؤثر على الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة التي كانت ستقام في اليوم التالي. ولا يسعني إلا أن أفترض أن ناتشو لم يكن النياتيتا المناسبة أو أنه لم يتحدث الإنجليزية بطلاقة.

رأيت شابة تجلس بين النياتيتا وعلى ذراعها ولد صغير.

اعترفت لي: «هذه أول مرة آتي إلى هنا. قالت لي صديقتي إن القدوم إلى هنا سيساعدني مع الكون ويُحافظ على أمن ولدي، لذلك جئت».

❋

ذات ليلة ونحن نتناول العشاء، حذرني «أندريس بدويا»، صديق بول وفنان من لاباز: «لا تقعي في خطأ اعتبار بوليفيا بأسرها ذات ثقافة واحدة متجانسة».

أحدث أعمال أندريس عبارة عن أكفان للدفن، يحتاج صنع كل منها إلى خمسة أشهر، وتُصنع يدويًّا من الجلد والمسامير وآلاف الأقراص الذهبية. «يُنظر أحيانًا إلى الحرفيين في بوليفيا بازدراء، كما لو أن ما ينتجونه ليس فنًّا «حقيقيًّا». ولا شك في أنه فن، وأترك له أن يلهمني».

صنع أندريس أكفانه للمتاحف والمعارض. خلال صنع «ملابس الأشباح» يمارس طقوسًا تعبر عن حزنه وحزن الآخرين. ولن يمانع أن يُدفن أحد بهذه الأكفان، لكن هذا لم يحدث بعد. ولعل البوليفيين غير متجانسين، لكن العادات الجنائزية في لاباز تسير وفقًا لأنماط محددة. فيُقام حفل اليقظة طوال اليوم في المنزل أو صالون الجنائز. تطلب العائلات خدمة توصيل

التوابيت المحلية، جنبًا إلى جنب مع الصلبان والزهور التي تضيء وتتوهج باللون الأرجواني النيون (لون الموت لدى البوليفيين). قال أندريس: «يعتقد بعض الناس أن اللون الأرجواني اللامع مبتذل أو رديء، لكنني أحبه».

ويحدث الدفن في اليوم التالي. يُحمَل التابوت على الأكتاف لمسافة مجمع سكني وتسير أمامه عربة الموتى، ثم يُحمَّل فيها ويُنقل إلى المقبرة. توفيت والدة أندريس قبل 22 عامًا، وأوصت بحرق جثتها. تزداد شعبية حرق الجثث في لاباز، لكن حتى وقت قريب كان من الصعب حرق الجثث هناك، لأن لاباز على ارتفاع 12 ألف قدم، وتعد العاصمة الأعلى ارتفاعًا في العالم. لذلك أوضح أندريس أن الأفران «لا تصل إلى درجة حرارة كافية، فلم يكن في الجو ما يكفي من الأكسجين».

أما أفران اليوم فتنتج درجات حرارة أعلى وبالتالي يمكنها حرق الجثة بالكامل.

والآن بعد أن أصبحت التكنولوجيا متاحة، يُفكر أندريس في استخراج جثة والدته وحرقها احترامًا لرغبتها. لسوء الحظ، ستفرض المقبرة عليه التعرُّف على جثتها المنبوشة بنفسه.

قال: «بالتأكيد أتذكر ما كانت ترتديه حين دفنَّاها، لكنني أفضِّل ألا أُضطر إلى الاطلاع على عظامها. لا ينقصني تحمُّل هذه الذكرى».

لقد دفع اهتمام أندريس بالموت إلى استكشاف ثقافة النياتيتا. في 8 نوفمبر يحين عيد النياتيتا، وهو فرصة لمُلَّاك النياتيتا للخروج بجماجمهم وعرضها. والاحتفال هنا ليس للمُلَّاك، وإنما للجماجم نفسها، وللتأكد من أنها تتلقى التقدير الكافي لما أنجزته على مدار العام.

يقول أندريس: «قد تغلُب على المرء عواطفه ويرفض تغيير أي شيء في الاحتفال، لكنه لو بقي دون تغيير في الماضي، ما كنت أنا ولا أنتِ لنحضره ولا لنقترب منه من الأساس».

وعلى الرغم من أنه احتفال مغمور في أغلب دول العالم، يرى أنه دخل الثقافة السائدة هنا. كانت المقبرة العامة، التي يقام فيها مهرجان النياتيتا، ذات يوم مقبرة الأغنياء، لكنهم انتقلوا إلى الجنوب. وقد أجرت المدينة مؤخرًا محاولات لإعادة تنشيط المقبرة، وتكليف فناني الشوارع برسم الجداريات على جوانب القبور وتشجيع السياحة المحلية. وفي يوم جميع القديسين، يُقام المسرح الحي في ليل، ويحضره الآلاف من السكان المحليين.

ويرجع فضل وجود النياتيتات في لاباز إلى شعب الآيمارا، ثاني أكبر مجموعة للسكان الأصليين في بوليفيا. وهو شعب عانى التمييز لسنوات. وحتى أواخر القرن العشرين، كان من المُعتاد أن تُمنع نساء الآيمارا المقيمات في المدن، المعروفات باسم كوليتاس، من دخول بعض المكاتب الحكومية والمطاعم والحافلات.

يقول أندريس: «سأقولها وأجري على الله، بوليفيا ليست بلدًا آمنًا للنساء. إننا أفقر بلد في أمريكا الجنوبية. ونملك كلمة بوليفية خالصة، فيمنيسيديو، للتعبير عن القتل الذي يستهدف النساء لا لشيء سوى كونهن نساء، على يد أزواجهن عادة».

على مدى السنوات العشر الأخيرة، شهدت الأوضاع تحسنًا ملموسًا. فرئيس بوليفيا الحالي، إيفو موراليس، من شعب الآيمارا، والمساواة بين الأعراق المختلفة في بوليفيا جزء مهم من برنامجه. وقد تمكن شعب التشوليتاس من العمل على إحياء هويته، بما فيها أزياؤهم: التنانير متعددة الطبقات، والشالات، والقبعات الطويلة المتوازنة بطريقة غريبة على رؤوسهم. كما يشاركون في الحياة العامة، لا بالعمل في خِدَم، بل أصبحوا صحفيين وموظفين حكوميين.

في نهاية مهرجان النياتيتا، حين تغلق المقبرة أبوابها، ويؤدي التشوليتاس رقصات فولكلورية في الشوارع وهم متجِهون إلى حفلات مختلفة.

يضحك أندريس حين يتذكر آخر احتفال: «في العام الماضي، طُبعت ملابسهم، وثيقة الارتباط بفكرة التبعية، بالألوان العسكرية المموَّهة. أغضب ذلك الرجال جدًّا. الفولكلور ليس مجرد عنصر تاريخي في لاباز، بل عنصر معاصر كذلك. إنه ابتكار مستمر».

رغم القبول المتزايد للآيمارا والنياتيتا، فعند سؤال البوليفيين عما إذا كانوا يحتفظون في منزلهم بجماجم أو يؤمنون بقواها، سيرد الكثيرون: «أوه! لا لا، إنهم يخيفونني!» وهذا لأنهم لا يرغبون في أن يبدو كاثوليكيين غير ملتزمين. ولا يزال لهذه الممارسة وجود خفي. ويحتفظ العديد من البوليفيين (حتى أصحاب المهن المرموقة، مثل: مقوِّمي العظام والمصرفيين) بالنياتيتات أكثر مما يعترفون به علنًا.

تدخَّل بول قائلًا: «مع أن مُلاكها ملتزمون بالكاثوليك».

قال أندريس: «لم أصوِّر قط منزلًا به نياتيتات إلا ووجدت فيه صورة للمسيح أو العذراء على جدرانه. هذا جزء من غرابة بوليفيا بصراحة. كنت أتحدث مع صديق مؤخرًا حول كيف أننا لسنا مزيجًا من الكاثوليكية ومعتقدات السكان الأصليين. الحقيقة أن الاثنين علقا لدينا معًا. (ثم ألصق ظهرا كفيه ببعضهما، مكوِّنًا شكلًا وحشيًّا غريبًا) لا يزال الياتيري (معالجة أو ساحرة طبيبة) يأتي إلى مكتب لتنظيف المكان. كان والدي جيولوجيًّا، واعتدت الذهاب معه في صغري لزيارة المناجم. في إحدى تلك الرحلات، شاهدت التضحية باللاما، لأن عمال المناجم طالبوا بذلك. لقد أرادوا إرضاء

إل تيو، حاكم العالم السفلي. ولا تزال روافد السحر المماثلة موجودة في كل مكان».

في صباح يوم 8 نوفمبر، وضعت «سيمينا» حقيبة كتفها، التي تصوِّر ميكي ماوس وبطوط يلعبان كرة القدم، على المدخل الخرساني لكنيسة المقبرة العامة. ثم أخرجت نياتيتاتها واحدة تلو الأخرى ووضعتها على لوح خشبي. سألتها أن تعرِّفهم لي. وكانت أقدم جمجمة لديها لعمها «لوكاس». ذكرت سابقًا أن الجماجم عادة تكون لغرباء، لكن أحيانًا تكون لفرد من أفراد عائلة المالك.

شرحت لي: «إنه يحمي منزلي من السرقة».

امتلكت كل نياتيتا تملكها «سيمينا» قبعةً منسوجةً، عليها إكليل من الورود. وهي تُحضرهم إلى مهرجان النياتيتا منذ سنوات عديدة.

سألتها: «هل تُحضرينهم لشُكرهم؟».

صحَّحت لي: «لشكرهم نعم، لكنه يومهم في الحقيقة. إنه عيدهم».

وفي أثناء حديثنا، انفتح باب الكنيسة واندفع منه حشد يحمل كل واحد منهم جماجمه، وهم يتسابقون

للاقتراب من المذبح قدر الإمكان. تأخر الحاضرون الجدد، وانتظروا مؤقتًا في المقاعد، أما النساء المسِنات ذوات الخبرة فواصلن طريقهن إلى الأمام وساعدن أصدقاءهن على وضع جماجمهم في المقدمة.

إلى يسار المذبح، وجدت تمثالًا للمسيح بحجم حقيقي داخل صندوق زجاجي. وقد صوره التمثال ينزف بشدة من جبهته وخديه، وقدماه بارزتان من تحت الملاءة الأرجوانية.

وعند كعبي التمثال، توقفت امرأة تحمل نياتيتا في صندوق من الورق المقوى كان في الأصل لرقائق الشوكولاتة ورسمت الصليب على صدرها، ثم دُفعت مع الحشد نحو المذبح.

وفاجأني أنه رغم العلاقة المثيرة للجدل مع الكنيسة الكاثوليكية، كانت لهجة الكاهن الذي يقف أمام الحشد اليوم تصالحية.

قال: «حين تملك الإيمان، لا يتحتم عليك الامتثال لأحد. لكلٍّ منا قصة مختلفة. هذا احتفال عيد ميلاد بطريقة ما. أنا سعيد لأننا جميعًا معًا، فهذه قطعة صغيرة من السعادة».

شرحت شابة محشورة بجواري وسط الحشد تقبُّل الكاهن للجماجم بهذه الطريقة:

- هذا المهرجان كبير جدًّا الآن، وحتى الكنيسة الكاثوليكية مضطرة إلى الرضوخ.

لقد ملأت الجماجم وأصحابها ما بين بابي الكنيسة. وعند كل باب، يوجد دلو دهانات مملوء بالمياه المقدَّسة. واستُخدمت الورود البلاستيكية في نضح الماء المقدس على النياتيتات وهم يمرون. ارتدت بعض الجماجم نظارات شمسية، والبعض الآخر تيجانًا. وحظيت بعض الجماجم بنُصُب مقامة لها وحدها، فيما جاء البعض في صناديق من الورق المقوى. وجاءت إحدى

النساء تحمل جمجمة طفل في حقيبة غداء من القماش. حصلت النياتيتات على البركة.

وليست بوليفيا بالمكان الوحيد الذي تصل فيه الجماجمُ الناس بالإله فالمفارقة في ازدراء الكنيسة لهذه الممارسة هي أن الكاثوليك الأوروبيين استخدموا آثار وعظام القديسين وسائط لهم على مدى أكثر من ألف عام. والغرض من النياتيتات مشابه للغرض من جماجم كثيرة قابلتها قبل عدة سنوات خلال رحلة إلى نابولي الإيطالية.

سألني سائق الأجرة النابولياني: «هل أنت إنجليزية؟».

اقتربت.

- هولندية؟

- أمريكية.

- آه! أمريكانا! إلى أين أوصلك؟

- مقبرة فونتانيلّي... (هنا راجعت خط سير رحلتي المعقَّد). في ماتير دي، عبر فونتانيلّي.

رأيت حاجبَي السائق في المرآة يرتفعان بهياج.

قال: «سراديب الموتى؟ المقبرة؟ لا لا لا! لا تريدين الذهب إلى هذا المكان».

سألته: «أحقًّا؟ هل المكان مغلق اليوم؟».

- أنت سيدة شابة جميلة. أنت في عطلة، أليس كذلك؟ لا تريدين الذهاب إلى سراديب الموتى؛ لا تناسبك. سآخذك إلى الشاطئ. نابولي تملك العديد من الشواطئ الجميلة. إلى أي شاطئ آخذك.

شرحت له: «لست من النوع المحب للشواطئ».

أجاب: «أأنت من النوع المحب لسراديب الموت؟».

وعلى ذكر سؤاله، أنا من هذا النوع فعلًا. وهذا في حالة إذا جاز أن يكون محبو سراديب الموت من غير الأموات.

- شكرًا لك! لكن لنبقَ مع خيار مقبرة فونتانيلي.

هزَّ كتفيه وانطلق بسرعة بين تلال نابولي المتعرجة.

من المخادع وصْف فونتانيلي بالمقبرة، لأنها أقرب ما يكون بكهف أبيض ضخم: محجر طفَّة، على وجه الدقة. (الطفَّة حجر يتكوَّن من رماد البراكين). على مدى قرون، استُخدم كهف الطفة ذاك لدفن أهل نابولي الفقراء ومجهولي الهوية، بداية من ضحايا الطاعون في القرن السابع عشر إلى ضحايا الكوليرا في منتصف القرن التاسع عشر.

مكتبة سُر مَن قرأ

وبحلول عام 1872، حمل الأب «جايتانو بارباتي» على عاتقه ترتيب العظام المحشوة في مقبرة فونتانيلي وتكديسها وفرزها وفهرستها. وجاء المتطوعون من المدينة للمساعدة، وبما أنهم كاثوليكيون صالحون، صلوا من أجل الموتى المجهولين وهم يكدسون الجماجم على طول أحد الجدران، وعظام الفخذ على طول جدار آخر. المشكلة أن صلاة الجمجمة لم تتوقف عند هذا الحد، فبشكل عفوي، ظهرت طائفة دينية حول الجماجم مجهولة الهوية. حيث أتى السكان المحليون إلى فونتانيلي لزيارة الصغار المساكين. وكانوا «يتبنون» جماجم معينة ويتكفَّلون بتنظيفها وبناء الأضرحة لها وإحضار القرابين وطلب الجمائل. ومُنحت هذه الجماجم أسامي جديدة أتت إلى مالكيها في الحلم.

لم يسُر ذلك الكنيسة الكاثوليكية، ووصل بها الحال إلى إغلاق المقبرة في عام 1969، حيث أصدر كبير أساقفة نابولي مرسومًا يقول إن طائفة الموتى «تتبع الهوى والخرافات». فبحسب الكنيسة، يمكنك أن تصلي من أجل النفوس المحاصرة في المطهر[1] (مثل هؤلاء الموتى المجهولين)، لكن ليس للموتى المجهولين قوى خاصة وخارقة للطبيعة لخدمة الأحياء. لكن الأحياء اختلفوا مع هذا.

إذ أشارت الباحثة «إليزابيث هاربر» إلى أن طائفة الموتى كانت أقوى و«أبرز خلال أوقات الصراع: وبخاصة بين النساء المتضررات من مرض أو كارثة طبيعية أو حرب». كان العامل الأهم هو افتقار هؤلاء النسوة إلى «القوة والموارد داخل الكنيسة الكاثوليكية». (وقد ردَّد هذه الفكرة «أندريس بيدويا»، الفنان المقيم على بُعد 6500 ميل في لاباز، الذي وصف النياتيتات بأنها فعَّالة للنساء «اللواتي لم تتمكن الكنيسة الكاثوليكية من إدارة علاقتهن مع العالم الآخر بصورة صحيحة»).

ورغم يقظة الكنيسة منذ إعادة فتح مقبرة فونتانيلي في عام 2010، لم تختف طائفة الموتى. فوسط بحر من العظام البيضاء، انفجرت شرائط من الألوان. فمن المسابح البلاستيكية النيون، والشموع الزجاجية الحمراء، والعملات الذهبية الجديدة، وبطاقات الدعاء، وتماثيل المسيح البلاستيكية، وحتى تذاكر اليانصيب المبعثرة بين الأنقاض. لقد وجد جيل جديد من طائفة الموتى أقوى الأرواح هناك.

❋

(1) في المعتقد الكاثوليكي، هو مكان يذهب إليه خطاة المؤمنين ليتطهروا بالنار من ذنوبهم التي لم يتوبوا منها – المترجم.

بحلول الحادية عشرة صباحًا، أصبح مهرجان النياتيتا مكتظًّا بالناس. وفوق صفوف المقابر، ظهرت صفوف من الجماجم المباركة، التي تقبل حاليًّا القرابين من أوراق الكوكا إلى بتلات الزهور. وحرست دوريات الشرطة أبواب المقبرة للتفتيش عن وجود عبوات الكحول (فالعنف المرتبط بالسُكْر أصبح كبيرًا لدرجة ظهور نياتيتا جديدة له). في غياب الكحول، توجَّب إغراق الجماجم برذائل أخرى. إشعال السجائر وتركها تحترق بين الأسنان المُلطَّخة بالقطران.

سألت بول: «هل تفترض أنها تستمتع بالتدخين؟».

أجاب مستخفًّا: «من الواضح أنها تستمتع بها».

ثم اختفى وسط الحشود وعلى رأسه قبعته المصنوعة من فرو الذئب. رقصت إحدى النساء مع جمجمتها على الأصوات الصاخبة لعرض الأكورديون والجيتار والطبل الخشبي، عن طريق قذف الجمجمة في الهواء وهزِّ خصرها. هذا يوم الجمجمة واحتفالها.

وجلس رجل معه جمجمة أبيه. ذات يوم، كان أبوه مدفونًا هنا بالضبط في المقبرة العامة. وهو ما دفعني للتساؤل: لو أن أباه كان مدفونًا، فكيف حصل ابنه على جمجمته؟ كيف حصل على هذه الجماجم التي ترتدي الآن نظارات بحواف سلكية وسبعة تيجان من الورود فوق رأسها؟!

حين سِرت في المقبرة، وجدت مقابر فارغة يحيط بها زجاج مهشَّم وكتل من الخرسانة. وعلى مقدمة شواهدها وُضِعت ورقة تحذيرية صفراء عليها: «إنذار أخير: ضريح 4 يناير. إلى أقارب المتوفى: (ضع الاسم هنا)...»..

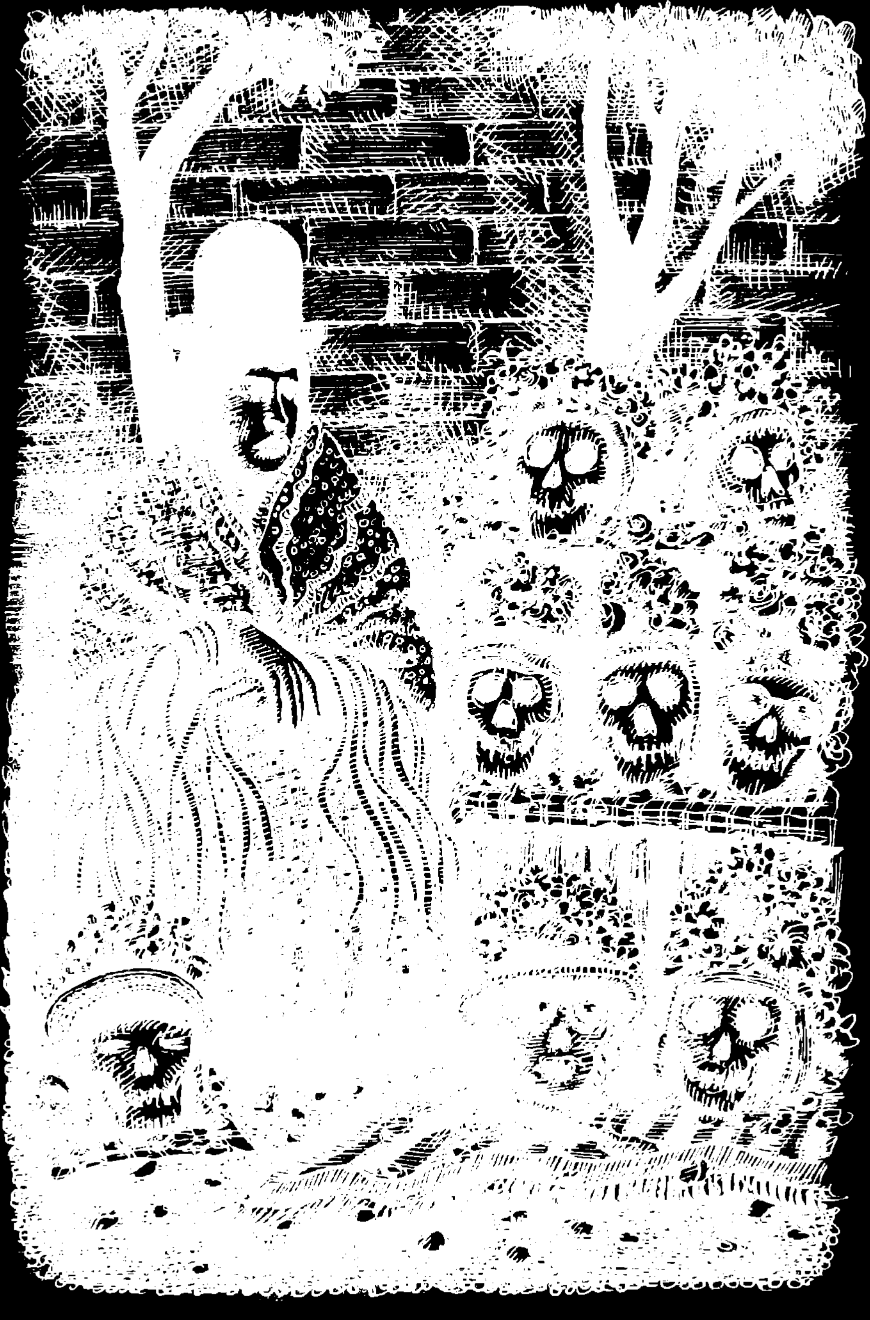

وما تلا ذلك كان رسالة تقول إن الأسرة لم تدفع الإيجار لإبقاء جثة أبيهم في الضريح. وعليه، سيُطرد منه. وربما سيُنقل إلى مقبرة جماعية. أو لعله سيعود إلى أسرته بعدما أصبح هيكلًا عظميًّا، ليتحول إلى نياتيتا.

قرفصتُ لأُعاين نياتيتا مُحنَّطة وشفتُها ملتفة على نفسها فبدت كابتسامة «إلفيس بريسلي» الساخرة المميزة، وفي أثناء ذلك اتَّجهت امرأة في مثل سني نحوي.

وبإنجليزية تكاد تكون مثالية قالت: «إذن أنتِ من الجهة الأخرى من البحيرة، لا بُد أنك تقولين في نفسك اللعنة، ما هذا؟».

اسمها «مويرا»، وتأتي كل سنة إلى المهرجان مع صديقها الذي يملك جمجمتين في منزله. جاءت له الجمجمة الأولى، والأقوى، في منامه. فقد حلم بها وهي تخبره أنها ستنتظره في الريف. فذهب ووجدها واسمها «ديوني». ثم جاء «خوانيتو». يأتي الناس إلى منزله على مدار العام لزيارتهما.

تقول مويرا: «فقدتْ أختي قطتها. إنها عزباء، والقطة بالنسبة إليها كابنتها. ولم ترجع لأربعة أيام».

ذهبت أختها لاستشارة الجمجمة ديوني، طالبةً منها المساعدة في العثور على سنورها الحبيب. وفي منامها، كشف ديوني أن القطة في الحقيبة الخلفية لسيارة مهجورة، تنمو بداخلها نباتات.

تابعتْ: «عند قمة التل خلف منزل أختي، توجد سيارة مجوفة تقبع هناك منذ 15 عامًا. وها هي القطة الغبية، عالقة في حفرة في حقيبة السيارة! كان هذا قبل أسبوع واحد، ولمنع تكرار هذا الحادث، طلبت أختي من ديوني بث الرعب في قلب القطة للتأكد من أنها لن تهرب مرة أخرى. والآن، أصبحت القطة لا تعبر حدود الفناء حتى، كأن حبلًا حول عنقها يمنعها».

تساءلت هل تؤمن مويرا بأن قوة الجمجمة هي فعلًا من عثرت على القطة.

استغرقتْ في التفكير للحظة، ثم قالت: «إنه الإيمان الذي يحمله الناس حين يقدِّمون مطالبهم إليها. هذا هو ما يؤثِّر فعلًا».

استغرقتْ في التفكير أكثر من المرة الأولى، ثم قالت: «لا أجزم أهي مصادفة أم لا، لكننا وجدنا القطة على أي حالة».

يمكن اعتبار كل دعاء تحقق مصادفة ويمكن اعتباره أكثر من هذا. لكنني لم أزر لاباز للبت فيما إذا كانت النياتيتا تملك قوى سحرية حقيقية أم لا. إنني مهتمة بالنساء الشبيهات بالسيدة إيلي والسيدة آنا والمئات من البشر الآخرين الذي يحضرون المهرجان، الذي يستخدمون الأريحية بينهم وبين الموت لانتزاع الوصول المباشر إلى الرب من أيدي رجال الكنيسة الكاثوليكية. أو كما يقول بول: «الجماجم تكنولوجيا المحرومين»، فلا مشكلة، عاطفية كانت أو أسرية أو دراسية، مهما كانت، أصغر من ألا تلتفت إليها النياتيتا.

كاليفورنيا

أشجار اليوكا

أحيانًا تزور جثثًا حول العالم وتُدرك أن الجثث الأقرب إلى قلبك في فنائك الخلفي. حين عُدت إلى لوس أنجلوس، انتظرتني دار جنائزي، إلى جانب مديرتها، «أمبر»، التي عانت طويلًا وسهَّلت حرق الجثث وواست الأسر المكلومة فيما كنت أطلب مساعدة الجماجم البوليفية.

كان من المقرر دفن السيدة «شيبارد» دفنًا طبيعيًّا دون تحنيط تحت إدارة دار «أندر تيكنج إل إيه». تحت تأثير الإلهام بما رأيته في رحلاتي، عدت إلى العمل بشعور جديد بامتلاك غاية. تخيلت أن الأسرة الحزينة ستجهز الجسد بحب، وتلف المرأة الميتة في كفن مصنوع يدويًّا مبطَّن بريش الطاووس وسعف النخيل. ثم سنُطلِق موكبًا نحو القبر عند الفجر، حاملين الشموع وناثرين بتلات الزهور، ومرددين للترانيم.

في الواقع، لم يكن الدفن على هذه الشاكلة على الإطلاق، فحين أدخلنا السيدة شيبرد إلى غرفة تحضير الجسم، كانت ميتة منذ ستة أسابيع،

ومحبوسة في كيس بلاستيكي تحت التبريد في مكتب الطب الشرعي في لوس أنجلوس.

وقفت أنا وأمبر على جانبيها وفتحنا سحَّاب الكيس. انتشر العفن تحت عينيها ووصل إلى رقبتها نزولًا إلى كتفيها. وانهارت معدتها تمامًا، وتحوَّل لونها إلى الأزرق المخضر الداكن (بسبب تحلل خلايا الدم الحمراء). تقشَّرت الطبقات العلوية من الجلد وتحررت من ساقيها. وأصبحت الحقيبة مستنقعًا تستحم فيه السيدة شيبرد بدمها وسوائل جسدها.

حرَّرناها من السجن البلاستيكي وغسلنا جسدها، فانزلق الماء والصابون على الطاولة الجديدة واختفى في ثقب صغير بالقرب من قدميها. غسلت أمبر شعرها، الذي كان أبيض في الأصل، ولكنه أصبح مصبوغًا بالبني من أثر الدم، وبذلت قصارى جهدها للتغلب على بقع العفن التي تنمو على فروة رأسها. لقد عملنا في صمت، فثمة شيء في حالة الجسم المتعفنة يجعلنا أقل صخبًا من المعتاد. بعد تجفيف السيدة شيبرد، أصبح جليًّا أنها لم تتوقف عن التسريب. ولو كنَّا حانوتية تقليديين، لأُتيحت لنا جميع أنواع الحِيل (الأغلفة البلاستيكية، والحفاضات، والمساحيق الكيميائية، وحتى البذلات البلاستيكية التي تغطي الجسد بأكمله) لمكافحة التسريب بكفاءة. ولأننا مقبرة طبيعية فلن نقبل بدفن الجسم بعد معالجته بأي علاج كيميائي.

نقلنا السيدة شيبرد مباشرة إلى كفنها، آملين في لفِّها عددًا كافيًا من اللفات يمنع ترشيح السوائل. حاكت أمبر الكفن بنفسها من قماش القطن غير المبيَّض.

لم تكن الأسرة ميسورة، فكنا نحاول خفض التكاليف حيثما نستطيع. في اليوم السابق، تلقيت رسالة نصية من أمبر، صورة لإيصال من متجر جوان للأقمشة ومعها تعليق: «خمِّني من وفَّر للأسرة للتو 40% من سعر الكفن بنقاط جوان؟!».

كان المنتج النهائي ساحرًا ومكتملًا بعُقَد ومقابض (لكن لا وجود لريش طاووس أو سعف نخل).

❋

وُضعت السيدة شيبرد المُكفَّنة في حاوية شاحنة، وانطلقت في رحلة لمدة ساعتين ونصف شرقًا من لوس أنجلوس، عبر منطقة إنلاند إمباير[1] (تسمية تحاكي تولكين لما هي في الحقيقة مجموعة من الضواحي) وصولًا إلى صحراء موهافي. تدرك أنك وصلت إلى الصحراء لا بسبب التغير في المعالم الطبيعية وإنما من إعلانات الكازينو الضخمة التي تُعلن عن عروض متنوعة، من طاقم عمل متناوب من مشاهير صغار (في أثناء رحلتنا كان الإعلان لمايكل بولتون ولوداكريس)، وبعد المرور بها تُصبح حقًّا وعميقًا في الصحراء، بين أشجار اليوكا، بفروعها الشائكة المتجهة إلى السماء.

لم تُنشأ حديقة جوشوا تري التذكارية لتكون مقبرة طبيعية، إلا أنهم فعلوا ما تفعله الكثير من المقابر، وخصصوا قسمًا من الأرض للمقابر الطبيعية. غالبًا ما تكون المسافة إلى جوشوا تري باهظة على سكَّان لوس أنجلوس. ونفضِّل، نحن الأنجلوسيين، إبقاء موتانا أقرب إلى الوطن، لكن أين؟ تُصر حديقة فورست لون التذكارية، أحد الأماكن البارزة لدفن مشاهير لوس

(1) يعني المملكة الوسطى – المترجم.

أنجلوس، على بناء القبو الثقيل ليحيط بالتوابيت ولا تتيح الدفن الطبيعي. ويمنحون استثناءً لليهود والمسلمين، فكلتا الديانتين تشترطان الدفن الطبيعي للجثث. وفي هذه الحالات، يوافقون على ثقب بعض الفتحات في خرسانة القبو ليتسلل منها بعض الطين الرمزي.

وثمة قسم جديد للدفن الطبيعي في مقبرة وودلون بسانتا مونيكا. ولكن لشراء قطعة أرض هناك، ستدفع «رسومًا خضراء» تبلغ عدة آلاف من الدولارات، رغم أن الدفن الطبيعي أسهل (إذا كنت بحاجة إلى وضع وجهك في وسادة للصراخ غضبًا، سأنتظرك).

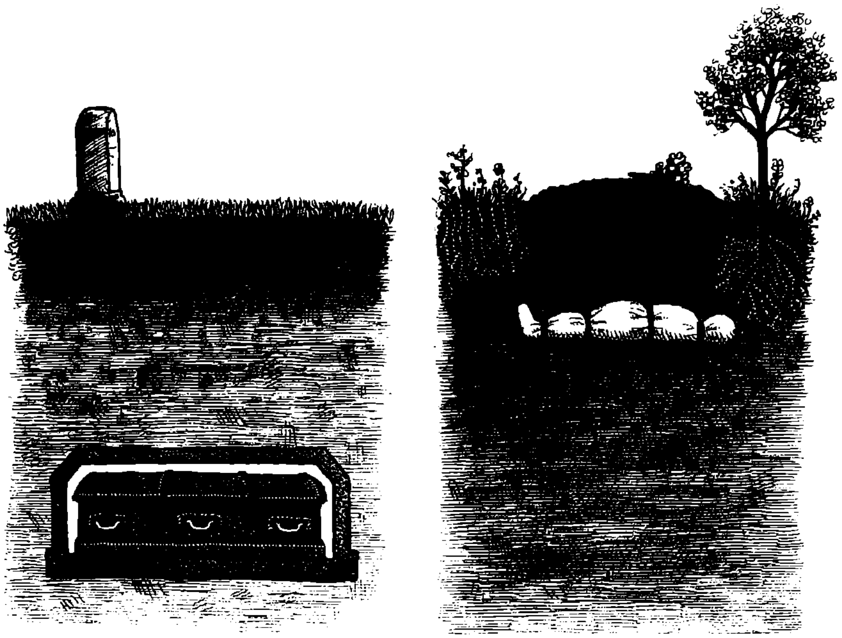

افتُتح قسم الدفن الطبيعي بحديقة جوشوا تري في عام 2010. وقد جمعوا 60 مقبرةً، 40 منها مشغولة الآن، في قطعة أرض محاطة بسور خشبي قصير. يسلط قسم الدفن الطبيعي، الصغير مقارنة بالصحراء الشاسعة المحيطة به، الضوء على مدى سخافة سياستنا الحديثة للدفن. كان العالم بأسره مقبرتنا، فدفنَّا فيه الأجساد داخل المزارع والمراعي وفي أفنية الكنائس المحلية، وفي أي مكان نريده حقًّا. ما زالت بعض الولايات تتيح الدفن في العقارات الخاصة. لكن كاليفورنيا ليست واحدة منها، وجثثنا يجب أن تُجمع معًا في حظائر صغيرة في الصحراء.

سمع أحد الكهنة الذين قابلتهم في اليابان، الجوشوكو «ماسودا»، أن معدل حرق الجثث في أمريكا يرتفع بسبب الخوف من نفاد الأراضي التي يمكن دفن الناس فيها. لم يفهم هذا الدافع.

يقول: «من وجهة نظري اليابانية، الولايات المتحدة بلد كبير؛ هناك الكثير من الأراضي في كل مكان، ومن السهل جدًّا بناء هذه المقابر والأضرحة الكبيرة».

يتخيل البعض المقابر «الخضراء» ويحتاج إلى تطبيق حرْفي للتسمية: تلال خضراء متدرِّجة، وغابات كثيفة، ودفن تحت شجرة الصفصاف. أما جوشوا تري بصباراتها الثخينة، وبيئتها الصحراوية، فقد تبدو بيئة صعبة، وليست مكانًا مناسبًا للبعث الروحاني.

لكن لطالما رعت الصحراء المتمردين والمثابرين. ومنهم عازف موسيقى الكانتري «جرام بارسونز» الذي كان في السادسة والعشرين من عمره فقط حين تناول جرعة زائدة من الهيروين والمورفين والكحول في غرفته بالفندق

في جوشوا تري. أراد زوج والدته الشرير (حسبما يُزعم) إعادة جثة بارسونز إلى نيو أورلينز حتى يتمكن من السيطرة على ممتلكاته، معتقدًا خطأً أن صاحب الجثة يحصل على الغنائم.

لكن وضَع صديق بارسونز الصدوق «فيل كوفمان» خططًا أخرى. فقد تعاهد الرجلان على أنه في حالة وفاة أحدهما، «يأخذ الناجي جسد الآخر إلى جوشوا تري، ويشرب عدة كؤوس ويحرقه».

وبطريقة ما، بمزيج من السحر والسكْر الوقح، تمكن كوفمان وشريكه من تعقُّب نعش بارسونز في مطار لوس أنجلوس الدولي ومنع تحميله على متن الطائرة إلى نيو أورلينز عن طريق إقناع موظف في شركة طيران بأن عائلة بارسونز قد غيرت رأيها. بل إن الثنائي استعانا بضابط شرطة وموظف في شركة طيران لمساعدتهما على نقل جثة بارسونز إلى عربة موتى زائفة (دون لوحة مرور، وبنوافذ مكسورة، ومليئة بالخمور). ثم انطلقا، وبارسونز يقعقع في مؤخرة العربة.

وحين وصلا إلى كاب روك، تكوين صخري ضخم في حديقة جوشوا تري الوطنية، أخرجا التابوت، وأغرقا جسد بارسونز بالوقود، وأشعلا النار فيه، مطلقين الشرر الناري الهائل في سماء الليل.

هرب الرجلان. وليست طبقة من الوقود بالكافية لحرق جسد بالكامل، لذا عُثر على جسد بارسونز نصف متفحِّم. وجزاءً لتصرفاتهما الغريبة، اتُّهم كوفمان وشريكه بجنحة فقط لسرقة النعش (وليس الجسد). وأُرسل ما تبقى من جثة بارسونز إلى نيو أورلينز، حيث دُفن. ولم يرث زوج أمه ماله قط.

أما السيدة شيبرد فلم تترك تعليمات سابقة مثل «شرب بعض الكؤوس وحرقها» بخصوص رفاتها البشري. لكنها كانت ناشطة ليبرالية ومدافعة عن البيئة طوال حياتها، وشعرت عائلتها أن التحنيط والتابوت المعدني سيكونان ضد كل شيء دافعت عنه.

تولَّى «توني»، وهو مواطن من جوشوا تري مغطى بالوشوم، حفر القبر الذي يبلغ عمقه أربعة أقدام باليد في الصباح الباكر، قبل شروق الشمس التي لا ترحم. على جانب القبر تراكمت التربة الرملية الحمراء المتحللة، وسدت الحفرة أربعة ألواح خشبية بسيطة.

حملنا السيدة شيبرد بالأيدي إلى الموقع ووضعنا جثتها المُكفَّنة على الألواح التي تقف فوق القبر. من خلف الكفن، يمكنك رؤية خطوط جسدها. هذه أقصى درجات التواضع، فنحن ندفن الآن كما دفن الناس حين كانت هذه الأرض برية، المكونات مجرد مجرفة، وبعض الأخشاب، وكفن، ورجل أو امرأة ميتة.

رفع ثلاثة من موظفي المقبرة السيدة شيبرد بضع بوصات فوق الألواح بأشرطة طويلة، فيما سجدت على ركبتيَّ وسحبت الألواح من تحتها. ثم أنزلوها بينما قفز توني، حفَّار القبور، إلى جانبها ليوجهها بأمان إلى التراب.

بعد دقيقة من الصمت، هال الرجال الثلاثة التراب فوق السيدة شيبرد بالمجارف والمعاول. في منتصف العملية وضعوا طبقة ثقيلة من الحجارة لردع الذئاب المهتمة (يبدو أن هذه الخطوة مبنية على الخرافات، فلا دليل على أن المقابر الطبيعية تجذب انتباه الحيوانات القمَّامة). واستغرق ملء القبر 10 دقائق. في المقابر الأخرى، تقطع عملية الدفن العشب، تاركة حدود القبر صارخة وواضحة وسط المناظر الطبيعية الخضراء المتناسقة. حين انتهى توني وفريقه، استحال على الناظر تحديد مكان القبر؛ لقد اختفت السيدة شيبرد وسط الصحراء الممتدة.

هذا ما أريده عند موتي: أن أختفي. إن حالفني الحظ، سأختفي، وتبتلعني الأرض مثل السيدة شيبرد. لكن لن يكون هذا خياري الأول.

> *بعد دقيقتين عادوا بالنعش فارغًا والقماش الأبيض، وأغلقوا الباب بالكاد قبل أن تنقض عشرات النسور على الجسد وتبعتها غيرها بسرعة. بعد خمس دقائق أخرى، رأينا الطيور المتخمة تعود إلى الجو وتستقر مرة أخرى بتكاسل على سور الشرفة. لم تخلِّف النسور سوى هيكل عظمي.*

في عام 1876، وصفت صحيفة التايمز اللندنية ذلك المشهد في مدينة دخمة، المعروفة في الغرب بترجمتها المشؤومة: برج الصمت. في ذلك اليوم،

التهمت أسراب من النسور جسمًا بشريًّا حتى أصبح هيكلًا عظميًّا في دقائق. والتهامه هو بالضبط ما أراده الفارسيون (نسل الإيرانيين أتباع الديانة الزرادشتية) لجثثهم.

يعتبر هذا الدين أن العناصر (أي: الأرض والنار والماء) مقدسة، ويجب ألا يدنسها الجسد النجس. وخيارا الحرق والدفن محظوران تمامًا.

بنى الفارسيون أول أبراج الصمت في أواخر القرن الثالث عشر. وتوجد اليوم ثلاثة أبراج على تلة في حي ثري وخاص في مومباي. بشكله المتدرج الدائري المبني من الطوب وسقفه المفتوح، يتيح برج الصمت دوائر متعاقبة توضع عليها 800 جثة تُجلب إلى الأبراج كل عام. الدائرة الخارجية للرجال، الدائرة الوسطى للنساء، الدائرة الداخلية للأطفال. وفي المركز، تُجمع العظام (بعد انصراف النسر) لتتحلل ببطء في التربة.

وتُعد جنائز الفرس طقسًا مُعقَّدًا، إذ تُغطى الجثة ببول البقر، وتغسلها العائلة وعاملو البرج. وهناك أدعية، ونار مقدسة، وسهرات متواصلة، وصلوات طوال الليل.

وعند الفراغ من هذا يُجلب الجسد إلى البرج.

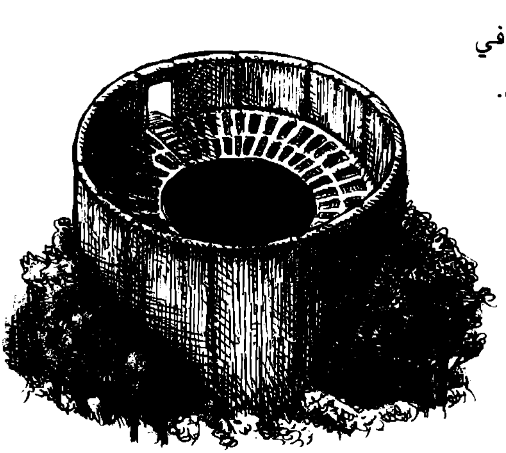

وقد توقَّفت هذه الطقوس في السنوات القليلة الماضية فحسب. ففي وقت من الأوقات، امتلكت الهند 400 مليون نسر. في عام 1876، كان الالتهام السريع للجثث هو المعتاد. أوضح «يوهان فيفاينا»، المحاضر عن الزرادشتية بجامعة

هارفارد، أن «الفُرس يتحدثون عن زمن كانت النسور تنتظر فيه الجثث عند أبراج الصمت. واليوم، لا توجد نسور على الإطلاق».

من الصعب إحراق جثة دون نار. ومن الأصعب أن تتخلص من جثة من خلال الالتهام دون مُلتهِم. وقد هبط تعداد المُلتهمين بنسبة 99%. القصة أنه في بداية التسعينيات، سمحت الهند باستخدام الديكلوفيناك (مسكن خفيف للألم يشبه الإيبوبروفين) للماشية المريضة. خفف هذا عليها آلام الحافر والضرع، ولكن حين ينفُق الحيوان وتهبط النسور المخلِّصة عليه لتناوله، يصيبهم الديكلوفيناك بالفشل الكلوي. من الظلم أن تسقط مثل هذه المخلوقات ذات المعدة الحديدية، التي اعتادت التهام الجيف المتعفن في الشمس الحارقة، بسبب مجرد مسكِّن.

وفي غياب النسور، تبقى الجثث في أبراج الصمت بانتظار راقصي السماء الذين لن يأتوا أبدًا. وأصبح جيران الأبراج يشمون رائحة الجثث. ولقد وضعت «دان باريا» والدتها في البرج بعد وفاتها في عام 2005. لكن أحد عُمال البرج أخبرها أن الجثث تبقى مكشوفة ونصف متعفنة ولا تظهر النسور في الأفق. استأجرت باريا مصورًا للتسلل، وتسببت الصور (التي تظهِر جثثًا مكشوفة بالفعل ونصف فاسدة) في فضيحة في مجتمع الفرس.

حاول العاملون في البرج التغلب على نقص النسور، فنصبوا مرايا لتركيز أشعة الشمس على مجموعة من الجثث، مثل حشرة عمرها تسع سنوات تملك عدسة مكبرة. لكن النسف بالطاقة الشمسية لا يعمل خلال موسم الرياح الموسمية الغائم. فجربوا رش مواد كيميائية على الجثث مباشرة، لكنها خلقت فوضى كريهة. يتساءل أهل الموتى، (مثل: دان باريا) عن سبب عدم قدرة الفرس على تغيير تقاليدهم والتكيُّف وتجربة دفن الجثث أو حرقها حتى لا تُترك الجثث كما تُركت والدته سليمة على الحجر البارد. لكن الكهنة متعنتون. وسواء جاءت النسور أم لا، لن تتغير أبراج الصمت.

هذه هي المفارقة الكبرى. هناك أشخاص في الولايات المتحدة مغرمون بفكرة تقديم أجسادهم للحيوانات عند انتهاء حياتهم، ولدينا ما يكفي من النسور والحيوانات القمَّامة الأخرى لتحقيق هذا. لكن الحكومة والزعماء الدينيين، لن يسمحوا أبدًا بوقوع مثل هذا المشهد البغيض على الأراضي الأمريكية. لا، قادتنا يخبروننا: الحرق أو الدفن، هذان هما خياراك الوحيدان.

تودُّ دان باريا، وعدد متنامٍ من الفرس المنزعجين من الطريقة التي يُعامل بها موتاهم، تجربة خيارَي الحرق والدفن. لا، يقول لهم قادتهم: النسور هي خياركم الوحيد.

❋

منذ اكتشفتُ الدفن السماوي، علمت ما أود فعله ببقاياي. في رأيي، الدفن في بطون الحيوانات هو آمَنُ خيارات التخلص من الجثث وأنظفها وأكثرها إنسانية، ويقدم طقسًا جديدًا قد يقربنا من حقائق الموت ووضعنا الحقيقي على هذا الكوكب.

في جبال التبت حيث يندر العثور على خشب للحرق والأرض يُمنع الدفن بسبب صلابة الصخور وشدة البرودة، مارس الناس الدفن السماوي منذ آلاف السنين. إذ يُلف الميت بقطعة قماش في وضع الجنين: الوضع الذي جاء منه إلى الحياة. ثم يُرنِّم الراهبون البوذيون عند الجسم قبل تسليمه إلى الروجيابا، أو قاطع الجثث. يكشف الروجيابا القماش عن الجسد، ويقطع اللحم، ويشق الجلد ويقطِّع العضلات والأوتار. يشحذ منجله على الصخور القريبة. وبمريلته البيضاء، يشبه الجزار العادي، وتبدو الجثة أقرب للحيوان منها للإنسان.

من بين جميع محترفي الموت في العالم، فإن الروجيابا هي الوظيفة التي لا أحسد أهلها عليها.

يقول روجيابا في مقابلة مع بي بي سي: «لقد قمت بالكثير من عمليات الدفن في السماء. لكن لا أزال بحاجة إلى بعض الويسكي لأقوى على فعل ذلك».

في الجوار، بدأت النسور بالفعل في التجمُّع. إنها نسور جريفون الهيمالايا، أكبر مما تتخيل، فأجنحتها بطول 9 أقدام. تقترب النسور بصفوفها، وتصدر صرخات حلقية، فيبعدُها الرجال بقضبان طويلة. وتتكدس في مجموعات ضيقة لدرجة أنها تصبح كرة ريش عملاقة.

يعرِّي الروجيابا العظام من اللحم بمطرقة، ويسحقها ويخلطها بنبات التساما، ودقيق الشعير الممزوج بزبدة الياك أو الحليب. قد يضع الروجيابا العظام والغضاريف أولًا، ويُؤخر أفضل قطع اللحم. فهو لا يريد أن تحصل النسور على أفضل قطع اللحم ثم تفقد الاهتمام وتطير قبل أن تأكل بقية الجسد.

تُعطى الإشارة، وتتراجع العصي، وتنقض النسور بعنف. وتراهم يصرخون كالوحوش وهم يأكلون الجيف، لكنهم في نفس الوقت يؤدون رقصات رائعة، ويرتفعون إلى أعلى ويأخذون الجسد لدفنه في السماء. إن تقديم جسدك بهذه الطريقة يُعد هدية قوية، لأنك تعيده إلى الطبيعة، حيث يمكن أن يكون مفيدًا.

ينجذب مواطنو العالم المتقدم إلى هذا التصرف المليء بالدماء والأحشاء. فيما يعاني أهل التبت بسبب ما تعنيه سياحة الموت المتزايدة بالنسبة إلى طقوسهم. ففي عام 2005 أصدرت الحكومة قانونًا يحظر مشاهدة المعالم السياحية والتصوير الفوتوغرافي وتسجيل الفيديو في مواقع الدفن في السماء. لكن المرشدين السياحيين ما زالوا يغمرون المنطقة، ويأتون بسيارات الدفع الرباعي المليئة بالسياح من شرق الصين. ومع أن أهل المتوفى أنفسهم لا

يحضرون هذا الجزء الخاص بالنسور من الطقوس، يحضر 20 سائحًا صينيًّا مجهزين بأجهزة الآيفون. هدفهم هو التقاط صور للموت خارج الإجراءات المرتبة، مثل: الجِرار المعبأة بالرماد التي تُعاد إليهم ليحتفظوا بها في المنزل.

وثمة قصة عن سائح غربي حاول الالتفاف على قاعدة عدم التصوير بالاختباء خلف صخرة واستخدام عدسة بعيدة المدى، دون أن يدرك أن وجوده يخيف النسور التي عادة ما تنتظر على تلك التلال. وبعد نفورهم، لم يحضروا لأكل الجثة، وهو ما يُعد فألًا سيئًا في الطقوس.

لقد أكلتُ الحيوانات على مدى 30 عامًا، فلماذا حين أموت لا يأتي دورهم في أكلي؟ ألستُ حيوانة مثلها؟

التبت هي المكان الوحيد الذي أردت أن أزوره خلال رحلاتي ولم أستطع أن أستجمع شجاعتي للذهاب. من الصعب قبول أن جثتي لن يتاح لها هذا الخيار، إلا أن يقع تغيير مجتمعي حقيقي. وفوق ذلك، فلن أشهد هذه الطقوس في حياتي. ولو كنت مكان الغربي صاحب العدسة المقرِّبة الذي أخاف النسور، لتركت نفسي للطيور أيضًا.

الخاتمة

في يوم خريفي بارد في فيينا بالنمسا، حصلت على جولة خاصة في سرداب أسفل كنيسة القديس ميخائيل. يتحدث «برنارد» (الشاب النمساوي الذي تقدمني نزولًا على الدرج الحجري شديد الانحدار) اللغة الإنجليزية بلهجة جنوبية قوية غريبة على الأجانب.

ثرثر وكأنه جنرال في جيش الكونفيدرالية[1]: «قيل لي من قبل إن لهجتي غريبة».

أوضح برنارد أنه خلال العصور الوسطى، حين كان أعضاء بلاط هابسبيرج يحضرون إلى كنيسة القديس ميخائيل، وُجدت مقبرة أمامها مباشرة في ساحة البلاط. لكن كما حدث في الكثير من المدن الأوروبية الأكبر، أصبحت المقبرة شديدة الازدحام: «فُرشت الأرض بالجثث المتحللة»، لدرجة أن الجيران (وهم في هذه الحالة الإمبراطور) اشتكوا من الرائحة. أُغلقت المقبرة وبُني السرداب بعمق كبير تحت الكنيسة في القرن السابع عشر.

(1) انقسمت الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية إلى ولايات شمالية، سمت نفسها الاتحاد، وولايات جنوبية، سمت نفسها الكونفدرالية – المترجم.

دُفنت عدة آلاف من الجثث في هذا السرداب، حيث تُركت تستريح على سُرر من نشارة الخشب داخل تابوت خشبي. عملت النشارة على امتصاص السوائل الناتجة عن التحلل.

وتسبب الجفاف الذي أعقب امتصاص السوائل بالإضافة إلى الهواء البارد المتدفق عبر القبو، في حدوث تحنيط طبيعي تلقائي للجثث.

وجَّه برنارد مصباحًا يدويًّا على جسد رجل، مُثبِّتًا الشعاع في جزء تعلق فيه الجزء السفلي من الشعر المستعار بجلد الجثة الرمادي المشدود. وفي نهاية الصف، بعد الأكوام المعتادة من العظام والجماجم التي تجدها في أي منزل تخزين للهياكل العظيمة، رأيت جثة امرأة كانت محفوظة لدرجة أن أنفها لا يزال بارزًا في مكانه، رغم مرور نحو 300 عام على وفاتها. وكانت مشبِّكة أصابعها الدقيقة الرقيقة باسترخاء على صدرها.

تتيح الكنيسة حاليًّا أربعًا من مومياوات السراديب ليشاهدها الجمهور. والأسئلة التي يطرحها الجمهور على بيرنارد بدَهيَّة: «كيف يحدث هذا التحنيط؟» أو «كيف تمكَّنت الكنيسة من هزيمة الغزو الأخير للخنافس التي تجول التوابيت الخشبية القادمة من نيوزيلاند؟» (الإجابة: عن طريق تركيب مكيفات الهواء).

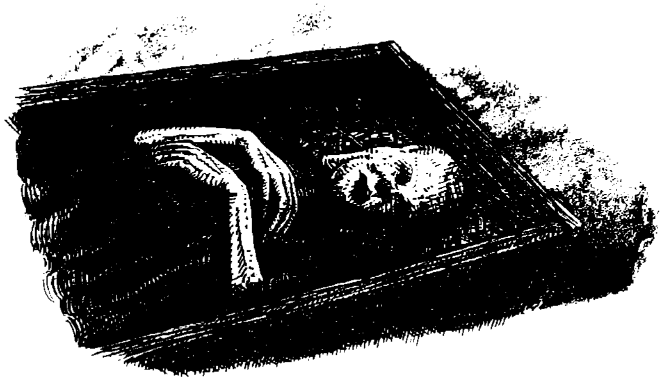

لكن ما يريد الزوّار معرفته حقًّا، وبخاصة الشباب منهم، هو: «هل هذه الجثث حقيقية؟».

يُطرح السؤال كما لو أن العظام والجماجم المكدسة، وصفوف التوابيت، والمومياوات النادرة جميعًا قد تكون جزءًا من ديكور سرداب مسكون مخيف، لا جزءًا من تاريخ المدينة التي يعيشون فيها.

وفي أي مكان تقريبًا في أي مدينة كبيرة على وجه الأرض، من المرجح أن تقف الآلاف من الجثث. وهذه الجثث تمثِّل التاريخ الذي حدث، ولا ندري عنه شيئًا في الغالب، تحت أرجلنا. في أثناء حفر محطة قطارات جديدة في لندن في عام 2015، عُثر على 3500 جثة من مقبرة تعود للقرنين السادس عشر والسابع عشر أسفل شارع ليفربول، بما في ذلك حفرة دفن لضحايا الطاعون العظيم عام 1665. ولحرق الجثث، نحرق الوقود الأحفوري، الذي سُمي كذلك لأنه تكوَّن من الكائنات الميتة المتحللة. تنمو النباتات من المواد المتحللة للنباتات التي سبقتها. وصفحات الكتاب الذي بين يديك مصنوعة من لب الخشب الخام المستخرَج من شجرة قُطعت في عزِّها. كل ما يُحيط بنا الموت من كل جزء من كل مدينة، وكل جزء من كل إنسان.

في ذلك اليوم الخريفي في فيينا، لم تكن جولتي في السرداب خاصة لأنني حملت بطاقة شاملة لكل الجثث. لقد كانت خاصة لأنني الشخص الوحيد الذي زار المكان.

وبالخارج، في فناء البلاط الذي كان ذات يوم مقبرة مزدحمة، جالت مجموعات من أطفال المدارس. لقد انتظروا بصبر إدخالهم إلى قصر هوفبورج للوقوف أمام آثار الماضي والجواهر والصولجانات الذهبية والمعاطف. وفي الكنيسة المقابلة للفناء مباشرة، نزولًا على السلالم الحجرية المنحدرة، توجد جثث من شأنها أن تعلِّم هؤلاء الأطفال أكثر مما يمكن للصولجانات. إنها أدلة

قوية على أن جميع من سبقوهم ماتوا. وكلنا سنموت يومًا ما. إننا نتجنب الموت الذي يحيط بنا مدركين خطورة ذلك.

فتجنُّب الموت ليس سقوطًا فرديًا، إنه سقوط ثقافة بأكملها. ومواجهة الموت ليست لأصحاب القلوب الضعيفة. من الأصعب بكثير أن تتوقع أن يفعل كل مواطن هذا بنفسه. تقبُّل الموت مسؤولية لجميع المتخصصين في الموت: مديري الجنائز، ومديري المقابر، والعاملين في المستشفيات. إنها مسؤولية من وقع على عاتقهم خلق بيئة ملموسة ومحسوسة من الممكن فيها التفاعل بانفتاح وأمان مع الموت والموتى.

قبل تسعة أعوام، حين بدأت في العمل مع الموتى، سمعت ممارسين آخرين يتحدثون عن ترك مساحة للشخص المُحتضر وعائلته. وبانحيازي العلماني، قلت لنفسي إن «ترك مساحة» مجرد لغة للسكيرين البُله. وكان حكمي خاطئًا، فترك مساحة لهم ضروري وهو بالضبط ما يحتاجون إليه ولا يجدونه. وترك هذه المساحة هو خلق دائرة من الأمان حول عائلة وأصدقاء الموتى، وتوفير مكان يمكنهم فيه الحزن بانفتاح وصدق دون الخوف من رأي الناس.

في كل مكان ذهبت إليه، رأيت مساحة الموت هذه، وشعرت بما يعنيه إتاحتها. في كولومباريوم روريدين باليابان، وقفت في فلك من تماثيل بوذا المتوهِّجة الناعمة الزرقاء والأرجوانية. في المقبرة في المكسيك، وقفت خلف سياج واحد من الحديد المطاوع في ضوء عشرات الآلاف من الشموع الكهرمانية المتلألئة. وعند المنصة المفتوحة في كولورادو، وقفت بين حوائط الخيزران الرقيق، التي أبقت المُعزين آمنين حين ارتفعت ألسنة اللهب. وجدت لكل هذه الأماكن سحرًا. ووجدت الحزن، الحزن الذي لا يمكن تصوُّره بسبب الفقد. لكن داخل هذا الحزن لم أر أي شعور بالخزي. كانت أماكن لمواجهة

اليأس وقول: «أراك تنتظر من بعيد. وأشعر بك بقوة، لكنك لا تُنقص من قدري».

في الحضارة الغربية، أين تُتاح لنا مساحة للحزن؟ لعلها تُتاح في الأماكن الدينية، كالكنائس والمعابد، لمن يؤمنون بدين. أما بالنسبة إلى غيرهم، فيُمثل أضعف وقت لنا في الحياة مجموعةً من العقبات المُحرِجة.

أولًا تأتي المستشفيات، التي تُعتبر غالبًا باردة ومعقَّمة ومجرد عروض رُعب. في لقاء قريب، اعتذرت إحدى معارفي منذ فترة طويلة عن صعوبة التواصل معها، والسبب أن والدتها توفيت للتو في أحد مستشفيات لوس أنجلوس. مرت الأم برحلة طويلة مع المرض، وقضت أسابيعها الأخيرة على مرتبة هواء خاصة، مصممة لمنع تقرحات الفراش التي يمكن أن تصاب بها بسبب عدم الحركة لفترة طويلة. بعد موت أمها، أخبرتها ممرضة متعاطفة أن بإمكانها أخذ كل الوقت الذي تحتاج إليه للجلوس إلى جانب جسد أمها. بعد بضع دقائق، اقتحم طبيب الغرفة. لم تقابل العائلة هذا الطبيب من قبل، ولم يختر تقديم نفسه أولًا. دخل ومد يده مباشرة إلى تقرير الأم وقرأه بسرعة، وبعدها انحنى ونزع قابس الكهرباء المتصل بالمرتبة. تقافز جسد أمها الذي غادرته الحياة إلى الأعلى، وظل يهتز من جانب إلى آخر «كالزومبي» في أثناء خروج الهواء من المرتبة. خرج الطبيب من الغرفة دون أن يقول كلمة واحدة. لم تُترك أي مساحة للعائلة. فبمجرد أن التقطت والدتهم أنفاسها الأخيرة، طُردوا.

بعدها، ذهبوا إلى دار الجنائز. اعترف أحد المسؤولين التنفيذيين في أكبر شركة جنائز ومقابر في البلاد مؤخرًا أن «الصناعة تهدف حقًّا إلى بيع تابوت»، فنظرًا إلى الانخفاض المتزايد لمن يرون قيمة لوضع جسم أمهم المُعالَج في نعش بقيمة 7 آلاف دولار، ويلجؤون إلى حرق الجثة البسيط بدلًا منه، توجَّب على الصناعة العثور على طريقة جديدة للنجاة من الناحية

المالية، ليس من خلال بيع «خدمة الجنازة» وإنما «التجمع» في «غرفة توفِّر تجربة متعددة الحواس».

وكما شرح مقال حديث في صحيفة وال ستريت: «باستخدام الصوتيات والمرئيات، يمكن لغرفة التجربة أن تخلق أجواء ملعب الجولف، تكتمل ببث رائحة العشب المقطوع حديثًا، للاحتفاء بحياة عُشَّاق الجولف. أو يمكنها استحضار الشاطئ أو الجبل أو الاستاد».

لعل دفع عدة آلاف الدولارات لإقامة جنازة ضمن محاكاة «متعددة الحواس» لملعب جولف ستتيح للأسرة مساحة الحزن، وإن كنت أشك في هذا.

أكملت أمي عامها السبعين مؤخرًا. وفي منتصف أحد الأيام، تخيلت كنوع من التدريب التحدث إلى جثة أمي المُحنَّطة بعد إخراجها من القبر كما يفعلون في تانا توراجا في إندونيسيا. سأجذب جثتها ناحيتي وأوقفها وأنظر في عينيها بعد سنوات من موتها. لم تعد الفكرة تزعجني. لم أتمكن من تحمل المهمة وحسب، بل تيقنت من أنني سأجد العزاء في هذا الطقس.

إن إتاحة المساحة لا يعني إغراق العائلة في حزنها. إنها تعني أيضًا منحهم مهامًا ذات مغزى. استخدام عيدان تناول الطعام لرفع العظام بشكل مُنظَّم ووضعها في جرة، وبناء مذبح لدعوة الروح للزيارة مرة كل عام، وحتى إخراج الجثة من القبر لتنظيفها وإصلاحها: هذه الأنشطة تمنح الملكومين إحساسًا بالهدف. وشعور الملكومين بأن لهم هدفًا يساعدهم على الحزن. والحزن يساعدهم على البدء في الشفاء.

لن نستعيد طقوسنا إن لم نحضر. احضر أولًا، والطقس سيأتي تاليًا. اعقد العزم على حضور الحرق وعلى حضور الدفن. اعقد العزم على المشاركة، حتى ولو من خلال تسريح شعر الأم وهي نائمة في التابوت. اعقد العزم على

وضع اللون الذي تحبه على شفاهها: اللون الذي لم تتخيل أن تذهب إلى قبرها دونه. اعقد العزم على أخذ قصاصات صغيرة من شعرها لوضعها في قلادة أو خاتم.

مكتبة سُر مَن قرأ

لا تخف. إنها تصرفات إنسانية، شجاعة ومُحبة في وجه الموت والفقدان. سأكون مرتاحة وأنا أجلس بجوار جثة أمي؛ إنها مساحة لي معها. ولن أضيف إلى الطقوس التسلل إلى المقبرة في الليل الدامس لإلقاء نظرة على ماما. بل ستتضمن إخراج شخص أحبه، وأحزن على فقدانه، في عز النهار. مرحبًا يا أمي، ويا جيراني وأهلي ومجتمعي الذي يحيطني بالدعم. يقولون إن ضوء الشمس هو أفضل مُطهر. ومهما يتطلب الأمر، ليبدأ العمل الشاق لجذب الغرب من خوفه من الموت وخزيه منه وحزنه عليه، ووضعه تحت أشعة الشمس المُطهِّرة.

شكر وتقدير

صدِّقني، لم أسافر حول العالم دون مساعدات حقيقية.

هذا الكتاب كان خرِبًا وخاليًا. إنه منحة من العدم قدمتها لنا الأم والوكيلة «أنا سبرولللاتيمر»، والأب المحرر «توم ماير». قالا: «ليكن كتابًا!» فكان كتابًا.

إلى جميع الرائعين الآخرين في فريق كيتلين في و. و. نورتون & كومباني، مع شكر خاص لـ «ستيف كولكا»، و«إيرين سينسكي لوفيت»، و«سارة بولينج»، و«أليجرا هوستون»، و«إليزابيث كير»، و«ماري كيت سكيهان».

الأعين المتوحشة التي مزقت المسودات المبكرة لهذا الكتاب: «ويل س. وايت»، و«لويز هونج»، و«ديفيد فورست»، و«مارا زيلر»، و«ويل سلوكومب»، و«أليكس فرانكل».

«بول كودوناريس»... لمجرد كونك أنت.

«سارة شافيز»، لكونها ذراعي اليمنى في كل شيء وائتمانك لي على قصتك.

مديرة الجنائز المسكينة «أمبر كارفالي»، التي تُركت وحيدة بدار جنائز حين كانت مالكتها غائبة. «بيانكا دالدير-فان إيرسيل» و«كونر حبيب»، لدفعي خلف خط النهاية بالركل والصراخ.

في رحلاتي: جميع الأعضاء الملهِمين في مشروع نهاية الحياة بكريستون في كولورادو و«أهجوس لامبا».

وإلى «كاتي إناموراتو» في إندونيسيا، و«كلوديا تابيا» و«مايرا سيسنيروس» في المكسيك، و«إريكو تاكيوتشي» و«أياكو ساتو» في اليابان، و«كاترينا سبيد» و«شيريل جونستون» في شمال كارولينا، و«جوردي نادال» في إسبانيا، و«أندريس بيدويا» في بوليفيا.

أخيرًا «لانديس بلير»، الذي كان عشيقًا لا بأس به، ولكنه أصبح الآن شريك عمل ناجحًا.

المصادر

كارولينا الشمالية: كولوهي

Fraser, James W. Cremation: Is It Christian? Loizeaux Brothers, Inc., 1965.

Herodotus. The History. Translated by David Grene, Uni- versity of Chicago Press, 2010.

Seeman, Erik R. Death in the New World: Cross-Cultural Encounters, 1492–1800. University of Pennsylvania Press, 2011.

———. The Huron–Wendat Feast of the Dead: Indian– European Encounters in Early North America. Johns Hop- kins University Press, 2011.

كولورادو

Abbey, Edward. Desert Solitaire: A Season in the Wilderness.

Ballantine Books, 1971.

«Hindu Fights for Pyre 'Dignity.' » BBC News, March 24, 2009.

Johanson, Mark. «Mungo Man: The Story Behind the Bones that Forever Changed Australia's History». Inter- national Business Times, March 4, 2014.

Kapoor, Desh. «Last Rites of Deceased in Hinduism».

Patheos, January 2, 2010.

Laungani, Pittu. «Death in a Hindu Family». Death and Bereavement Across Cultures. Edited by Colin Murray Parkes, Pittu Laungani, and Bill Young. Taylor & Francis, Inc., 1997.

Marsh, Michael. «Newcastle Hindu Healer Babaji Daven- der Ghai Reignites Funeral Pyre Plans». Chronicle Live, February 1, 2015.

Mayne Correia, Pamela M. «Fire Modification of Bone: A Review of the Literature». In Forensic Taphonomy: The Postmortem Fate of Human Remains. Edited by Marcella

H. Sorg and William D. Haglund. CRC Press, 1996.

Prothero, Stephen. Purified by Fire: A History of Cremation in America. University of California Press, 2002.

Savage, David G. «Monks in Louisiana Win Right to Sell Handcrafted Caskets». Los Angeles Times, October 19, 2013.

Adams, Kathleen M. INDONESIA Art as Politics: Re-crafting Identities,

Tourism, and Power in Tana Toraja, Indonesia. University

of Hawaii Press, 2006.

——— «Club Dead, Not Club Med: Staging Death in

Contemporary Tana Toraja (Indonesia)». Southeast Asian Journal of Social Science 21, no. 2 (1993): 62–72.

——— «Ethnic Tourism and the Renegotiation of Tra- dition in Tana Toraja (Sulawesi, Indonesia)». Ethnology 36, no. 4 (1997): 309–20.

Chambert-Loir, Henri, and Anthony Reid, eds. The Potent Dead: Ancestors, Saints and Heroes in Contemporary Indo- nesia. University of Hawaii Press, 2002.

Mitford, Jessica. The American Way of Death Revisited.

Knopf Doubleday, 2011.

Tsintjilonis, Dimitri. «The Death-Bearing Senses in Tana Toraja». Ethnos 72, no. 2 (2007): 173–94.

Volkman, Toby. «The Riches of the Undertaker». Indone- sia 28 (1979): 1–16.

Yamashita, Shinji. «Manipulating Ethnic Tradition: The Funeral Ceremony, Tourism, and Television among the Toraja of Sulawesi». Indonesia 58 (1994): 69–82.

المكسيك

Bradbury, Ray. «Drunk, and in Charge of a Bicycle». The Stories of Ray Bradbury. Alfred A. Knopf, 1980.

Carmichael, Elizabeth, and Chloë Sayer. The Skeleton at the Feast: The Day of the Dead in Mexico. University of Texas Press, 1991.

«Chavez Ravine: A Los Angeles Story». Written and directed by Jordan Mechner. Independent Lens, PBS, 2003.

The Life and Times of Frida Kahlo. Written and directed by Amy Stechler. PBS, 2005.

Lomnitz, Claudio. Death and the Idea of Mexico. Zone Books, 2008.

Quigley, Christine. Modern Mummies: The Preservation of the Human Body in the Twentieth Century. McFarland, 2006. Zetterman, Eva. «Frida Kahlo's Abortions: With Reflec- tions from a Gender Perspective on Sexual Education

in Mexico». Konsthistorisk Tidskrift / Journal of Art His- tory 75, no. 4: 230–43.

Brunetti, Ludovico. Cremazione e conservazione dei cadaveri. Translated by Ivan Cenzi. Tipografia del Seminario, 1884.

Ellis, Richard. Singing Whales and Flying Squid: The Dis- covery of Marine Life. Lyons Press, 2006.

Fryling, Kevin. «IU School of Medicine–Northwest Hon- ors Men and Women Who Donate Their Bodies to Educate the Next Generation of Physicians». Inside IU, February 6, 2013.

Helliker, Kevin. «Giving Back an Identity to Donated Cadavers». Wall Street Journal, February 1, 2011.

Laqueur, Thomas. The Work of the Dead: A Cultural History of Mortal Remains. Princeton University Press, 2015.

Monbiot, George. «Why Whale Poo Matters». Guardian, December 12, 2014.

Nicol, Steve. «Vital Giants: Why Living Seas Need Whales». New Scientist, July 6, 2011.

Perrin, W. F., B. Wursig, and J. G. M. Thewissen, eds. Encyclopedia of Marine Mammals. Academic Press, 2002. Pimentel, D., et al. «Environmental and Economic Costs of Soil Erosion and Conservation Benefits». Science 267,

no. 24 (1995): 1117–22.

Rocha, Robert C., Phillip J. Clapham, and Yulia V. Ivash- chenk.«Emptying the Oceans: A Summary of Indus- trial Whaling Catches in the 20th Century». Marine Fisheries Review 76 (2014): 37–48.

Whitman, Walt. Leaves of Grass. Dover, 2007.

إسبانيا

Adam, David. «Can Unburied Corpses Spread Disease?»

Guardian, January 6, 2005.

Estrin, Daniel. «Berlin's Graveyards Are Being Converted for Use by the Living». The World, PRI, August 8, 2016.

Kokayeff, Nina. «Dying to Be Discovered: Miasma vs.

Germ Theory». ESSAI 10, article 24 (2013).

Marsh, Tanya. «Home Funerals, Rent-Seeking, and Reli- gious Liberty». Huffington Post, February 22, 2016.

Rahman, Rema. «Who, What, Why: What Are the Burial Customs in Islam?» BBC News, October 25, 2011.

اليابان

Ashton, John, and Tom Whyte. The Quest for Paradise.

HarperCollins, 2001.

Bernstein, Andrew. Modern Passing: Death Rites, Poli- tics, and Social Change in Imperial Japan. University of Hawaii Press, 2006.

Brodesser-Akner, Taffy. «Marie Kondo and the Ruthless War on Stuff». New York Times Magazine, July 6, 2016. «Family of Dead '111-Year-Old' Man Told Police He Was a 'Human Vegetable.' » Mainchi Shimbun, July 30, 2010.

Iga, Mamoru. The Thorn in the Chrysanthemum: Suicide and Economic Success in Modern Japan. University of Cali- fornia Press, 1986.

Lloyd Parry, Richard. People Who Eat Darkness: The True Story of a Young Woman Who Vanished from the Streets of Tokyo—and the Evil That Swallowed Her Up. Farrar, Straus & Giroux, 2011.

Lynn, Marri. «Thomas Willson's Metropolitan Sepul- chre». Wonders and Marvels, 2012.

Mochizuki, Takashi, and Eric Pfanner. «In Japan, Dog Owners Feel Abandoned as Sony Stops Supporting 'Aibo.' » Wall Street Journal, February 11, 2015.

Schlesinger, Jacob M., and Alexander Martin. «Graying Japan Tries to Embrace the Golden Years». Wall Street Journal, November 29, 2015.

Stevens Curl, James. The Egyptian Revival: Ancient Egypt as the Inspiration for Design Motifs in the West. Routledge, 2013. Suzuki, Hikaru. The Price of Death: The Funeral Industry in

Contemporary Japan. Stanford University Press, 2002. Venema, Vibeke. «How the Selfie Stick was Invented

Twice». BBC World Service, April 19, 2015.

Dear, Paula. «The Rise of the 'Cholitas.' » BBC News, February 20, 2014.

Faure, Bernard. The Power of Denial: Buddhism, Purity, and Gender. Princeton University Press, 2003.

Fernández Juárez, Gerardo. «The Revolt of the 'Ñatitas': 'Rit- ual Empowerment' and Cycle of the Dead in La Paz, Bolivia». Revista de Dialectología y Tradiciones Populares 65, no. 1 (2010): 185–214.

Harper, Elizabeth. «The Neapolitan Cult of the Dead: A Profile for Virginia Commonwealth University».

Virginia Commonwealth University's World Religions and Spirituality Project.

Nuwer, Rachel. «Meet the Celebrity Skulls of Boliv- ia's Fiesta de las Ñatitas». Smithsonian, November 17, 2015.

Scotto di Santolo, A., L. Evangelista, and A. Evangelista. «The Fontanelle Cemetery: Between Legend and Reality». Paper delivered at the Second International Symposium on Geotechnical Engineering for the Pres- ervation of Monuments and Historic Sites, University of Naples Federico II.

Shahriari, Sara. «Cholitas Paceñas: Bolivia's Indigenous Women Flaunt Their Ethnic Pride». Guardian, April 22, 2015.

———. «Skulls and Souls: Bolivian Believers Look to the Spirit World». Al Jazeera, November 12, 2014.

Wilson, Liz. Charming Cadavers: Horrific Figurations of the Feminine in Indian Buddhist Hagiographic Literature. University of Chicago Press, 2006.

كاليفورنيا

Desai, Sapur F. History of the Bombay Parsi Punchayet, 1860–1960. Trustees of the Parsi Punchayet Funds and Properties, 1977.

Moss, Marissa R. «Flashback: Gram Parsons Dies in the Desert». Rolling Stone, September 19, 2014.

Hannon, Elliot. «Vanishing Vultures a Grave Matter for India's Parsis». NPR, September 5, 2012.

Jacobi, Keith P. «Body Disposition in Cross-Cultural Context: Prehistoric and Modern Non-Western Soci- eties». In Handbook of Death and Dying, edited by Clif- ton D. Bryant. SAGE Reference, 2003.

Kerr, Blake. Sky Burial: An Eyewitness Account of China's Brutal Crackdown in Tibet. Shambhala, 1997.

Khan, Uzra. «Waiting for Vultures». Yale Globalist, December 1, 2010.

Kreyenbroek, Philip G. Living Zoroastrianism: Urban Parsis Speak about their Religion. Routledge, 2001.

«The Strange Tale of Gram Parsons' Funeral in Joshua Tree». DesertUSA, September 14, 2015.

Subramanian, Meera. «India's Vanishing Vultures». VQR

87 (September 9, 2015).

الخاتمة

Hagerty, JamPes R. «Funeral Industry Seeks Ways to Stay

Relevant». Wall Street Journal, November 3, 2016.

Ruggeri, Amanda. «The Strange, Gruesome Truth about Plague Pits and the Tube». BBC, September 6, 2015.

قراءات إضافية حول عالم الموت

Jones, Barbara. Design for Death. Bobbs-Merrill, 1967. Koudounaris, Paul. Memento Mori: The Dead Among Us.

Thames & Hudson, 2015.

Metcalf, Peter, and Richard Huntington. Celebrations of Death: The Anthropology of Mortuary Ritual. Cambridge University Press, 1991.

Murray, Sarah. Making an Exit: From the Magnificent to the Macabre—How We Dignify the Dead. Picador, 2012.

مكتبة سُر مَن قرأ

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa